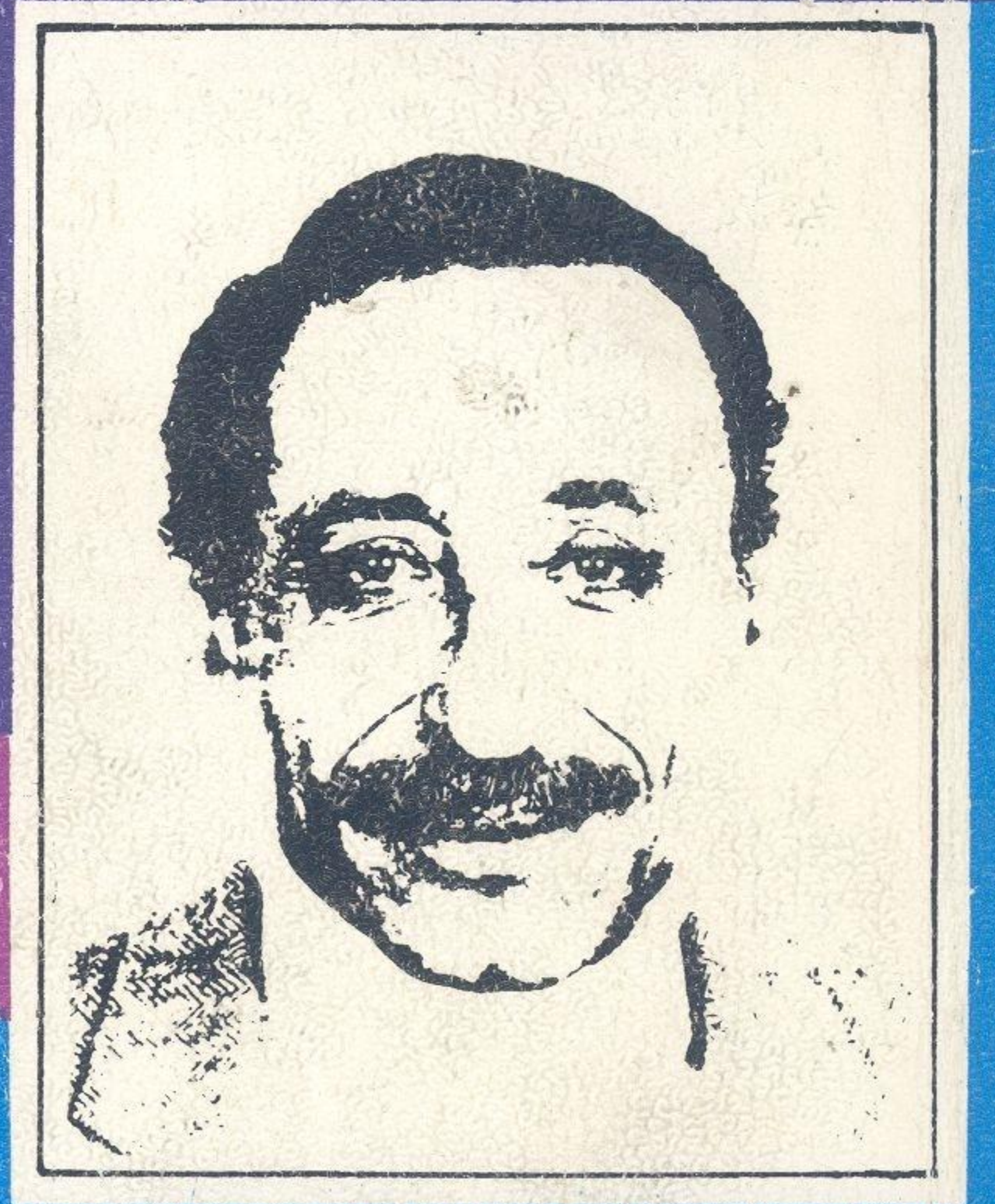


البحار

الأعمال الكاملة



البحار

وقصص من البحر

الطبعة الثانية

البحارُ مُندَر

وقصص من البحر

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٨٧ م ١٤٠٨ هـ

الناشر خارج جمهورية مصر العربية



المدارس المستوية للنشر والتوزيع

P.O.Box 8558 Nicosia - Cyprus

Tel (02) 488888 - Tlx 5341

نيكوسيا - قبرص ص. ب ٨٥٥٩

ت : ٤٩٨٦٨٨ تليكس ٥٣٤١

الناشر

أبوللو للنشر والتوزيع



١٦ شارع بورسعيد - التوفيقية -

ص. ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤

عمارات أبو الفتوح - عمارة ٢٩

شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

رقم الايداع بدار الكتب ٨٧/٥٣٧٤
التقليم الدولي ٠ - ٠٥ - ١٦٥٠ - ٩٧٧ ISBN

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

طبع بمطابع دار المنار العربى ١ شارع العامل الأول - إمبابة ت : ٣٤٥٢٢٦٤

قصة البحار مندى

• الصورة الأولى

أحكى لكم مغامرات البحار مندى .
لقد أصبح مندى الآن بحارا مخضرمًا ، ذا رأس كبير وشارب هائل
رمادى اللون ، وشعر كثيف يختفى تحت طاقة من الصوف تحميه من برد
الشتاء وحر الصيف ... أصبح مندى الآن أسطورة يتناقلها البحارة في
السفن التي تعبر البحار والمحيطات وتملاً موانئ الدنيا من مشرقها الى مغربها
ومن شمالها الى جنوبها ، فما من ميناء في الدنيا الا وتجد فيه أثرا من آثار
مندی ، أثرا قد يكون امرأة وقعت في طريقه فأحبته ليومين أو ثلاثة ، ثم
ظلت تحكى عنه سنوات في انتظار أن يعود ، وقد يكون الأثر معركة من
تلك المعارك التي اذا ما خاضها مندى صال فيها وجال وحطم وضرب
وتلقى الضربات ، غير أنه في النهاية ، دائما ، ما يخرج منتصراً ... وما من
سفينة تمخر عباب المياه الدافئة أو الباردة أو الثائرة الا وعثرت فيها على رجل
التقى به مرة ، أو عمل معه مرة ... وعلى مدى ثلاثين عاما ، أصبح
مندی الآن أسطورة يتناقلها البحارة في حب واعزاز ، أو في غيره من
لايستطيع أن يصبح مثله .

غير أن الذين يعرفون حياة مندى في هذا العالم قليلون ... ذلك أن

مندى — ابدا — لايقص قصص مغامراته أو حياته ... انه من ذلك النوع من البشر الذى يصنع القصص ولايحكيها ، ذلك أن المرات القليلة التى حكى فيها شيئا عن حياته ، مرات نادرة ... لاتستطيع أن تعثر عليها الا بجهد من يعثر على أبرة فى كومه من القش ، أو سمكة صغيرة فى محيط بلا شواطىء ...

ولقد عرفت مندى هذا .

عرفته قبل أن يصبح بحارا وقبل أن ينبت شاربه الكث الرمادى اللون ، وقبل أن تطأ قدمه ظهر سفينة ، عرفته صبيا يافعا يقطع شوارع الاسكندرية فى حركة ونشاط ، يجوب أرصفة الميناء ليل نهار ، يبيت أحيانا فى قاع قارب ، ويجلس بالساعات ناظرا الى سفينة راسية يتغزل فيها كما يتغزل عاشق فى محبوه عسيرة المنال ...

فى تلك الأيام البعيدة ، كان مندى ذا وجه مليح ، وعينين سوداوين تحيطهما هالة سوداء تضى على نظراته سحرا من نوع خاص ، كان طويلا ، وكان نحىلا ، وكان عنقه من ذلك النوع الذى ينطلق من بين الكتفين كرمح يحمل رأسا ذا تكوين خاص .

فى تلك الأيام البعيدة وقع مندى فى الحب لأول مرة فى حياته . ولم يكن حبه من ذلك النوع الذى يمارسه الصبية أو الشبان الذين هم فى مقتبل العمر ... بل كان حبا قويا عارما عنيفا ، من ذلك النوع الذى تضطرم فيه العواطف وتستقر وتتحول الى اتون يكتوى به القلب ليل نهار ... ذلك أن مندى — هكذا كان حظه دائما — لم يقع فى حب فتاة عادية كعامة الفتيات اللاتى كنا تقع فى حبهن ونحن صغار ، بل وقع فى حب زُغدانه .

ولقد كانت تلك المنطقة المحيطة بميناء الاسكندرية ، فى الأزمنة الخالية ، والتي تمتد من رأس التين بجذء الشاطىء زاحفة حتى باب سته ،

ثم باب الكراسته ... كانت تلك المنطقة في الأزمنة الخالية ذات طابع خاص ... كانت الحياة فيها لاتنام ليلا أو نهارا ، وكان البحارة فيها ، من كل جنسيات الأرض ، يسعون سعيهم الحثيث نحو اجتلاب اللذة والنشوة والحب ، كانت منطقة تمور بالحياة وتموج بالأحداث ... غير أنه ، في تلك البقعة التي تقع فيما بين شاطئ رأس التين وباب واحد ، حيث تقوم مباني الموانئ والمنائر ، وتتكدس فيها السفن القديمة والمستهلكة ، ويمتد فيها رصيف النورس يحمل فوق سطحه عشرات من بقايا السفن القديمة والمحطمة ... في تلك البقعة من الميناء ، كان يقوم مقهى « أبو شفه » .

ولقد كان أبو شفه هذا بحارا اعتزل المهنة اثر عاصفة دمرت سفينته ولم ينج منها سوى بضعة رجال تعلقوا ببقايا السفينة الطافية بعد أن ابتلعها الأمواج ، كان اسم أبو شفه هذا هو « الكومى » ، وفقد الكومى في العاصفة ذراعا وعينا ، كما شقت شفته العليا نصفين كانت أسنانه تبدو من بينهما ... واعتزل أبو شفه العمل في البحر . ووجد لنفسه مكانا فوق رصيف النورس بنى فيه مقهى صغيرا من بقايا السفن ، وقبع هناك مع امرأته وابنته ، وراح يبيع الشاى والأطعمة لعمال السفن والبحارة ، وأكفى من الحياة بتلك البقعة ، يعيش فيها ، ينام فيها ويأكل فيها ويشرب ... وكانت ابنة أبو شفه هى زُغدانة .

فتحت زغدانة عينيها على الحياة هنا ... في تلك البقعة الصامته الآسنة من الدنيا ، تحيط بها جثث السفن المحطمة والقوارب المستهلكة . تمتد الميناء أمامها محدودة الوجود بأجساد السفن الرائحة والغادية أو الراسية ، تفتح عينيها في الصباح على شجار أمها وأبيها ، وتسعى يومها بين الرجال ذوى السواعد القوية والألفاظ الخشنة والأسنان التي تنهش الطعام وتزدرده دون مضغ . تضرب مياه الميناء جانب الرصيف بأمواج مصنوعة من أجساد السفن المارة ... وتداعب أذنها أسراب النورس التي تحط فوق الرصيف عند الغروب صانعة تلك السيمفونية الغريبة من الأنغام ...

في هذا المكان شبت زغدانة ، شبت لا تحمل من أنوثتها سوى جسد قوى فائر عنيف التكوين . كان أبوها عندما كبرت وانتفض جسدها في اكتمال مبكرا ، قد أصبح حطاما ، لا يملك سوى لسان طويل يلهب به أذنيها كلما رآها ، وعين كانت تسرح الى بعيد ، الى حيث البوغاز ، بوابة الميناء ، الى حيث البحر المتسع والدنيا التي ولت ... أما أمها ، فلقد كانت تقضي يومها فيما بين العمل في المقهى الصغير ، والذهاب الى حيث السوق لتشتري طعاما أو تتسوق شايا وسكرا ، أو تتاجر فيما يقع بين يديها من فضلات البحارة الذين كانوا دائما مايجومون حول المكان استجلابا لرضاء زغدانة أو شتائمها .

ولقد حدث ماحدث ذات يوم على غير انتظار .

كان الوقت صيفا ، وكان مندى في تلك الأيام يسعى وراء حلمه العظيم ، أن يجد سفينة — أية سفينة — يرضى قبطانها أن يستخدمه على سطحها ، ساقته قدماه في رحلة من تلك الرحلات التي كان يجوب فيها أرصفة الميناء الى حيث رصيف النورس ومقهى أبو شفه ... وهناك ، وعند نهاية الرصيف المطل على بوغاز الميناء الصغير المؤدى الى ورش الترسانة البحرية ، التقى مندى بزغدانة .

كان الوقت صيفا ، وكان ظهرا . وحرارة الشمس تلفح الدنيا بلهبها ، وتدفع الأفكار في رأس مندى كي يقفز الى المياه ليرطب جسده ، عندما وقع بصره على شيء اذهله .

فعندما هم مندى بأن يخلع ملابسه ، صك سمعه ذلك الصوت الذى ينبىء عن وجود جسد يسبح في المياه ، التفت الى اليسار فوجد رأسا يبرز من تحت سطح المياه ، ووجها جميلا ، فى جماله وحشية لم يعهدها من قبل فى وجوه الفتيات ، فى الوجه عينان واسعتان تطلقان بدل النظرات شررا . وشعر فاحم ينساب من الرأس ملتصقا بفعل المياه بالعنق ثم الكتفين ...

ولقد ظل مندى لدقائق يحملق في صاحبة الوجه كما ظلت صاحبة
الوجه تحملق بعينيها في وجهه ... ثمة لحظات قد مرت في ذلك الوقت
المهجور من الزمن ، كانت تحمل في طياتها بذرة قص حب لم تمت أبدا .
قبل أن يفيق مندى من المفاجأة ، كان صوت زغدانه يمزق السكون
صائحا :

« دور وشك الناحية الثانية ! »

في البداية ... ظن مندى أن مايراه ليس سوى عروسة من عرائس
البحر ، ولقد كانت قصص عرائس البحر تلهب خياله الصبي ، ولطالما
تمنى أن يلتقى بواحدة منهن تحمله معها الى قاع البحر حيث قصور أبيها
المصنوعة من الذهب والفضة والمرجان ، صاحت زغدانه فيه لكنه كان
كالمنوم ، صامتا جامدا ، محملقا ، مشدوها ... وعندما عادت إلى الصباح
مرة أخرى ، لم تكن زغدانة تدرى أنها تنهر من لا يجب أن ينهره أحد ...
كانت تعلم ، كما كان يعلم كل الرجال الذين تعاملوا مع مقهى أبو شفه .
أنها مخيفة . وأنه يكفي لرجل أن يتفوه بلفظ أو يأتي بتصرف حتى تنشب
أظافرها في عنقه وتنهال عليه سبا ولكما ، وقد تقذفه بقطعة من الحديد أو
بججر ملقى فوق الرصيف ، وكانت دائما ماتتصر .

ولقد سمع مندى عن مقهى أبو شفه كما سمع عنه كل من كان يعمل
في الميناء أو يرتادها ، ولقد سمع مندى أيضا عن زغدانة ابنة أبي شفه هذا
غير أنه لم يكن قد رآها من قبل ، لكنه الآن ، أدرك بغريزته ، أنه أمام قدر
لامفر له منه ... وهكذا تلقى صيحتها الأولى جامد الملامح ، لكنه تلقى
صيحتها الثانية وهي تنهره وتطلب منه أن يدارى وجهه حتى تخرج من
المياه ، بابتسامة مستهينة ، وظلت عيناه تحملقان في عينيها بسعادة كانت
تزغرد في نظراته ... وعندما اقتربت زغدانة من أحجار الرصيف ، كان
مندى لا يزال حيث كان جالسا ، مدليا ساقيه نحو المياه . حتى اذا ما

أصبحت زغدانة الآن تحت قدميه تماما . نظرت اليه نظرات غاضبة وهي تسأله :

« مش عاوز تدور وشك ليه ؟! »

« وادور وشي ليه ؟! »

« علشان اطلع والبس هدومي ! »

وتلفت مندى حوله باحثا بعينه عن ملابسها ... وما أن وقعت عيناه على الجلباب المكوم هناك في آخر الرصيف ، حتى برقت في ذهنه فكرة ... و... ولم تكن زغدانة في حاجة الى اكثر من هذا ... ففى لمح البصر ، كانت قد غطست في المياه ثم انطلقت في الهواء كسمكة مدربة ، وامتدت يدها الى ساقه فجذبتة الى المياه ...

كانت هذه لحظات ، مجرد لحظات خاطفة وجد مندى نفسه بعدها يسبح بملابسه في مياه الميناء ، بينما جسد زغدانة العارى يعدو نحو جلبابها المكوم ، وقبل ان يفيق أو ينتبه كانت قد ارتدت الجلباب ، وسترت نفسها ، ووقفت تنظر اليه ساخرة !

هكذا بدأت القصة ... قصة الحب الغامضة في حياة البحار مندى ، والتي لولاها لما كان كل ما كان في حياته ، ولما تحولت أحلامه من مجرد أحلام تسعى في رأسه الى واقع احال حياته الى أسطورة ... وعندما خرج مندى من المياه كانت زغدانه قد اختفت وسط انقراض السفن التي تملأ رصيف النورس ... كانت آخر مرة رآها فيها وهي تقف عند قمة الرصيف وقد التصق جلبابها بجسدها بفعل المياه ، وضحكها الساخرة تجلجل في سكون الظهيرة الآسن ، ثم ، وعندما كان يضرب المياه بذراعيه نحو الرصيف ... اختفت زغدانة ... ذابت . وعندما صعد الى الرصيف كانت المياه تبخر بسرعة من فوق جسده . لكنه كان لاهث الأنفاس ، زائف العينين ، في صدره غضب ثائر رهيب لم يدر له سببا ، فراح يسعى

بين انقراض السفن بحثا عنها ... كان الصمت عميقا ، والسكون كثيفا ،
لا تبدده الا صفارات السفن التي تنطلق في عرض الميناء من بعيد
وكان عليه أن يجد زغدانه . فأين يجدها الا في مقهى أبو شفه؟! .

لا يعلم مندى ، وحتى اليوم ، ما الذى حدث له في تلك اللحظات
الغريبة من عمره ، كان ، كلما جلس الى نفسه وتذكر تلك اللحظات ،
لا يخرج من ذكرياته الا بهذا الاحساس الغريب الذى يمتزج فيه الفرح
بالحزن ، والسعادة بالغضب ، والراحة بالتعب ... كان مافعلته زغدانه
وكأنه قد فجر في صدره كل المشاعر التي عرفها وكل الاحاسيس التي
مازالت ، وحتى اليوم ، تتأجج في صدره .

كان سعيه بين انقراض السفن قد استغرق من الوقت ما كان كافيا
لان يجفف ملابسه وجسده ... وكان اليأس من العثور على تلك الجنينة قد
بلغ مداه فقرر أن يذهب الى مقهى أبو شفه ، ليقبع هناك في انتظارها ...
وعندما هم بالانصراف ، جاءه صوتها من حيث لا يدري :

« بتدور على حاجة يا شاطر؟! »

تلفت يمينه ويسرة فلم يجد أحدا ، قفز خلف قارب ملقى على جانبه
ودار حوله فلم يجد أحدا ... انسابت ضحكة مرحة في سكون الظهيرة
هذا فارتجف . رفع رأسه الى اعلى وكانت زغدانه تجلس هناك . داخل ذلك
القارب الصغير المحطم الملقى فوق ربوة من بقايا السفن ... جمند في مكانه
ناظرا اليها ، ذلك أنها كانت تطل عليه من حيث كانت باسمه الوجه ، براءة
العينين ، في نظراتها تلك التي كانت تطلقها نحوه بريق مخدر ، بريق بدد في
نفسه كل غضب !!

« اسمك ايه؟! »

« مندى! »

«بتعمل ايه هنا؟»

«وانتى مالك!»

«عارف أنا مين؟!»

«زغدانه بنت أبو شفه!»

«تعرفنى قبل كده يا جدع؟!»

«سمعت عنك من العيال!»

«سمعت أيه؟!»

«انك بتعضى زى الكلاب!»

برز جسدها الفائر فوق حاجز القارب وانطلقت من عينيها نظرة غضب هائل فاجتاحه السرور فهتف :

«وسمعت ان اللي بتعضيه بياخلوه الاستتاليه!»

قبل أن يفيق أو يتم حديثه كان جسدها يقفز في الهواء ليسقط فوقه ... قبل أن يفيق أو ينتبه الى ما يحدث وجد مُندى نفسه ملقى على الأرض ، وزغدانه تجثم فوق صدره ، وانطلق من عينيها ذلك البريق المخدر فلم يشعر ، أبدا ، بأية رغبة في المقاومة ... بل ترك نفسه لشتائمها التي كانت تقذفها من بين شفيتين مكترزتين ، ولفحت أنفاسها وجهه وهي تميل على عنقه فاغمض عينيهِ في نشوة ، لكنه ، في لحظة ، كان يطلق صرخة مدوية ، ذلك أن اسنان زغدانه كانت قد انغرست في عنقه بعنف ألمه الى حد الصراخ ... وعندما وقفت زغدانه فوق رأسه أحس بدفء الدماء تسيل فوق عنقه ، كان الألم طاغيا ، لكن ثمة هلوعا غريبا كان يجتاح كل جسده ... وجاء صوته ساخرا ليقول :

«يعنى أنا لازم أروح الاستتاليه بقى!»

وانطلق الشرر من عيني زغدانه مرة أخرى ، لكنها ، وقبل أن تعاود الهجوم عليه ، كان قد قفز اليها ، وهوى بكفه فوق وجهها في صفة تطاير

لها شعر زغدانه ، التي ردت على صفعته بلكمة أودعتها بطنه فتلوى من الألم ... وهكذا ... وفي هذا المكان المهجور ، كان جسداهما يلتحمان في عنف ، وكان كل منهما يضرب الآخر ضربات عمياء ... وكانت الدماء تسيل من عنق مندى ، كما كانت تسيل من فم زغدانه ... حتى اذا أحس كل منهما بالتعب ، حتى اذا وهن منهما الجسدان ارتميا في ظل القارب وهما يلهثان ... جلس كل مهما بجوار الآخر ، وارتمت أبصارهما فوق صفحة المياه البراقة باشعة الشمس ، ودوت في الميناء سفارة سفينة كانت قادمة من حيث المجهول ... وتتم مُندى :

«انا عاوز نركب مركب!»

التفتت نحوه زغدانه ، ووقع بصرها فوق الدماء التي جفت فوق عنقه ، وكان الجلد أزرق متورما ، فابتسمت هامسة :

«علشان تحرم!»

قال مندى :

«أنا جعان!»

هكذا بدأت القصة ...

قصة البحار مُندى الذي أصبح اليوم أسطورة يتناقلها البحارة في موانئ العالم وفوق ظهور السفن التي تقطع البحار والمحيطات ، قصة حبه لزغادنه تلك ، التي لم يكن يدري ، أنه قد كتب عليه أن يظل محبا عاشقا ملتاعا ، وأن ... وأن ...

ولكن ... لم نسبق الأحداث!؟

• الصورة الثانية •

اكتشف مندى ان الطريق الى زغدانة محفوف بالمخاطر ... كما
اكتشف أيضا ، أنه كى يصل اليها ، عليه أن يتخطى سدا من شباب
الترسانة والبحارة والمتسكعين والصيادين وكل من يحتسى الشاي فى المقهى
الصغير ... كان لقاءه الأول بها عاصفا ، لكنه لم يك يعلم أن حياته معها
سوف تكون عاصفة ، وحتى النهاية !

وهكذا ، ومنذ أن التقى مندى بزغدانه فى ذلك اليوم الآسن
الحرارة ، تغيرت حياته تماما ، أصبح ، اذا ماغادر بيته فى الصباح ، يتبع
ساقية اللتين كانتا تسعيان الى حيث رصيف النورس ، هناك حيث مقبرة
السفن وبقايا الآلات وأقدام الرجال تسعى خارجه أو داخله ... وكانت
زغدانه اذا مارأته برقت عينها الخضراوان بريق غريب ، وارتسمت على
ملاحمها تلك الابتسامة الغامضة التى لاتفصح عن نفسها ، وراحت نظراتها
تبعه أينما ذهب وأينما حل ... وكان ، فى بعض الأحيان ، يقترب كثيرا
ليجلس فوق عمود رفاص علاه الصدا ، وراح يعبث فى أترية الرصيف
بقدمه وهو يطلب « شىء بالحليب » ، وعندما فعل هذا فى المرة الأولى
جاءه صوت أمها الصارخ :

«انت ابن مين ياوله !»

«ابن حوا وآدم!»

رفعت المرأة رأسها اليه ورمته بنظرة غضب غير أنه لم يكن في انتظار نظرة الأم ، بل كان غارقا في عيني زغدانة التي كانت هناك ، عند حافة الرصيف ، تغسل الأكواب والأبريق وقد انثنى جسدها في ليونة فجرت في جسده عشرات المشاعر المضطربة المضطربة ... ارتدت المرأة ببصرها حيث كانت عيناه معلقتين فرأت ابنتها وهي ترميه بتلك النظرة التي كانت تعرف ، بخبرتها ، ماذا يمكن أن يكون وراءها ... صرخت :

«ماتيا لله يابت يا زغدانه!»

«حاضر يا أمه!»

ومن «حاضر يا أمه» هذه ، عرفت المرأة كل شيء ، ذلك أنها كانت تعرف ابنتها حق المعرفة ، تعرفها منذ ولدتها — على حد قولها — عندما كانت تكشر عن انيابها كلما اقترب منها انسان ، وكأنها خلقت لتشاكس الناس ... غير أن زغدانه ، وأن كانت شرستها لاتزال عالقة بنظراتها ، الا أن ظل الابتسامة هذه قد حدث قلبها بما سوف يكون فيما هو قادم من أيام .

في ذلك اليوم وقع فوق رصيف النورس حادث جلل ... ذلك أن السلطة الانجليزية في الميناء ، قد سحبت احدى السفن الحربية الى الرصيف وتركتها هناك ...

هكذا بلا مقدمات ودون أن يعرف أحد من الرجال ماهية الأمر ، أطلق «التج» — وهذا اسم جرار السفن في الميناء — صفارته العريضة وهو يسحب تلك السفينة الخالية الا من بضعة رجال . وتركوها هناك .

يومها انقلب الحال فوق الرصيف ، وتعالى الصيحات بين الرجال من الصيادين والعمال . وضرب الجميع الخماسا في أسداس عن ماهية الأمر دون أن يصلوا الى حقيقة ما حدث ... السفينة معطلة ، المدافع فوقها ،

وعلى أجنابها الحبال والجنازير وكل شيء كل شيء ، ثم لأحد هناك سوى
ثلاثة من البحارة الانجليز . كان أحدهم يضع على ذراعه شريطين ، ويرسم
عليه وشما ملونا هائلا . ولاشيء هناك سوى هذا .

«هالو جوني !»

لكن جوني - على غير العادة - لم يرد هذه المرة ...
كان يكفي ، في تلك الأيام ، أن يهتف واحد من المصريين لأى
انجليزى بهالو جوني هذه حتى يرد جوني بطلب ما من تلك الطلبات التى
تعود جنود الاحتلال المغتربين عن أوطانهم ويوتهم لأسباب لايعرفونها ان
يطلبوها ... لكن الجنود الانجليز الثلاثة لاذوا بالصمت . فقط : كانوا
يصيحون فى صلف « جو أواى » ، أى اذهب بعيدا ...

وهكذا أعلنت حالة الطوارئ بين الناس فوق الرصيف .
وارتبكت أحوال المقهى قليلا فلقد آثر بعض الرجال الابتعاد عن
موطن الخلاف أو الشرور ... وكل الرجال ، كل الرجال بلا استثناء راحوا
يتساءلون عن سبب مجيء هذه السفينة الى رصيف النورس ، ماعدا اثنين
من كانوا هناك فى ذلك اليوم وشاهدوا الحدث العظيم ، هما زغدانة
ومندى !

كان جزء من النهار قد انقضى ومندى لايفعل شيئا سوى التسكع
بين حطام السفن والنظر من بعيد نحو زغدانه التى كانت تلبى طلبات
الزبائن الذين قلّ عددهم ، وتستمع الى دعوات أمها الضارعة بالخراب
المستعجل على الانجليز والسلطة واليوم الذى رأوهم فيه ، غير أنها ، وطول
تلك الفترة ، كانت هى الأخرى تبحث بعينها دونما رغبة منها ، عن ذلك
الذى زرع فوق الرصيف ، وبدا وكأنه لن يغادره أبدا .

حتى حانت تلك اللحظة التى ظل مندى ينتظرها طوال اليوم ،
عندما تسللت زغدانة من جوار أمها وراحت تخوض وسط الاطلال الصدئة

الملقاة فوق الرصيف ، تصعد جبلا من الحديد وتغوص تحت ألواح هائلة وآلات مازال الشحم يغطي أجزاء منها رغم مرور الشهور والسنوات ... وهناك ، فى فجوة وسط الانقاض كانت فى الأصل غرفة قيادة قارب بخارى كبير ، وجد كل منهما نفسه أمام الآخر .

«طب أنت عاوز إية دلوقت ؟»

هكذا سأله ، وهكذا وجد نفسه أمام حقيقة بدت له غريبة كل الغرابة ... هو أن ذلك الحوار الذى كان يدور فى مخيلته منذ الصباح مع زغدانه ، لم يكن حوارا من طرف واحد ، بل كان حوارا متصلا بينه وبينها ، وعندما سأله عما يريد كان الرد جاهزا على لسانه :

«أيه حكاية الوله حوده ؟!»

«وانت مالك . اسم الله !»

تقصعت وهى تقذفه بالرد فى وحشية ... كان حودة هذا عاملا من عمال الترسانة ، كان طويلا عريضا مفتول العضلات قوى الذراعين ذا شعر أسود خشن يحيط برأسه وكأنه عمامة ، ولم يكن مندى يعرف ، أن حودة هذا بالذات الذى نطق لسانه باسمه دون كل الشباب الذين زاروا المقهى وشربوا فيه شايا وتبادلوا الحديث مع زغدانه وأمها ، لم يكن يعلم أن حوده هذا بالذات ، قد تحدث مع أم زغدانه فى أمر زواجه منها ، وأن الامر لم يتم لسبب لم يعرفه أحد !

«وأنا مالى ازاي بقى ؟»

«اسمع لما أقول لك ، ابعده عن سكتى أحسن لك !»

«لما تشوفى حلمة ودنك !»

«حاقول لحوده !»

«ماتقولى أن شاء الله للجن الأزرق !»

«واذا قعصك تحت أيده زى مافعص غيرك ؟!»

قال مندى :

«ومقام المرمى لاكون فاتح دماغه!»

كانا الآن يجلسان على أرض الكاينة المائلة ويسندان ظهرهما الى الجدار المحطم ، فبدت جلستهما وكأنها نوع من الاسترخاء لم يقصدا اليه ... غير أن مندى ، ما ان فاه بما فاه به ، حتى استرخت زغدانة فعلا ، واسندت رأسها الى الجدار ، وأطلقت من عينيها الخضراوين تلك النظرة المشعة التي تعود مندى ، منذ أن أطلقتها عليه لأول مرة ، أن يصاب بنوع غريب من الخدر يحول ثورته الى استسلام ، وغضبه الى طوفان من الحنين كان يتفجر من أعماقه بلا ارادة منه ... ساد الصمت لثوان وجاءه صوتها مبجوحا هامسا :

« بتحنى ياوله ؟ ! »

«وانا ايش عرفنى !»

ابتسمت زغدانه هذه المرة ابتسامة صريحة ، فازداد جمالها حتى ارتجف مندى أمام ذلك الوجه الذى اضاءته الابتسامة بنور بدا وكأنه يشع من الداخل ... وجاءته كلماتها فى صوت متكسر :

«أمال انت عاوز منى ايه ؟!»

احس مندى بالعجز ، بشيء يكبله ، تملل فى جلسته . دمدم وتمتم وتلاعب بأطراف سرواله ولعب أصابع قدميه الحافيتين القدرتين ... وعندما استحثه صوتها وهى تسأل :

«ماتقول !»

عاد يقول متبرما : « وأنا ايش عرفنى !»

لم تبتسم هذه المرة . بل ضحكت . كانت ضحكتها مثل تغريد طيور النورس ساعة صيد الاسماك الزاحفة فى أسرابها حول الرصيف . نظر اليها مندى فى غضب ولم يدر لم الغضب رغم أن قلبه قد رقص فرحا لضحكتها ... غير أنه ، وهو فى ذروة الغضب ، فوجيء بما لم ينتظره ،

تسمر ، جمد ، تحول الى لوح جامد من ألواح سفينة معطوبة ، فلقد مالت عليه زغدانة ، وطبعت على وجنته قبلة ، ثم همست :
«أصل حودة خطيبي يا عبيط !»

مالت الشمس نحو الغروب في ذلك اليوم وهما لا يزالان جالسين في تلك الفجوة بين الانقاض والتي كانت في الأصل غرفة قيادة لسفينة صغيرة يقف فيها القبطان أمرا ناهيا فيطاع أمره ونهيه ... كان الصمت بعد أن طبعت زغدانة قبلتها فوق وجنته خفيفا كغلالة رقيقة تحميها من حرارة الصيف في ذلك الظل ، ومن فتحة الكابينة كان سطح المياه في الميناء يتفرق تحت اشعة الشمس المائلة ، وثمة تيار من الهواء الرطب يخترق الفتحة لينفذ من النافذة فيبعث الخدر في الأوصال ... حتى اذا ماتحسس مندى مكان العضة في عنقه ، جاءه صوت زغدانه متكسرا نائما : « لسه زعلان !»

ولم يرد !

ذلك أن الأمر بدا له محيرا كل الحيرة . فلقد آلمته عضة زغدانة ، لاشك في هذا، سالت من لحمه الدماء وجفت وصنعت مع الوقت قشرة غير أنها تورمت وتحول لونها الأزرق الى لون أسود ، كانت تؤلمه نعم ، غير أنه كان يشعر مع الألم بلذة غريبة ، لذة حقيقية كتلك اللذة التي اجتاحت جسده لحظة أن التصقت شفتا زغدانة المكتنزتين بوجنته ... مالت زغدانة ، وقد طال صمته ، نحوه ، فلفحت أنفاسها الجرح في أسفل عنقه فسرت في جسد مندى رعشة واجتاحه الخدر عنيفا ...

«بتوجعك !؟»

«آه ... لأ ...»

ضحكت ضحكة خفيفة ... قالت :

«أمي سألتني عنك !»

التفت نحوها فاذا أنفاسهما مثل عاصفتين تهبان من اتجاهين مختلفين ،
وإذا دوامة من الأنفاس المختلطة تدور بين وجهيهما ، وإذا لحظات سكري
تجتاحهما معا ، وإذا هي تهمس :

«آنى بنحبك ياوله !»

«حبك برص وعشرة خرس يابنت أبو شفة !»

هكذا انفجر الصوت غليظا غاضبا ... وامتدت الى الداخل ذراع
قوية لتقتلع مندى دون أن ينتبه من مكانه فكان عصفور أمسكته يد
عملاق ... وجد مندى جسده يسبح في الهواء خارج الكابينة ، وذراع
أخرى تحمله من ساقيه ، وجسد حوده يخطو به فوق الانقاض حتى اذا
هبط التل الحديدى وأصبح مستقرا فوق الرصيف ، هوى بجسد مندى الى
الأرض فى عنف وهو يصرخ :

«لو هوبت ناحيتها تانى حانجيب اجلك !»

تمرغ مندى فوق أتربة الرصيف وارتطمت رأسه بقطعة من الحديد
فسالت دماؤه وانتابه الدوار ، حاول النهوض فحجبت الدماء السائلة فوق
عينيه الرؤية ، غير أن شبح حوده كان يتصب جبارا فوق رأسه ، وصوته
يزأر ليملاً الرصيف بالصياح والصراخ :

«تعالى شوف بتك ياوشفة !»

مسح مندى الدماء من فوق عينيه وهو ينهض مترنحا عندما فوجيء
بجسد زغدانة يقفز من فوق تل الحطام لتعلق بعنق حودة وهى تصيح :

«مالها بنت أبو شفه ياصايح ياصايح !»

قبل أن يرد حودة كانت زغدانة قد انشبت اسنانها فى عنقه ، فتح
حودة فمه ليصبح غير أن الصرخة كانت أسبق من الكلمات ، تجمع
الرجال والشباب وبدا وجه أبو شفه بين الجميع بعينه الواحدة وشفته
المشقوقة وذراعه المبتورة ، واندفعت من وسط الجميع أم زغدانة وهى
تولول :

«مالها بنت أبو شفة يابن نفيسة!»
كانت زغدانة قد قفزت الى الأرض صارخة .
«أوعى تهوب ناحيتى تانى الا ومقام المرسى أجيب أجلك!»
«مالك ومالها يا حودة!»
وزجر صوت أبى شفة مدمدماً :

«آية العبارة يا جدع!»
وقبل أن يرد حودة على أحد منهم ، كان جسد مندى يقفز فى الهواء ليرتطم بجسد حودة القوى ، وارتفعت يده تحمل قطعة من الحديد غير المنتظم لتضرب بها الرأس فتشمه ، لولا صرخة زغدانة :
«مُندى!»

وتوقفت اليد فى الهواء ، وكانت تلك هى اللحظة التى ينتظرها حودة ، فطوح بجسد مندى الى بعيد مرة أخرى ، وقبل أن يفيق مندى كانت زغدانة تصرخ فيه :

«انت عاوز تودى نفسك فى حديد علشان بغل زى ده!»
«أنا بغل يازغدانة؟!»
هكذا هدر صوت حودة .
«امال انت ايه؟!»

«انا حودة يابت ... أنا حودة اللى مفيش منه اتنين فى المينا لسه ... أنا حودة اللى مالوش كبير واللى يجر أجدها مركب لوحده ... نسيتى حودة يازغدانه?!»
«لا مانسيتشى خيبتك لسه!»

وانطلقت الضحكات من الجمع الذى كان يحيط بمكان الحادث ... وقبل أن يفيق أحد لما كان يحدث ... علا صوت واحد من الجنود الثلاثة من فوق السفينة التى كانت ، حتى ذلك الوقت ، تبدو مهجورة :

«جو اوای»

كانت الصيحة معززة بمدفع رشاش سدده الجندي الى الجميع
فساد الصمت .

«جو اوای!»

علمتهم تجارب السنوات التي عاشوها في الميناء ، ان جنود الاحتلال
لايتورعون عن شيء ... بدأت أقدامهم تتحرك في كل اتجاه وفي لا اتجاه ،
وكل العيون ، كل العيون كانت تنظر الى فتحة المدفع الضيقة ، التي كان
من الممكن أن ينطلق منها الموت في أية لحظة !

عندما انساب آذان العشاء في سماء الميناء يكبر باسم الله ، كان
كل شيء فوق الرصيف قد هدأ ، وكان الكوخ الصغير الذي صنعه أبو
شفة من بقايا السفن وحطامها تضيئة شعلة غمست نهايتها في
الكيروسين ، وكانت ترسل مع الضوء الخافت المتلاعب ، سيلا لانهاية له
من الدخان .

وكان الرجل مازال صاحبا يتساءل :

«بكره يقولوا لنا شيلوا القهوة من هنا!»

« طب وحانروح فين يا أبو زغدانه؟! »

وكانت زغدانة ترقد في ركن المكان متظاهرة بالنوم ، غير أنها سمعت
الحديث ، وكان ذهنها غائبا تماما ... كانت تفكر في مندى ...
لكنها أبدا ، لم تكن تعرف ما الذي يفكر فيه مندى في ذلك الوقت
بالذات .

بل ... لم تكن تعلم مايجبئة لها وله القدر من أحداث . لم تكن
تعلم ، ان هذا الانجليزي بالذات ، سوف يكون أول ضحايا حيا الذي
راح ضحيته العديد من الرجال .

● الصورة الثالثة ●

كان لوقع الحادثين اللذين وقعا على رصيف النورس في ذلك اليوم أثر كبير في من كان يحيا في المينا ويسترزق منها قوت يومه .

تعالى أصوات الصيادين من قواربهم وهم يلقون الشباك في المياه أو يمسون بالسنانير يحكون حكاية حوده والواد مندى ، ثم حكاية الانجليزى الذى أمر الجميع بالرحيل .

في قيعان السفن حيث كان عمال الترسانة يعملون ملطخى الوجوه والأذرع والأجساد بالزيت والشحم ، كان الجميع يتبادلون الأحاديث .. أما في تلك السفينة التى كان يعمل بها حوده بالذات ، فان الحديث كان قد أخذ مسارا آخر ... فرغم قوة حوده الأسطورية ، ورغم خوف الجميع منه ، الا أنه لم يخل من منافس في القوة ربما ، أو في الحب لايدرى أحد ... وكان هذا المنافس هو الأسطى مصطفى .

«أيه العبارة دى يا حوده !»

كان الرجال يعملون في غرفة الآلات . تلك الغرفة المتسعة التى تتشابك فيها المواسير والآلات في غابة صغيرة من الحديد تجعل للصوت صدى يتردد فيصل الى كل ركن والى كل اذن ... وكان الرجال هناك كثيرين ، قد تناثروا بين المواسير وأذرع الآلة البخارية كالقروذ ، وكانت

صبيحة الأسطى مصطفى واضحة عالية ساخرة ... وقد وصلت الى أذنى
حودة بجلاء فلم يستطع تجاهلها !!

كان حودة الآن منحيا فوق ذراع « كرنك » الآلة الهائل فاستقام تاركا
للذراع الحديدية فرصة الحركة كبندول الساعة ، كان الغضب ينبثق من
عينيه وهو يصيح :

«عبارة أيه دى يامعلمى !؟!»

ساد الصمت وكف الدق وسكنت الحركة وأرهف الجميع السمع
فلقد ايقنوا أن المعركة آتية لا ريب فيها .

«اية عبارة الولة اللى اسمه مندى ده !؟!»

«عيل وغلط يامعلمى وأهو اخد اللى فيه القسمة !»

« بيقولوا ان زغدانه عضتك !»

لم يكن حودة يخشى شيئا فى الدنيا قدر خشيته أن يخوض الحديث
فى موضوع زغدانة ... ابتلع لعابه ، والقى المفتاح الهائل من يده الى
الأرض الصلبة فصنع المفتاح دويا زاد من عمق السكون فى غرفة الآلات .
ساد الصمت لثوان جاء بعدها صوت حودة !

«محدث له دعوة بزغدانة . هى كلمة !»

اقترب منه مصطفى ساخرا وفى يده مفتاح حديدى مشرع فى
الهواء !

« بلاش نسألوك ياجدع على اللى حصل ؟»

«أيوه بلاش يامعلمى !»

«يبقى فيه حاجة تكسف !»

«طب انت عاوز ايه على الصبح !؟!»

«عاوزك تأخد وتدى معانا ياجدع ، هو احنا برضك مش أهل !»

«وهم الأهل يقولوا قواله زى دى برضك ياجدع !»

«طب نعملوا ايه اذا كان اللي شاف بيقول ان الواد مندى كان حايفتح دماغ البعيد لولا زغدانة هي اللي حرصته لأجل ما يروحش في حديد!»

كانت هذه هي الذروة . وتوتر الجميع قبل أن يقبض حودة على خناق مصطفى صارخا :

«وبعدها لكم يامعلم مصطفى . تحب تشوف!»

وقبل أن يفتح مصطفى فمه ، علا في المكان ذلك الصوت الموسيقى الذي تعوده الجميع في مثل تلك الساعة من الصباح ، عندما تأتي زغدانة اليهم بالصينية الصدئة وفوقها أكواب الشاي اللزجة بفعل السكر المنثور على حافتها ... وصوت الملعقة يقلب الشاي مرتطما بجدران الأكواب صانعا ذلك النغم الرقيق ، والذي يسيل له لعاب الرجال . ذلك أنهم جميعا ، وبلا استثناء ، كانوا يعشقون الشاي من يد زغدانة ، وكانوا ، جميعا ، يدهشون لذلك الطعم الغريب الذي يبعث بالنشاط الى أجسادهم كلما احتسى أحدهم كوبا صنعته أم زغدانة .

في خفة كانت زغدانة تهبط السلم الحديدي المستقيم وهي تحمل الصينية في يد ، وتسند جسدها المعلق بالسلم باليد الأخرى ، تقف بين الفينة والفينة ، كأنها لاعب اكروبات ماهر ، لتدور بساقها حول جانب السلم فتحمي نفسها من السقوط ، وتدير الملعقة في الأكواب ، وتصيح بصوتها الناعس :

«صباح الفل ياجدعان!»

وكان صوتها هذا ايدانا للمعركة بأن تنتهي ... وكان أيضا ، ايدانا للعب الرجال أن يسيل ولعيونهم أن تلتهم جسد زغدانة ووجهها وهي تدور بينهم بالأكواب مرددة تحية الصباح بوجه باسم ، وعينين تشعان ببريق سعادة لا يخفى .

«صباح الفل يامعلم مصطفى!»

«مرحب زغدانة .. اية عبارتك يابت!»

«اللى يسأل مايتوهش يامعلم .. نهارك نادى ياشاكوش!»

همس شاكوش وهو يأخذ كوبه فى لوعة :

«نهارك أبيض يازغدانة!»

وكان حودة هناك عندما وقفت زغدانة أمامه تقلب له كوب شايه :

«صباح الخير يأسطى حودة!»

«ازيك يابت!»

«نحمدوه على اللى ياخده ، ونحمدوه على اللى يجيبه ، كده رضا!»

من بين أسنانه وفى صوت هامس قال :

«وبعدها لك فى اللى انتى فيه ده!»

استدارت زغدانة دون كلمة ، ومضت فى طريقها يشق جسدها

سبيله وسط عشرات العيون التى كانت تتطلع اليها . الصينية فى يدها

خالية والملقعة بين أسنانها ، ويداها وقداماها تخطفان درجات السلم قفزا

سريعا .

قال أبو شفة لزوجته :

«البت اتأخرت فى المركب!»

«من امتى بتقلق عليها ياكومى!»

«آنى مش قلقان عليها ياولية ... آنى قلقان من المركب الانجليزى

الملقحة هناك دى!»

«احنا مالنا وماهم!»

«امبارح قالوا جو أوای من هنا .. بكرة يقولوا جو أوای من

الرصيف كله!»

«انت حا تقدر البلا قبل وقوعه ليه ؟»

«البت اتأخرت !»

والتفتت اليه المرأة فى خوف :

«مالك يا كومى !»

فى حزن حقيقى وغامر ، تتمم الرجل :

«الانجليز مايعرفوش ربنا يأم زغدانة !»

وكانت جملة هذه ، انذارا دق له قلب الأم ... و ... وكانت دقات

القلب على حق !

فى ظل ريشة هائلة لرفاص سفينة عملاقة ، كان مندى يقف الآن فى انتظار خروج زغدانة من السفينة ... ذلك أنه ، وبعد ماحدث بالأمس ، قد جاء الى الرصيف قبل أن تشرق الشمس ... خوف غريب كان قد غزا قلبه على زغدانة ، لا مما فعله حودة ، ولكن من ذلك الرجل ذى الوجه الأحمر والشعر الأصفر والعينين الزرقاوين والأنف المدبب ، ذلك الرجل الذى كان يحمل فى يده مدفعا رشاشا له فوهة ينطلق منها الموت ، والذى أمر ، فأطاع الجميع ، ونهر ، فصمت الجميع ... ذلك الرجل بالذات هو الذى بعث بالخوف الى قلب مندى ... ذلك الرجل بالذات رأى فى عينيه نظرة تضم زغدانة الى جفونة . رآها . دوننا عن الجميع ... رأى النظرة فدق قلبه . ولم ينم الليل . وساورته الشكوك ، وعرف مندى ، لأول مرة فى حياته ، طعم الغيرة !

... ..

... ..

وها هى زغدانة تغادر السفينة وهى تتلاعب بالصينية الفارغة فى يدها ... ها هى ذى تقترب منه وهى تعرف مكانه منذ أن مرت به فى طريقها الى السفينة ، وعندما حاول منعها نهرته متسائلة ان كان يريد منها أن

تكف عن العمل والكسب وأكل لقمة العيش بالحلال ... ها هي تقرب ،
حتى اذا ماضقت المسافة بينهما ، كانت عيناها تلتفتان يمنه ويسره ،
وبسرعة ، قفزت داخل ركاب السفن وذابت ، ولم يكن أمام مندى بد من
العودة ... كان يعرف الطرق بين اطلال السفن ، فراح يسعى ويسعى ،
حتى التقيا في ظل جدار سفينة امتلأ بالاعشاب والقواقع والديدان .

«صباح الخير يازغدانة!»

«اية اللي جابك بدرى كده ياجدع!»

«داني مانتش طول الليل!»

ورغم انها — أيضا — لم تكن قد نامت طوال الليل ، الا أنها

شهقت صائحة :

«ليه بقى اسم الله!»

«زغدانة!»

في تأفف قالت :

«عاوز ايه منى!»

«مش عاوزك تهوى ناحية الانجليز!»

صمتت زغدانة تماما وهي تحملق فيه .

عادت فأرسلت من عينيها تلك النظرات المشعة التي تصيبه بالدوار

والخدر ..

سألته وصوتها يتبدد مع الرياح التي كانت تخترق الفجوات بين

الاطلال :

«ايه اللي خلاك تقول حاجة زى دى ياجدع!»

«مش عارف!»

«وهم الانجليز بيشرخوا شاي!»

«لأ... بس بياكلوا البنات!»

و... وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها زغدانة بخوف حقيقي. وأكد حديث مندى نظرة الخوف تلك وتعرف عليها. دق قلبه وانطلق لسانه مجلجلا:

«اللي حا يمد ايده عليكى بعد النهاردة آنى حانجيب أجله!»

ضحكت فى سخرية وهى تقول:

«زى ماجبت أجل حودة امبارح!»

«انتى اللى قلتى لى لأ يابت!»

«وسمعت كلامى ليه!؟»

اجتاح الغيظ مندى اجتياحا حتى راح يجز على أسنانه، لكن ابتسامة زغدانة كانت تتسع فى سعادة وقد أدركت كم يحبها... قبل أن يفتح مندى فمه لاحفته زغدانة بكلمة أخرى:

«وانت حاتفضل صايح لامتى!؟»

«مانى مش لاقى مركب نطلع عليها!»

«اسم الله. اللى عاوز يدور!»

«دورت يازغدانة!»

راحت تردح له وقد نسيت نفسها فكأنها زوجة تؤنب زوجها:

«دورت فىن يادلعدى. على رصيف النورس!؟»

«قلت لك دورت!»

«تحب أجيب لك شغلانة!؟»

«فىن!؟»

«على المركب اللى بتصلح دلوقت!»

«ازاى!؟»

«قبطانها يعرف أبويا. والعمرة حاتخلص بعد جمعتين ولو حضرت

أوراقك من النهاردة ها تلحق وماتبقاش لك حجة بعد كده . قلت أيه ؟
« انتى عاوزة تطفشيني يازغدانه !؟ »
« لأ . بس مش عاوزة نتجوز عواطلى ! »

بدا مندى فى تلك اللحظة وكأن أبواب الجنة قد فتحت له ... لقد
سمع أن الرجال هم الذين يطلبون الفتيات والنساء للزواج ، غير أن هذه هى
المررة الأولى التى يسمع فيها فتاة تقرر الزواج من رجل ... اجتاحتها سعادة
لانهاية لها ، ارتجف بفرحة طاغية ، امتدت يده الى يد زغدانه فضغط عليها
واستكانت يد زغدانه لضغطة يده .

«بتحبينى يازغدانه !؟»

«دهدى . مانى قايلة لك ديك النهار !»

«يعنى بتحبينى ؟»

«أنا اتأخرت على أبويا وأمى !»

تململت فى محاولة للخروج من الشق الذى كانت تجلس اليه فيه .
ضغط على يدها أكثر .

«وحودة !؟»

«ماله حودة ياجدع !؟»

«مش بتقولى انه خطيبك ؟»

«هو اللى عاز .. وآنى قلت يفتح الله !»

هتف مندى فى فرح طاغ :

«آنى من بكرة حانطلع مركب !»

«وتغيب عنى بالسنين ياجدع !»

وقع مندى فى الحيرة . هاهى تطلب منه العمل . وهاهو الحزن يطل
فى عينيها لأنه سوف يتعد عنها اذا ما سافر ...

«وبعدما لك !؟»

« في أية ؟ »

« نسا فر والا مانسا فرش ؟ ! »

« والله مانا عارفة .. سيب ايدى ! »

وهكذا تركته زغدانة تحمل هذه المرة نظرة حزينة في عينيها الخضراوين ، انطلق منهما ذلك البريق المخدر وراحت تزحف بين الانقاض وفي الشقوق حتى اختفت وتركته وحيدا في جلسته ، ولم يشعر مندى فيما تقدم من سنوات عمر ، ولا فيما جاء بعد ذلك من سنين ، بمثل ما كان يشعر به الآن من راحة وسعادة وحب ... فجأة ، أحس أنه يجب زغدانة . يحبها حتى الموت ، يحبها ولا يستطيع أن يحيا يوما واحدا بدونها ... وهكذا ، وفي لمح البصر . تنازل مندى عن حلم أحلامه ، تنازل عن السفر ، وقرر أن يعمل في الميناء ، حتى لا يغيب عن زغدانة .

غير أنه لم يكن يعلم ما يخبئه له القدر ، لم يكن يعلم أنه سوف يسافر مرغما ... وان قصته في لوح القدر ، كانت تسير في طريق آخر !

● الصورة الرابعة ●

نستطيع أن نقول ، دون أن نبالغ في القول ، ان القصة الحقيقة ، قصة زغدانة ومندى ، قد بدأت في ذلك الصباح الذى طلبت فيه زغدانة من مندى أن يعمل لأنها لاتحب أن تتزوج عاطلا ..

كان مندى نشوان بكل هذا الذى حدث بينه وبين حودة من ناحية ، وبينه وبين زغدانة من ناحية أخرى . ولقد انطلق ذلك اليوم الى أرصفة الميناء يدفعه ذلك الحماس الطاغى الذى يسرى فى عروق الرجل اذا ما أحس ان امرأته تريد منه شيئا ... غادر رصيف النورس ومضى لابلوى على شىء وان كان قد ألقى على السفينة الانجليزية نظرة خاطفة . وطافت بخياله أشياء اقشعر لها بدنه ، غير أنه طرد الوسوس من رأسه ، ومضى فى طريقه دون أن يدري أن زغدانة هى الأخرى . قد سقطت فى بئر الحيرة .

«مالك يابت !؟»

هكذا سألتها أمها فردت :

«مفيش يأمة . حضرى طلبات الواغش احسن كانوا بيندهوا

على !!» .

وصاح الكومى من حيث كان يجلس :

«اتأخرتى ليه يازغدانة فى المركب !»

«آنى ماأتأخرتش فى المركب يابا ؟»

«أمال كنتى فىن !؟»

«هه !؟»

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتردد فيها زغدانة في الرد على سؤال كهذا ... ولذا فلقد تبادل الكومى مع زوجته نظرة ذات معنى . مسح الرجل عينة المصابة وتحرك متمللا في مكانه . واعداد سؤاله في الحاح . فانفجرت زغدانة :

«كنت مع الوله مُندى؟!»

صاحت الأم :

«انت ايه عبارتك مع مندى يا زغدانة؟!»

«عاوزه نتجوزه!»

هكذا كانت زغدانة دائما . هكذا كانت . تعبر عن نفسها ببساطة بالغة ، وتقتحم المعانى دون وجل . وساد الصمت في الكوخ الصفيحى . وازت ذبابة راحت تدور فوق الرعوس صانعة ذلك النوع الخائق من الضجيج . غير أن احدا من الثلاثة الذين كانوا هناك . لم يعرهما أى اهتمام ، ووجدت الذبابة لنفسها مخرجا في ثقب كانت أشعة الشمس تتسلل منه ...

«الطلبات يا امه!»

قال الكومى لابنته :

«هو اللى قال لك؟!»

«لأ .. آنى اللى قلت له؟»

خبطت المرأة على صدرها الهائل المكتنز باللحم :

«قلتى له أيه ياللى تشكى فى لسانك!»

«قلت له انى بنحبه وانى مانحبش نتجوز عواطلى!!»

هكذا ، بوضوح ، ودون لف أو دوران ، طرحت زغدانة الأمر ، فعاد الصمت مرة أخرى ، غير أن الكومى قطعه وهو يدس تحت لسانه قطعة من المخدر الأسود الذى تعود عليه منذ ما حدث له الذى حدث ...

«حضرى لها الطلبات يأم زغدانة!»

وكانت المرأة تعلم زوجها حق العلم ، لذا فلقد رفعت الابريق الكالح اللون وراحت تصب الشاي فى الاكواب القذرة ، بينما اخذت زغدانة تفرغ فى الأكواب كمية من السكر تكفى لكيلا يتذمر أحد من الزبائن ... وما لبثت ان حملت الصينية ونهضت مغادرة المكان .

ماهى الا ساعة وبعض الساعة حتى وجد مُندى وظيفة شاغرة فى قهوة شلوفة . وعندما مال الفتى على المعلم شلوفة هامسا فى اذنه بانه « على باب الله » ، حتى استدار الرجل نحوه ورفع حاجبيه الكثيفتين وراح يحملق فيه غير مصدق :

«انت يامندى عاوز تاكل لقمة؟!» .

«بالحلل!» .

«اشمعى؟!»

«أصلى — لامواخذة يعنى — ناوى نتأهل!»

جلجلت ضحكة الرجل فى سعادة حقيقية ، فلقد كان المعلم شلوفة صديقا لأبى مندى ، وكثيرا ماابدى الأب قلقه لأن «الواد» يجب الصياغة ولايفكر فى العمل أو الزواج ، وكثيرا ماقال شلوفة لصديقه ان الأوان سوف يأتى لاريب فى هذا ، ولقد صدق حدسه ، فضحك ، وكانت ضحكته عالية حتى التفت كل الزبائن من الصيادين وعمال الميناء . وكانوا فى مثل هذا الوقت قليلى العدد فهؤلاء هم سيئو الحظ الذين لم يجدوا فى الصباح عملا فراحوا يقضون يومهم بلا عمل أو وفى انتظار عمل !

«وله ياسلامه!»

وقفز سلامة الاعرج ، جرسون المقهى ، من حيث كان عند النصبه ، مخترقاً الموائد والمقاعد والدكك وهو يصيح بصوت منغم :

«عنيه يامعلمى!»

«خذ مندى وعلمه الصنعة!»

«يألف مرحب!»

قالها سلامة بمرح مصطنع ، وخوف حقيقى على لقمة عيشه ...
والمسألة بالنسبة لسلامة هو الآخر كانت عويصه ، فهو أعرج منذ ولدته
أمه ، لايدرى سبباً لعاهته ولم يسأل ، تلطم فى كل حرفة وكل عمل حتى
استقر مع المعلم شلوفة منذ خمس سنوات مات فيها أبوه وأصبح هو العائل
الوحيد لأمة واخته ...

«تعالى يامندى معايا!»

لكن مندى لم يشعر بما كان يدور فى خيال سلامة من خوف عرييد
على لقمة عيشة ... فانطلق معه تدفعه حماسة بلا نهاية ، ووقف يرقب
يدى سلامة الحاذقتين وهى ترتب الصوانى والأكواب وتغسل الملاعق ،
ويستمع الى صوته وهو ينادى على الطلبات ...

تقدم مندى ليساعد سلامة ، ونجح ... من يومة الأول نجح ،
وأصبح من السهل عليه أن يحمل الصينية ، فى آخر النهار وقد امتلأت
بالأكواب ، وأن يهرول بها هنا وهناك ، وأن ينادى ويلعلع وينغم وكأنه ولد
جرسونا ...

مندى لايعرف من أين جاءت هذه الموهبة التى أدهشت المعلم
شلوفه وأسعدته فى نفس الوقت ... وعندما نادى المعلم على مندى ذات
لحظة :

«يأسطى مندى!»

كان هذا ايدانا منه بأنه قد ثبت فى عمله وأعتمد ...
هرول اليه مندى دون أن يلحظ نظرات سلامة التى كانت تنفث
لهبا وخوفا ...

«ايتها خدمة يامعلمى!»

«نزل شاي على حساب المطرح للمعلم جابر!»

والتفت مندى فورا الى حيث تعود أبوه أن يجلس خارج المقهى ،
على ذلك الصندوق القديم الذى أصبح وكأنه ملك له لكثيرة ماجلس عليه
واستراح ، وراح يحملق بعينه النفاذتين فى الأفق ، عبر الميناء وجبال السفن
الداخلة والخارجة والراسية ، الى مبنى باب البوغاز ، هناك ، عند التحام
البحر العريض بالميناء الهادئة ، هناك ، حيث تتلاطم الأمواج وتضطرب
صيفا وشتاء وربيعا وخريفًا ... اندفع مندى الى حيث نصبه صائحا :

«واحد شاي على حساب المعلم للمعلم جابر وصلحه!»

قال هذا وهو يجذب صينية راح يجففها مما علق بها من مياه . ثم
يختطف كوبا ملاً ربهه بالسكر ، وكوب مياه استقر فوق الصينية ، وحبل
الشاي ينساب من البراد الكبير أسود اللون ذا رائحة نفاذة ، ومالبث أن
اختطف الصينية وهرول بها حتى وضعها بجوار أبيه :

«مسا التماسى ياأسطى جابر!»

رفع الرجل عينيه النفاذتين الى ولده :

«ازيك يامندى؟!»

«نحمدوه يابا!»

«خلاص يامندى؟!»

تراجع مندى خطوة وقد ادهشته رنة الحزن فى صوت ابيه !

«خلاص ايه يابا؟!»

«نويت تكمل نص دينك من غير ماتقول لى؟!»

خطف مندى نظره من خلال الجدار الزجاجى للمقهى الى حيث
كان المعلم شلوفة يجلس خلف البنك العالى جلسته التى تبديه وكان
قاعدته قد التصفت بالمقعد الى الأبد ، وتذكر كل شىء واربتك .

«يابا ...»

«من غير ماتقول لى يامندى؟!»

«ماهو انى يابا كنت»

«من غير مانفرح بىك انا وأمك ياوله؟!»

«يابا ومقام المرسى آنى كنت»

وتوقف مندى مشلولا أمام نظرات أبيه . تلك النظرات الغريبة
النافذة التى تحمل فى أعماقها آلاف المشاعر المتضاربة والتى تحولها الى شيء
مخيف .

«حقك على يابا . غلطة ومش حاتعود!»

ادار الرجل رأسه الى الناحية الأخرى قائلا فى اقتضاب :

«والا أنت»

ووصلت الرسالة الى مندى ببساطة . كان غضب أبيه قد طرده
من البيت ، وأيقن فى لحظة ، أنه أصبح بلا مأوى ، وأن عليه أن يبحث
عن مكان يبيت فيه ... كان مندى يعلم من هو أبوه اذا ماقال شيئا ، لذا
فلم يجادل ... استدار منسحبا عندما جاءه صوت أبيه :

«خذ ياجدع!»

وتسمر مندى فى مكانه . لم يعمل حسابا لمثل هذه المصيبة ، كان
يعلم علم اليقين أن أباه عندما ناداه بياجدع ، فلقد انقطعت بينهما الصلة
حتى الأبد .

عاد اليه مدحورا :

«نعم يامعلمى!»

«شيل الصينية دى من هنا وخلي سلامة هو اللى ينزل لى

الطلب!»

فى صمت ، انحنى مندى وحمل الصينية ، وفى منتصف الطريق الى

النصبه التقى به سلامه :

«ايه العبارة ياأسطى مندى؟!»

«المعلم جابر عاوز الطلب من ايدك أنت ياسلامة!»
اختطف سلامة الصينية في فرحة لم يستطع اخفاءها . وربما ، لأول
مرة منذ دخل مندى الى المقهى ، يشعر وكان كابوسا قد انزاح من فوق
صدره ... غادر المقهى الى حيث كان المعلم جابر يجلس مقطب الجبين
مهموم الملامح ، وكان يحجل راقصا وهو يصيح :
«أحلى تماشى على أحلى معلمين فى الشط كله!»
وضع الصينية وراح يقلب السكر غير المذاب فى الشاى قائلا :
«مساء الخير يامعلم جابر!»
لكن جابر لم يرد التحية .
وكان مندى ، فى نفس اللحظة ، يغادر المقهى بعد أن اعتزل أول
أعماله الى الأبد !!

هذه هى دنياه ...
هنا فقط يستطيع مندى أن يستريح ، داخل انقاض السفن الخشبية
والحديدية ، تحت ظلال أجسادها الصدئة وغابات القواقع والأعشاب
البحرية التى التصقت بها ... وكان الوقت غروباً ، والشمس تميل هناك ،
عند نهاية الأفق ، لتصبغ لون البحر ، وأصوات طائر النورس تتصاعد فى
صرخات مرحة ربما ، أو غاضبة ربما وهى تبحث بعيونها عن الأسماك تحت
سطح المياه ...
هنا فقط ، أحس مندى أنه أمضى يوماً بلا حياة ...

ورغم جسامه ماحدث بينه وبين أبيه ، الا أنه كان ، وهو فى هذا
المكان ، يشعر بالراحة تغمره حتى النخاع ... غير أنه سرعان مااستدار
نحو باب البوغاز ، نفس المكان الذى ينظر اليه أبوه ، واجتاحت نفسه
رغبة عنيفة فى الرحيل ، يريد هو أن يتخطى هذا الحاجز الى حيث الدنيا

واسعة بلا حدود . أحلام العمر في النوم واليقظة معا ... فكيف ، كيف
يستطيع!!!؟

صكت أذنيه خطوات قدمين حافيتين ، فالتفت من مكمته وعرف
صاحبة القدمين ... وقبل أن تصل اليه ، برز لها من تحت القارب المرفوع
والذي كان قد قرر أن يتخذه بيتا ... قفزت زغدانة الى الخلف محمقه
فيه ، ارتسمت على وجهها ابتسامة سرعان ما ابتلعها ملامحها لتنفث عيناها
غضبا بلا حدود :

«كنت فين ؟»

«طب قولى مساء الخير يازغدانة ؟»

«كنت فين ياللى ماتسمى ؟!»

« بنشتغل !»

توقفت غير مصدقة ! ... تقدمت منه في بطاء ، هبطت اليه
فزحف الى الداخل مفسحا لها مكانا فزحفت خلفه ، والتصق ذراعها
بذراعه فاشنعلت في جسده النار !

«كنت بتشتغل فين ؟!»

« في قهوة شلوفه !»

في استنكار رهيب قالت :

«جرسون ؟!»

صفعته الكلمة فهتف :

«أمال انتى بتعملى أيه ؟»

كالقطة المتوحشة استدارت نحوه :

«مالكش دعوه بيه !»

«وهو انتى بس اللى ليكى دعوة بيه !»

انتفضت من مكانها استعدادا للرحيل في غضب :

«فتك بعافيه !»

امسك بذراعها ولم يدر أن قبضته كانت قوية :

«رايحة فين؟»

«مالكش دعوه!»

«طب مش ناخذ وندى!»

«سيب ايدي؟»

«لأ!»

في لمح البصر كانت تميل باسنان مشرعه نحو يده غير أنه كان أسرع منها ، كانت الدماء تتفجر في عروقة مزغرودة . أمسك بشعرها في عنف ، رفع رأسها نحوه ، عيناها الخضراوان ترسلان إليه ذلك السحر الذي يذيب كل شيء ، ويحوطه هو ، الى قطعة من العجين بلا حول ولا طول ، غير أن فمها المفتوح ، وأسنانها المشرعة كوحش يستعد للاقتراس . وشفتيها المكتنزتين دفعت به نحوها . فقط . اقترب منها مندى بوجهه ، وكان باسمها .

همست :

«سيب ايدي!»

احس مندى بذراعها يستسلم لقبضته ، وبرأسها يترك نفسه

لجذبه ...

«أبويا طردني من البيت!»

«معاه حق!»

«علشانك!»

كان الليل قد ظلل الدنيا ، وصوت الحياة يصل اليهما مثل موسيقى حالمة . وكانا معا ، راقدين في قاع القارب الذي جهزه مندى ببعض ألواح من انخشاب تجعل الرقاد ليئا ، وكانت عيونهما نحو السماء ترسل الاحلام في كلمات هامسة :

«آنى مش عاوزاك تسافر!»
«طب ونشتغلوا ايه هنا!»
«الشغل للى يدور عليه!»
«وترجعى تقولى لى كانى ومانى؟»
هبت جالسہ :
«آنى اتأخرت!»
«وآنى حانبات هنا!»

التفتت اليه . ونظرت اليه . وأحست زغدانة أنها ترى مندى لأول مرة فى ضوء النجوم ، وأحست بما لم تشعر به أبدا . بذلك الفيض المخيف من الاحساسيس يجتاحها اجتياحا ... غير ... غير أنها زغدانة ، وما كان ينبغى لها أن تفعل مالايجب أن تفعل . وفى لمح البصر ، كان جسدها يطير فى الهواء قافزا من فوق القارب الى الرصيف ... وسمع مندى فى رقدته النشوى ، صوت قدميها الخافيتين وهما تخطوان فوق الأرض المبدورة ببقايا السفن ... ثم ذابت الخطوات .

ولم تمض دقيقة .

ربما أقل .

ربما دقيقتان ... حين اندبت فى قلب مندى صرخة عاتية

ملتاعة ...

قفز واقفا كالمجنون ، فهذا صوت زغدانة .

فى الظلام لم ير شيئا غير أن صرخة أخرى جاءتہ :

«يامندى!»

وقفز فى الظلام يتخبط بحثا عن صوت زغدانة وقد ألم به الجزع

حتى أصبح يرتجف .

● الصورة الخامسة ●

هكذا تحدد مصير مندى في تلك الليلة الغريبة من ليالى الخريف في ميناء الاسكندرية فوق ذلك الرصيف الذى يُعرف حتى الآن ، ومنذ تلك السنوات البعيدة ، برصيف النورس ... فما أن شقت الظلام صرخة زغدانة ، حتى قفز مندى من مكمنه كالمجنون بحثها عنها ... كان الظلام يسود كل شيء ، كل شيء ، لاضوء الا تلك الأضواء التى ترسلها السفن العابرة فى بطء أو الراسية هنا أو هناك ... انطلق مندى لاهثا لايلوى على شيء ، لايعرف الى أين يذهب ، فلقد عم الصمت مرة أخرى وساد ووجد مندى نفسه يتوقف كالمجنون قد شُل عقله تماما ... وزحفت عيناه ، دون أن يقصد ، نحو السفينة الانجليزية الراسية على اليسار ، هناك ... كان ثمة مصباح أزرق ينير سلم السفينة القصير ، وعند السلم ، كان واحد من الانجليز يجلس — كالعادة — بجوار سلاحه ، وفى يده زجاجة خمر كان يرفعها بين الحين والحين الى شفثيه وهو ينظر نحو الأفق ...

اقرب مندى من السفينة الانجليزية وراح يتحسس كل شيء بعينيه وأذنيه لكن شيئا غريبا لم يلفت نظره ، هم الجندى فى مكانه ، وبلسان ملته صاح وهو يضع يده فوق البندقية :

«جو أواى»

هكذا كانوا دائما ، ما أن يقترب أحد من سفينتهم الغامضة تلك حتى يصيحوا فيه أن يذهب بعيدا ، ولقد ذهب مندى بعيدا غير أن شيئا ما كان قد برق في ذهنه ، أم يطلب منهم هؤلاء الإنجليز الأبيّعاد عن السفينة ، كانت سفنهم الحربية تملأ الميناء وكان الرجال يبيعون لهم ويشترون ، كانوا يصيحون في المصريين أن يتعدوا اذا مظهر القبطان بوجهه الأحمر وأنفه المتعجرف فوق ظهر السفينة ، غير أن هذه السفينة بالذات ، ومنذ أن جاءت الى هنا ورسبت على رصيف النورس ، لم يكن فيها سوى هؤلاء الجنود القليلي العدد ، لم يكن هناك قبطان ولم تكن هناك حركة أو عمل ... يظهر البعض منهم على ظهر السفينة ويختفى البعض الآخر في داخلها ... ولكن أين زغدانة ، ولم صرخت؟!!

أطلق مندى لساقيه العنان وراح يجرى بكل قواه نحو عشه الكومي ، كان المصباح الغازي يرسل لهبه الواهن مع شريط نحيل مرتجف من الدخان عندما اقتحم مندى المكان على الرجل وزوجته ... كانا راقدين متجاورين ، وكانت النار قد اطفئت . والأكواب قد صفت وهجع كل شيء ... قفزت أم زغدانة جالسة في فزع :
«بسم الله الرحمن الرحيم . مين؟!»
« أنا ياخالتي أم زغدانة ! »

كالفهد ، وبذراع واحدة ، كان الكومي قد قفز ممسكا بتلايب مندى في عنف اذهل الشاب الذي كان يرى في الكومي رجلا اكتع أعور محطما ...

«ايه اللي جابك هنا يوله؟!»

«زغدانة ياعم كومي!»

صاحت الأم :

«مالها زغدانة؟!»

«سمعتها بتصرخ على الرصيف طلعت نجري وندور عليها لقيتها زى
فص ملح وداب!»

«يعنى ايه الكلام ده!»

«زى ما بنقول لك كده!»

وهكذا انقلب الليل الى نهار ، زحف الكومى ومعه مندئى وأم
زغدانة وكل منهما يطلب منه اعادة ما حدث ، قلبوا الرصيف رأسا على
عقب ، نقبوا فى كل مكان ، وركض مندئى ليجمع الرجال ، حودة
والرجال ، وامتلاً الرصيف بالخلق . بحثوا عن زغدانة فى كل مكان ، وهشت
الأنفاس ، وتضاربت الأقوال .. واستقر الرأى على أن زغدانة قد غرقت فى
مياه الميناء !

لا أحد يعرف كيف طلع النهار . لا أحد فلقد امتلاً الرصيف
بالخلق ، بالرجال ، كل الرجال الذين يعرفون النورس وسفن النورس
والكومى وزوجته وابنته التى ألهبت مشاعر الجميع ، غير أنه مع طلوع
النهار ، ومع شروق الشمس ، كانت زغدانة تأتى من هناك ، من ناحية
سفينة الانجليز ، كانت تأتى ممزقة الملابس مهوشة الشعر حمراء العينين ،
كانت تزحف ولا تسير ، كانت منكسة الرأس لاتصيح فى الرائح والغادى ،
وكان أول من رآها هو الكومى ، رآها بعينه الواحدة قبل الجميع ، صاح
باسمها فالتفت بعض الذين كانوا من حوله ، وتراجع الذين كانوا يستعدون
للغوص فى المياه بحثا عنها ، وهول الجميع نحوها ...

«ايه الحكاية يا زغدانة؟»

«ايه اللى حصل يابت!»

«مالك يا ضنيايا؟»

«يابت انطقى!»

الجميع . الجميع بلا استثناء راحوا يمحطونها بالأسئلة عدا مندئى ،

هو الوحيد الذى وقف متمسراً فى مكانه ، وقد أحس وكأن شرخا هائلا قد حدث فى صدره فقسمه الى نصفين ... وظلت زغدانة صامتا تحيطها تلك الكرة البشرية التى كانت تفتح أفواهها فى أسئلة بلا نهاية ، حتى اذا ما رفعت زغدانة رأسها ، والتقت عيناها الخضراوين الدامعتين بعيني مندى ، حتى انفجرت فى بكاء عميق ، وهى تهوى الى الأرض متمرغة فى التراب وبقايا الحديد والحصى !

لم يكن هناك ما يمكن أن يقال أو يعرف ، فلقد اختطف جنود السفينة الانجليزية زغدانة ، وأبقوها معهم طوال الليل . طوال الليل .

قبل أن يتجمع الرجال ، وقبل أن تثور فى صدورهم تلك الثورة التى يعرفها جنود الامبراطورية البريطانية ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت الأوامر قد صدرت باخلائه من المصريين جميعا ، وكان مدخله الشرقى قد أغلق بحراسة مشددة . أما قمته المطلة على البحر ، فلقد رسا عندها لنش مسلح ... وبات أهل الميناء تلك الليلة ، يحكون حكاية زغدانة !

قدر لمندى أن تبدأ حياته بداية جديدة فى تلك الليلة المشئومة ، وهو ، فى ذلك الوقت ، وفى ذلك العمر ، لم يكن يدري ما الذى كان يمكن أن يفعله ، ولقد أمضى يومه وليلته وهو يضرب على غير هدى ، اختفت العشة الصفيح وهدمها الانجليز ببساطة والقوا بمحتوياتها ، بكل مايملك الكومى للقامة عيشه ، الى المياه ... وأصبح الرصيف مهجورا ، حتى تلك السفن التى كان راسية عليه للاصلاح ، توقف العمل فيها وفرضت عليها الحراسة ...

ذهبت زغدانة الى حيث لايدرى مندى ، اختفت مع أبيها وأمها ،
وقال البعض أنهم يسكنون مع خالتها في غرفة واحدة ، وقال البعض أن
المعلم جابر أدخل غرفة في بيته ... وقيل وقيل وقيل ... ولكن ، لأحد قد
رأى مندى في تلك الأيام ، فلقد اختفى الفتى هو الآخر فجأة ولم يعد يراه
أحد ، وتساءلت أم مندى عن ولدها ، وزجر المعلم جابر الذى كان قد
أدخل غرفة بالفعل في بيته للكومى وزوجته وابنته المنكوبة ، زجر ولم يرد على
زوجته وان كان الفأر قد لعب في عبه ، فهاهى الفتاة التى أحبها ولده
وقرر الزواج منها تُغتصب علنا أمام الجميع وأصبحت فضيحتها بجلاجل ،
ولأحد يعرف من الفاعل ، فلقد اختفى الانجليز الثلاثة الذين يقطنون تلك
السفينة الغربية الصامتة ، اختفوا خلف أسوار الحراسة التى فرضتها السلطة
على الرصيف الذى أصبح خاويا بعد أن سحبوا كل السفن من حوله ...
زجر المعلم جابر وان كان خوفه على ولده بدأ يتصاعد ، حتى لقد همس
لبعض رجاله أن يبحثوا عنه دون جدوى ، فلقد كان مندى وكأنه فص ملح
وذاب في مياه الميناء المترامية هنا وهناك ... وراح خوف الرجل يتصاعد
كلما مرت الأيام ... وبدأت الأقاويل والشائعات تتناثر هنا وهناك ... فأين
ذهب مندى !؟

كان هذا هو السؤال الذى لم يعرف أحد له جوابا ، حتى لقد
سرت شائجة تقول أن الانجليز قد اختطفوه هو الآخر وقتلوه واخفوا جثته في
قاع الميناء بعد أن ربطوا اليها ثقلا حديدا يمنعها من الطفو !!

غير أنه ما كان للأيام أن تمضى على وتيرة واحدة ... فلقد أصبح
اختفاء مندى شيئا عاديا ، كما خرجت زغدانة الى الحياة منكسة
الرأس ... كانت هى الوحيدة التى تعرف أين ذهب مندى ، وكانت هى
الوحيدة التى تعرف ما الذى حدث له ساعة أن رآها ممزقة الملابس مهوشة

الشعر منكسة الرأس ... وعندما كانت تغادر البيت في أيامها الأولى كانت تغادره مع أمها — بعد الغروب حتى لاتلتقى ولا يلتقى بها أحد — كانت تذهب مع أمها لزيارة قريبة أو صديقة ، لكنها في كل مرة كانت تعود ممزقة الاعصاب باكية ، كانت نساء الحى يعاملنها برفق وحنان معا . لكنهن أيضا كن يخفين عنها بناتهن ... وكانت الأم تعلم ، كما كان الأب يعلم مايجرى لابنتهما ... حتى اذا جاء يوم بدا لهما وكأنه يوم الفرج ... عندما تقدم حودة ، بنشامة أكبرها فيه كل أهل الحى ، الى الكومى يطلب يد زغدانة .

جلس حودة على المقعد الوحيد في الغرفة بينما كان الكومى جالسا تحت النافذة القرفصاء وهو يرشف من كوب الشاي الأسود ويلوك في فمه مرارة المخدر الذى قال عنها أنها أخف من مرارة الدنيا ...

«آنى جاي نطلب القرب ياعم كومى!»

برقت عين الكومى الوحيدة وكانت الأم وزغدانة تجلسان خارج الغرفة عند الباب المغلق ... نظر الرجل الى الشاب طويلا وهمس بصوت زاحف :

«عاوز زغدانة بأسطى حودة؟!»

«على سنة الله ورسوله!»

«انت عارف اللى حصل لها يا ابنى!»

«زغدانة بنت حتى وفي عنيه الاتنين!»

«واذا جه يوم وعابرتها يا حودة؟»

«عيب تقول الكلام ده ياعم كومى!»

ساد الصمت بين الرجلين لثوان ، ثم رفع الكومى رأسه نحو حودة

قائلا :

«طب سيبنى نشاور العيال!»

«وآنى تحت أمرى !»

قال حودة هذا وقد انتهى من كوب شايه ووضعها جانباً ونهض مصافحاً الرجل مستأذناً .

غير أن زغدانة رفضت !

لم ترفض زغدانة كما تعودت الرفض ، بل رفضت باكية ، متوسلة ..

وكان الأمر بالنسبة للأب مخيفاً ، وبالنسبة للأم كارثة ، فمن أين يأتيان بعريس يستر ابنتهما التى اغتصبها الانجليز ... لم يكن حودة قد أخفى الأمر عن اصدقائه ، وكان الأصدقاء قد رحبوا بالخطوة ، وعارض أهله ، وعرف الحى فى تلك الأيام معركة عائلية من تلك المعارك التى تصبح بين يوم وليلة حديث الجميع ... ذلك أن رفض زغدانة قد شاع هو الآخر ، وأحس حودة أن المسألة قد أصبحت مسألة كرامة ، وأنه لابد وأن يتزوج زغدانة ، ذلك ان الجميع علل رفض الفتاة بخجلها من عارها ... وكلما أوغلت زغدانة فى الرفض ، كلما أوغلت عائلة حودة فى الاعتراض ، وسعى الأصدقاء بين هؤلاء وهؤلاء ، سعوا بالخير والاقناع ، خاصة عندما أعلن الكومى فى المقهى الزجاجى ذات ليلة أنه سيزوج ابنته لحودة سواء رضيت أم لم ترض . وعندما دخل حودة الى المقهى وقد قارب الليل أن ينتصف ، ناداه الكومى ، وقرأ معه الفاتحة أمام أهل المقهى جميعاً .

فى تلك الليلة حددوا موعد عقد القران فى الخميس القادم .

وفى تلك الليلة بلغ الحماس بحودة أن نهض مستأذناً لدقائق . ذهب الى بيته واقتحم غرفته ، وفتح الدولاب ، وأخذ تحويشة العمر ، وصاحت أمه :

«رايح فىن يا حودة !»

«حاندفع مهر زغدانة !»

وبدلاً من الزغرودة ، أطلقت المرأة صرخة عاتية وكان عزيزاً لديها قد مات .

في المقهى ، دفع حودة للكومي أمام الجميع خمسة وعشرين جنيتها
مها غالبا لزغدانة ، ودفع الكومي للأسطى سيد النجار نفس المبلغ ليصنع
لابنته سريرا ودولابا وكنبة ... ووعدته بتسديد باقى ثمن «الشوار» خلال
الشهور القادمة ...

وسهر الرجال في تلك الليلة في المقهى على فرح . الا جابر .
المعلم جابر الذى كان يجلس منزويا ، لايعلم أين ذهب ولده ، ولايعلم ما
الذى آل اليه مصيره ... كان ، كان قد تحول الى قطعة من الصخر تريض
فوق ظهر الأرض في انتظار نبأ مهول .
وقد وقع النبأ .

ففى يوم الخميس المحدد لزفاف زغدانة على حودة ... كانت أمها ،
وبعض الجارات ، قد لففن يديها وقدميها بالحناء رغما عنها ، وكانت هي
لكثرة مقاومت وبكت وقطعت شعرها ولحم وجهها لطما ، وبص صوتها
صراخا ، كانت قد استسلمت ، وبدا كل شىء فى ذلك الصباح عاديا
تماما فى الميناء ، لكن شيئا غريبا بدأ يحدث . سيارات السلطة الصفراء
تقتحم الميناء والأرصفة والجنود يملأون كل مكان ، والبوليس يقبض على كل
الشباب والرجال بلا استثناء ..

يومها ... عرف الناس ان الساكنين الثلاثة فى السفينة الانجليزية قد
وجدوا قتلى فى الصباح ... وجدوا مذبحين تماما وجدوا أجسادا بلا
رعوس !!!...

وهكذا دخل حودة فى ليلة زفافه السجن مع عشرات من الرجال
والشبان !!

وانقلب الفرع الى مآثم . وعندما غربت الشمس كانت كل البيوت
تدمع لمصير رجالها وأولادها وشبابها ... فى تلك الساعة التى يهجع فيها كل
شىء فيما بين غروب الشمس وآذان العشاء ... دق الباب على الكومي

وزوجته وابنته الحزاني ، وارتعدت المرأة . وصاحت :
«مين؟!»

وجاءهم صوت ، ما إن سمعته زغدانة حتى قفزت كالمجنونة نحو
الباب وفتحته ... وكان مندى هناك ، فهتفت زغدانة مزجرة في غضب :
«كنت فين؟!»

خطا مندى الى الداخل ، وقد بدا رجلا مكتمل الرجولة ، وكان
عشرين عاما قد مضت به في تلك الأسابيع القليلة التي مضت . خطا الى
الداخل ، وأغلق الباب وواجه الجميع قائلا :
«كنت بناخذ بتارك يازغدانة!»

• الصورة السادسة •

اهتزت الميناء من اقصاها الى اقصاها ، بل اهتزت المدينة بأسرها لهذا الحادث الذى انقلبت له المحافظة وادارات الأمن وامتلات شوارع الاسكندرية برجال البوليس الحربى الانجليزى ، وسدت منافذ ، وسمح لمنافذ بالمرور منها ، وألقى فى السجن بعدد لا بأس به من الشبان المشتبه فيهم ... لكن أحدا لم يفكر للحظة واحدة ، أن صبيا مثل مندى ، فى مثل سنه وعمره ، يمكن أن يقوم بهذا العمل الذى أطلقت عليه صحف تلك الأيام «اجرامى بشع !!»

ولقد وقع الخبر على الكومى وزوجته ، كما وقع على زغدانة ، وقوع الصاعقة حقا ، ذلك أن الثلاثة ، بعد أن كانوا واقفين فى استقبال مندى ، جلسوا دون وعى منهم بالجلوس ، انما هم جلسوا لأن سيقانهم لم تقو على حملهم ... كانوا يعرفون ، كما كان يعرف الجميع ، نتيجة هذا الذى فعله مندى ... وكان مندى لايزال واقفا فى مكانه بجوار الباب حاد النظرات صلب الملامح ، والصمت يسود الغرفة الكايبية الضوء . عندما جاء صوت زغدانة :

«عملت أيه يامندى!»

ابتسم مندى فى مرارة أحس بها تتسلل الى حلقة ، ثم قال :

«طب أعملوا لنا كباية شئ نبل بها ريقنا!»

وهبت الأم ، على غير وعى منها تسأل :

«انت أكلت يا ضنايا؟!»

«من يومين مانزلتش جوفى لقمة توحد الله!»

قفزت زغدانة فاصطدمت بأمرها فى منتصف الغرفة لكنها شقت

طريقها الى رجلها فى لهفة لم تحاول ان تخفيها :

«قول لى عملت ايه يا جدع؟!»

حتى الآن لم ينطق الكومى حرفا . كان يجلس مسندا رأسه الى

الحائط ، ناظرا بعينه الواحدة نحو الشاب النحيل الصلب العود الواقف

هناك أمامه ، والذي ذبح ثلاثة رجال من الجيش الانجليزى وأخفى رؤوسهم

أمعانا فى التنكيل بهم ... كان صدره يغلى بالمشاعر ، ومن عينه الواحدة

الباقية كان ثمة بريق اعجاب ينبثق منها معلنا عن رضاء وسعادة وفخر .

وعندما جاء صوته أخيرا ، جاء واضحا أشد ما يكون الوضوح :

«ماتقعد يا أسطى . واقف ليه؟!»

كانت الدعوة صريحة من رجل البيت ، كما كانت كلمة يا أسطى

اعلانا لا يخفى عن احترام الأب للشباب الذى يريد الزواج من ابنته .

و وجلس مندى ..

و ... وقدمت له أم زغدانة طبقا مليئا بالأرز تجملة قطعة من

السّمك المقلّى البارد وملعقة صدئة .

و ... وعندما كان مندى يلتهم الطعام التهام من لم يذق طعاما منذ

أيام ، كانت زغدانة تضغط كباس وابور الغاز حتى تزيد من شعلته ، وتغلى

المياه ، وتصنع بيديها ، أحلى كوب شاي شربه مندى فى حياته .

كان الليل قد أوغل والكل جلوس فى مكانهم صامتين محملين

ذاهلين لما يحكيه مندى ...

كانت البداية عندما شاهد مندى زغدانة وهي تغادر السفينة ممزقة الملابس مهوشة الشعر معتدى عليها ... كان قد ظل طوال الليل كامنا في مخبأ من تلك المخايء التي يمتلىء بها رصيف النورس ، والتي يصعب على أعتى الباحثين ، العثور عليه ... كان هذا المخبأ هو غرفة الطعام في اللنش النصف غارق في المياه بجوار الرصيف ، وكانت المياه قد وصلت في تلك الكابينة الى منتصفها وتوقفت هكذا منذ سنوات لايدرى لها أحد عددا ... وكان لتلك الغرفة نافذة مفتوحة تحت سطح المياه ... اكتشفها مندى ذات يوم وهو يغوص بحثا عن القواقع البحرية من الجندوفلى وبلح البحر والريتسة ذات البطارخ الحمراء ، وجد أمامه كوه فنفذ منها ، غير أنه فوجيء بها وقد امتلأت بالمياه حتى منتصفها ... فاذا ماجاء المد ، غرقت النافذة تماما . أما في أوقات الجذر ، عندما يختفى القمر من السماء ، فان جزءا يسيرا من النافذة كان يتعرض للهواء فيتجدد هواء الغرفة دائما .. ومع الأيام ، كان مندى قد استطاع ، بلوحن تائهن فوق المياه ، ان يصنع لنفسه هاهنا مكمنا يرقد عليه ، ومخبأ يضع فيه كنوزه من صناديق السجائر التي كان يدخنها سرا لصغر سنه ، وبعض علب البوليبيف والجبن والمرى التي كان يحصل عليها من الجنود ذوى الوجوه الحمراء ... هنا اختبأ مندى منذ أن رأى زغدانة ، ظل ليوم كامل ، يرقد في مكانه مبلل الملابس ، يحملق في الجدار المائل للكابينة والذي كان يصنع لعينه سقفا ، وكان كل مايفكر فيه ، من الذى فعل هذا؟! .. من من الثلاثة!؟

كان ثمة «سارجن» غليظ الملامح غليظ الصوت لايكف عن ايداء المصريين وأمرهم بالابتعاد عن السفينة ... وكان مندى يكره هذا السارجن بأنفه الأحمر وشفتيه الحادتين ... وعندما مرت ليلة ، قرر أن يقتل هذا السارجن ... وعلى هذا ، قرر الخروج من مكمنه ، لعله يجد لذلك طريقا .

صمت مندى وهو يرقب الكومى وقد دس بين شفثيه سيجارة وحمل
المشعل الصغير الذى يرسل خيطا من الدخان كان يتكاثر فى سماء الغرفة
فيصنع فيها سحابة سوداء . وما أن نفث الكومى الدخان من بين شفثيه
حتى قال مندى :

«ادبنى سيجارة لا مؤاخذة يامعلمى !» .

لمعت عينا الرجل وهو ينظر الى الصبى الذى عاشره رضيعا وطفلا
وصبيا ثم ها هو يراه رجلا يقتل من يلمس حبيته بسوء ، دس يده فى
جيبه وقدم لمندى سيجارة أشعلها هذا فى شغف واضح ، ثم أسند رأسه
الى الحائط وراح يقص بقية ماحدث .

... ..

... ..

خرج مندى من الكوه سابحا تحت سطح المياه دائرا حول اللنش
استعدادا للصعود الى الرصيف عندما فوجىء بما لم ينتظره على الاطلاق ...
كان الرصيف خالياً من البشر تماما ، ولكن كان هناك جنود يبدون فى
ملابسهم العسكرية وكأنهم جاءوا من عوالم أخرى ، كانت أمنية مندى أن
يذهب ذات يوم الى بلاد الانجليز ، أن يرى هؤلاء الناس وكيف يعيشون ،
وهو ، ومنذ أن فتح عينيه على الدنيا ، يراهم قساة غلاظ القلوب يأمرون
فيطاغون ، وينهون فيمتنع الجميع ، كان حقا يريد أن يرى بلاد الانجليز ،
لكنه فى هذه اللحظة أحس بأن مفاصله كلها قد تيبست وأصبحت
عظامه وكأنها خاوية ، كان الضوء حول السفينة قويا . والحراسة أقوى
والأحاديث المتبادلة بالانجليزية ، فماذا يفعل .

لم يجد مندى أمامه سوى العودة الى مكمنه فعاد ! .

تبلغ بيضع من الطعام المخزون ودخن سيجارة لكن حلقه بدأ يجف
فليست هناك مياه .. وعندما حل الظلام التالى كان العطش قد بلغ به
درجة لم يعد فى استطاعته أن يحتملها ... غطس فى المياه ونفذ من الكوه

وأخرج رأسه وسبح في ببطء في الاتجاه المخالف ... كان هذه المرة يسبح نحو النصبه التي كان الكومى وزوجته قد صنعا منها مقهى صغيرا يبيعان فيه الشاي ... وما أن وصل الى مكانها حتى عرف كل شيء ... فلقد هدمت النصبه ودمرت تماما ، اقترب مندى من الرصيف ليلتقط أنفاسه فلمح الى جواره ، فوق صخرة من صخور الرصيف ، صفيحة صدئة خيل اليه أنه يعرفها من قبل . مال عليها فوجد بها بعض المياه ، مد يده فغرف من المياه قليلا وتذوقها بلسانه وكانت مياها حلوة ... أمسك بالصفحة وشرب كل ما فيها ..

بعد لحظات ... كان ذهنه قد صفا ... وعاد يفكر فيما أزمع عليه .

قبل أن يبدأ التفكير ، انطلق في الهواء طلق نارى ، تبعته عدة طلقات ... ثم ، أصوات صيحات وأقدام تهول ناحية مدخل الرصيف .. لم يكن مندى يعلم ما الذى يسوقه اليه القدر ، غير أنه ، عندما توارى خلف جدار سفينة ورفع رأسه ليرى ماذا يحدث ، كان الرصيف قد امتلأ بالجنود ، وكانت فوهات بعض المتريوزات مازالت تطلق طلقات الى بعيد ، وابتعدت الطلقات مع ابتعاد الجنود الذين كانوا — بالقطع — يطاردون أحداً ... التفت مندى نحو السفينة ، ولم يجد فوقها سوى ذلك «السارجن» ذى الأنف الأبنى والشفيتين الحادثتين ... وسرعان ما غطس في المياه ، وكما تسبح الضفدعة ، سبح مندى ، كان يعلم أن المشوار طويل ، وأنه كى يدور حول الرصيف ، ثم يصل الى السفينة الانجليزية على الناحية الأخرى ، لا بد له من بذل مجهودات غير عادية ، كان يعلم أن أى صوت يصدر عنه جدير بارساله الى عالم الأموات برصاصه تصيب رأسه ... وكان يعلم أن عليه أن يتجنب الأضواء الكاشفة و... و... ولكن ذهنه خلا تماما من كل شيء ، عدا هذا الهدف الذى راح يسعى اليه تحت المياه حيناً ، وأحياناً يرفع رأسه ، فقط ، كى يستنشق بعض الهواء .

ولابد أن القدر كان يقف بجوار مندى في تلك الليلة ، ذلك أنه ما أن وصل الى جانب السفينة وراح يبحث عن حبل أو سلم يصعد اليها عن طريقه ، حتى عاد اللغط الى الرصيف ، وقد أمسك الجنود بجوده الذى بدأ وجهه ملطخا بالدماء ، ومن حوله كان عشرات الجنود يصبون اليه بنادقهم ومسدساتهم ، وهاهو حوده يسير وسطهم رافع الرأس صامتا تماما ... عند مدخل السفينة التفوا جميعا حول حوده .

بعد دقائق جاءت سيارة البوليس المصرى .

وفي تلك اللحظة ، رفعت يد خفية مندى الى أحد الحبال فراح يتسلقه كما الجرذان ، فى سهولة ويسر ، وعندما أصبح فوق سطح السفينة المشتعل بالأضواء كانت عيناه تبحثان عن مخبأ ... ثمة باب هناك جرى اليه ، وكان يعلم أن آثار المياه المتساقطة من ملابسه وجسده سوف تظل الى حين ، نفذ من الباب وهبط سلما ضيقا ، ما أن وصل الى نهايته ، حتى وجد غرفة واسعة عرف فيها غرفة الطعام . وقف لثوان حائرا يتلفت هنا وهناك . ثمة باب على اليمين اتجه اليه وفتحه برفق فوجد نفسه فى غرفة غريبة ، مليئة بالأدوات والعدسات والأنوار الملونة والآلات الغريبة ... وكان يصدر عن هذا الجهاز الذى ملأ الغرفة بأكملها ، أصوات تأتي من بعيد ، وصفارات وازيز ... لكنه قبل أن يتحرك أو يفكر ، سمع صوت خطوات قادمة ، قفز قلبه بين ضلوعه ، وهتفت زغدانة مقتربة منه بحنان لم يعهده فيها من قبل :

«حاسب يامندى !» ..

فابتسم مندى قائلا أنه لم يجد مكانا يختبئ فيه ، أن أى حركة منه كانت كفيلة بأن تشي بمكانه ، وقعت عيناه على «مفك» كبير ذى نصل حاد ملقى فوق أحد الأجهزة .. اختطف المفك وقفز الى ما خلف الباب الذى فتح فى عنف ودخل واحد من الثلاثة ، لم يكن هو السارجن ، هكذا قال مندى ، وانكب على الفور فوق أحد الأجهزة وراح يضبطه

فتعالت الأصوات والصفير ، وضع الرجل سماعتين فوق أذنه واستغرق فيما هو فيه ... استغرق تماما ، حتى لقد خيل الى مندى ، أنه ظل مستغرقا في عمله ، حتى بعد أن نفذ المفك كله في ظهره وكأنه لم يشعر به ...
بعد لحظة استمع مندى الى خطوات أخرى فأيقن أنه هالك ..
لم يدر ما الذى يمكن أن يفعله . فهاهى الجثة أمامه ملقاه بلا رأس ، وهاهو الرأس فى يده ، وها هو صاحب الخطوات يقترب والباب يفتح ، ويخطو الرجل نحو الداخل ليفاجأ بمندى وقد حمل رأس زميله أمام عينيه ، كان الرجل هذه المرة هو السارجن الذى حمله فى الرأس مذعورا .
واستبد الفرح بمندى عندما رأى هذا الذعر فى عيني الرجل الذى كان يفتح فمه يريد الصراخ أو الكلام لكن مندى لم يعطه الفرصة ، فلقد انغمس المفك حتى آخره فى صدر الرجل . فشقق . ومد يده نحو مندى فتراجع هذا ، ترخ . حاول أن يخطو فسقط على ركبته ، فى لمح البصر مد مندى يده ليختطف المفك من صدر الرجل ، ثم ... ثم يجهز عليه ..
عندما دخل الرجل الثالث كان غاضبا لتأخير زميله ، ولم يكن من الصعب أن يجهز عليه هو الآخر ..

استطاع مندى أن يجد جوالا وضع فيه الرعوس الثلاثة ..
واستطاع ، بمزيد من الغل ، أن يدمر بعضا من تلك الأجهزة الغريبة التى امتلأت بها الغرفة ..
كما استطاع أن يعود ادراجه دون أن يراه أحد ، فلقد كان الانجليز قد عادوا من مطاردتهم بشاب آخر أوقفوه بجوار حوده الذى كان الحديد يكبل يديه ..

وكانت رحلة العودة مفعمة بالراحة . هؤلاء بالذات هم الذين اغتصبوا زغدانة !!

«مش كده يابت ؟!»

قالها مندى بلهجة رجل صارم يسأل امرأته .. هزت زغدانة رأسها موافقة ! .

«فيه حد غيرهم ؟!»

«لأ ياسى مندى !»

وكانت كلمة «سى» مندى هذه ، ايدانا بموافقة العروس على أن تكون زوجة لهذا الرجل ! .

«طب والعمل ؟!»

هكذا سأل الكومى ، فرد مندى :

«أنا رجعت بالروس الثلاثة وحطيتها فى الكاينة ، الشوال باللى فيه ، وربطتهم تحت الميه كويس !» .

«والمفك يا جدع ؟!»

«عيب يا معلمى» ..

هكذا قال مندى وهو يرشف من الكوب الثانية للشاى ، وينفث دخان السيجارة الثانية . ثم استطرد :

«المفك معايا آهو !»

دس يده فى عبه وأخرج المفك الطويل الحاد النصل .

فساد الصمت بين الجميع ! .

انقضى الليل فى أحاديث متناثرة ... اتخذ الأب قرارا بأن يبيت

مندى معهم فى نفس الغرفة ورفض اقتراحا بأن تبيت زغدانة وأمها عند قريبة

لهما ... كان لابد من الصمت والكتمان والاضاع الفتى فى لمح البصر ...

غير أن ثمة شيئا كان يؤرق مندى طوال الليل : «ماذا عن الرجال الآخرين

الذين ألقوا بهم فى السجون !» ..

قالت الأم : «بكل واحد ياخذ نصيبه !»

وقالت زغدانة : «طب وانت حاتعمل لهم ايه ؟»
وصاح الكومى : «محدث عارف بكره حايحصل فيه ايه .. الصباح

رياح !!»

غير أن زغدانة عادت تسأل :
«طب وانت نويت على أية يامندى!»

فى صوت واضح . حاد الملامح . قال مندى :

«حانطلع البحر!»

فساد الصمت ..

وكان شيئاً غريباً قد زغرد فى صدر مندى بألف فرح وفرح . أنه لمح

فى عينى زغدانة دمعة ! .

● الصورة السابعة ●

مضت أيام لم يغادر فيها مندى غرفة الكومى ، كان الرجل وزوجته وابنته يسعون الى رزقهم بالتناوب ، وظل هو فى الغرفة قابعا لا يغادرها ، يستمع الى الأخبار التى كانت ترد له من الخارج عن طريقهم ، وكان اللفظ قد ساد الشاطىء كله حول اختفاء مندى ، وبلغ أبوه الشرطة عن غيابه ، قال البعض انه القاتل ولذا فلقد اختفى ، وقال البعض أنه صعد على ظهر سفينة أبحرت قبل ليلة الحادث ، وقال آخرون أنه «هيج» من الشاطىء بعد ما حدث لزغدانة . لكن أحدا لم يعرف حقيقة الأمر سوى الكومى وزوجته وابنته !

وحملت الأيام القليلة التى تلت ذلك مفاجآت بلا حصر ، فلقد أفرجت النيابة عن حوده وزميله ، أفرجت عنهما بعدما ثبت أنهما كانا فى المقهى وقت وقوع الحادث ، واستشاط القائد الانجليزى غاضبا ، وتحدث الناس عن زيارته للمحافظ ، وسيارته التى اقتحمت المبنى وفيها جنود مسلحون ، وخلفها سيارتان هبط منهما أكثر من عشرين جنديا ... كان الافراج عن حوده وزميله فرحا اهتز له الشاطىء اهتزازا ، غير أنه — فى نفس الوقت — بعث بالخوف الى قلوب الشباب من أهل الشاطىء ، فلقد كانوا يعلمون: علم اليقين أن الدور سوف يأتى عليهم أن آجلا أو عاجلا ،

ولذا ، فلقد صحا الشاطيء ذات صباح ، ليجد الناس أن كل الشباب —
بلا استثناء — قد هجروه الى حيث لا يدري أحد .

ولم يكن أحد يدري أن أهل الاسكندرية جميعا سوف يغادرونها بعد
أسابيع قليلة ، فلقد اندلعت الحرب العالمية الثانية ... ورغم الأحاديث
الكثيرة عن الحرب التي سبقت اعلانها ، فان أحدا من أهل الشاطيء لم
يتصور — لكثرة ما قيل عن هتلر وتشميرلن وموسوليني وغيرهم من تلك
الأسماء التي بدت للناس في تلك الأيام وكأنها آلهة تتحكم في كل الدنيا — ولم
يتصور أحد أن الحرب ستقوم ، ولكنها قامت . وفوجيء الناس بالطائرات
ذات الأزيز المتقطع ، وهي تلقى بالحمم من السماء لتهدم البيوم وتقتل
الناس وتدمر السفن وتفعل بالبشر ما كان يتصور البعض أنه حلم ..

ومثل جميع أهل الشاطيء ، قرر الكومى أن يرحل عن الاسكندرية
الى احدى القرى مع زوجته وابنته ... لكن مندى قال : «لأ!»

وحتى اليوم ، ورغم مرور كل تلك السنوات ، لم يدر أحد لم قال
مندى : لا ... حتى مندى نفسه لم يدر لم قال : لا . كانت المدينة قد
امتلاّت بالدبابات والسيارات المصفحة ، كانت تبدو لمن بقى فيها من
أهلها وكأنها مدينة خرافية تسكنها الأشباح والجنود ، يمضى نهارها أسنا بلا
عمل ولا حركة ، ولا صوت سوى السيارات والدبابات وأوامر جنود
الامبراطورية وهم يمنعون هذا ويمنحون ذاك ... ويأتى ليلا ، كل ليلة ،
بالجحيم ينصب على البشر من السماء ، وأصوات الانفجارات والطلقات
والصرخات ، وهيب النيران يندلع هنا وهناك ، والأخبار تترى عن أماكن
هدمت ، وعن معجزات حدثت ... غير أن أشهر تلك الحكايات على
الاطلاق ، كانت حكاية «سیدی أبی الدرداء» الذى يقسم البعض ، أنهم
شاهدوا القبلة وهي تهوى مزغرده من السماء ، وانه — سیدی أبی الدرداء

— الراقد في مقامه هذا حيث يدور الترام من حوله وينحني الشارع احتراماً له ... شاهدوه وهو يخرج من القبر ليلتقط القبلة بيديه ، ثم يوسدها الطريق دون أن تنفجر !

عشرات ، هؤلاء الذين شاهدوا القبلة الملقاه بجوار المقام في أمان ، وعشرات غيرهم نقلوا الأخبار ، وعشرات غير هؤلاء وأولئك شاهدوا خبراء المفرقات وهم يخلون المنطقة ، ويرفعون القبلة بعد أن نزعوا مفجرها .

حكايات وحكايات ، ولقد تأخر الكومى وزوجته وابنته كثيراً عن الرحيل حتى لم يبق في الحى عداهم سوى عدد قليل من الصيادين أرسلوا عائلاتهم الى ريف مصر ومدنها الآمنة ، وفضلوا هم البقاء على الشاطئ لا يغادرونه ..

لكن الكومى رحل مع زوجته وابنته أخيراً !
قال مندى : «طب مش نكتبوا الكتاب يامعلمى قبل ما تتوكلوا؟!»

وساد الصمت الغرفة .

كان الوقت عصراً عندما انتهى الحديث الى أن هذه هي الليلة الأخيرة التي سوف يقضيها الكومى في الاسكندرية ... وعندما ساد ذلك الصمت كانت عينا مندى معلقتين بعيني زغدانة . ولم ترخ زغدانة عينيها أمام عينيها كما تعودت أن تفعل منذ أن قتل مغتصبها ، ومنذ ذلك الحادث وزغدانة تشعر في أعماقها أن ثمة شيئاً قد شرخ في صدرها أو انكسر في نفسها ، ثمة شيء غريب كان قد حدث في قلبها ، أحست ، بعد ما حدث ما حدث ، أنها لم تعد تقوى على الحياة ، ولم تعد تحبها ، شيء مخيف تغير في داخلها كان يدفعها ليل نهار لان تفكر في الموت ... ولولا وجود مندى ، ولولا نظراته تلك الحانية التي كان يغمرها بها ، لكانت الدنيا قد أصبحت ظلاماً يكتفه الظلام من كل جانب ! .

بعد ساعة عاد الكومى من الخارج لاهثا ، لم يجد فى المدينة كلها
مأذونا واحدا !

قال مندى :

«خلاص . نيجى معاكم مطرح ماانتم رايحين ، نكتبوا الكتاب ونرجع

تانى !»

قال الكومى :

«وهو احنا عارفين احنا رايحين فين ؟!»

«كلها بلاد الله !»

«طب مانقسموا البلد نصين !»

«انت مش عاوزانى نيجى معاكوا ليه ؟!»

وهتفت زغدانة كالقطة المتوحشة لأول مرة منذ زمان طويل :

«ولما حد يشوفك من اللى مايتسموش !»

«كل الخلايق بتشوفنى دلوقت !»

«اللى بيحصل هنا غير اللى هناك ؟»

وكان هذا حقا ، فان الناس قد نسوا قصة الجنود الثلاثة الذين

قتلوا ، ورحل القائد الانجليزى ، وتغيرت معالم الدنيا فى أسابيع قليلة ،

وأصبح مندى يخرج ويدخل دون أن يثير هذا انتباه أحد . كان أبوه قد

رحل مع أمه واخوته ، وكان قد علم من بعض الذين صنعوا من أنفسهم

جسرا بين «المهاجرين» — كما أطلق عليهم أهل القرى والمدن الصغيرة —

وبين الذين بقوا فى المدينة ، كان قد علم انهم استقروا فى قرية اسمها «صفت

الملك» .

هناك ... فى تلك القرى والمدن الصغيرة ، كان أهل الاسكندرية

قد استقروا يلتقطون رزق يومهم بالاسنان والأظافر . وتخصصوا فى بيع

«الحليب» و«الفلافل» وكثير من المهن التى كانت تعرفها تلك القرى

أو لاتعرفها ... وكانت أغلب العائلات تعيش بلا رجال ، ذلك أن الرجال

الذين كانوا مرتبطين بوظائف حكومية كان عليهم الافتراق عن ذويهم لكسب القوت حتى ولو بقوا في الاسكندرية ، كان مندى يعلم علم اليقين أنه سوف يلتقى بمن يعرفه ، وأضاف الكومى بأن احدا لابد وأن يبلغ أباه لان مسير الحى أن يلتقى ، وصاحت زغدانة أنه قد يلتقى بواحد من جنود الامبراطورية فيعاوده الحنين الى القتل ، وأضافت أم زغدانة ، أن أولاد الحرام فى هذا العالم كثيرون ، وأن أحدهم قد يبلغ عنه !

كانت الحقيقة غير هذا تماما . فان احدا لم يذكر مندى بعد الحادث ، ولا حامت حوله الشبهات ، ولم يفكر انجليزى أو مصرى فى القبض عليه ... وزغم الحادث وبشاعته ، فان اختفاء مندى علل بين أهل الشاطيء جميعا ، بالخلاف الذى نشب بين مندى وأبيه عقب اعلانه رغبته فى الزواج من زغدانة ... ولكنه الخوف الغريب الكامن فى صدور هؤلاء الأربعة . ذلك الخوف الذى سببه انهم هم فقط ، يعرفون أن مندى هو القاتل ! .

...

«خلاص يامعلمى .. نقرأ الفاتحة !»
لم يذكر الكومى ، ولا مندى ، ولا زغدانة ، ولأمها ... تلك الفاتحة التى قرأها الكومى مع حوده فى المقهى أمام الجميع ... كانت الأحداث قد شغلت الناس عما كانوا فيه ، وكان حوده قد هاجر مع من هاجروا وكأنه — بعد القبض عليه — قد نسى هو الآخر حكاية الفاتحة التى قرأها — شهامة — مع الكومى ...

وقرأ الرجلان الفاتحة . وقال الكومى :

«خذ زغدانة وانزلوا اتمشوا على البحر شويه !»

وهتفت أم زغدانة :

«بس ابعلوا عن الميناء يا ابنى !»

ومشطت زغدانة شعرها ، وارتدت ذلك المنديل ذا اللون الأصفر
الذى تزينه وردات من خيط ملون . وارتدت جلبابا نظيفا ووضعت في
قدمها شبشبا كانت أمها تحتفظ به منذ سنوات لتهدية لها ليلة الزفاف ...
وانطلق الخطيبان الى الطريق .

في تلك البقعة المسماة بالانفوشي ، شاطئء رملي ضيق ، تضرب
الأمواج حوافه في رفق مهما علت . ذلك أن صخرة رأس التين ، حيث
يقوم قصر الملك هناك شامخا مظلما كما هي العادة في أيام الحرب ... في
تلك البقعة المهجورة الآن تقريبا ، وعلى هذا الشاطئء الذى افتقد أرجل
الناس وهم يسعون الى رزقهم أو يتسمون هواء العصر الندى ... جلس
منى وزغدانة ليضعا دستور حياتهما الجديد .

«ايه اللي انت نويت عليه؟!»

«مانى قلت لك . حانطلع البحر!»

«وليه ماتجيش معانا؟!»

حملق مندى في زغدانة باسمها . كانت هي هي التى صاحت فيه
مند أقل من ساعة خوفا عليه من أن يراه أحد أو يشي به أحد ... وأرخت
زغدانة عينيها ، وتلاعبت أصابعها برمال الشاطئء وغمغمت بعد أن
اكتشفت خطأها :

«آنى عارفة بقى!»

«حانوحشك يابت؟!»

ورفعت زغدانة عينيها اليه ، لم تنطق حرفاً ، ولم تتفوه بكلمة .
ولكن كل خلجة في وجهها كانت تصرخ بالآلاف الكلمات ، وتجمعت
هذه الصرخات في دمع راح ينهمر فجأة من عينيها بغزارة .. وذهل مندى ،
ذلك أنه لم يكن يتصور أن زغدانة من الممكن أن تبكى أبدا . ولكنه برغم
ذلك كان سعيدا كل السعادة ، ولقد أدهشته سعادته دهشة بالغة ...

هاهى زغدانة تبكى ، وهو يحب زغدانة ، يحبها حتى القتل ، فكيف يسعد
لكائها؟! »

«آنى حانكسب لى قرشين ونحوشهم ونرجع لك !»

«البحر مالوش أمان يامندى !»

«ومن امتى البحر كان له أمان يابت الناس؟!»

«بس الأيام دى فيه غواصات وطيارات وحرب !»

«والأيام دى بيدوا للنفر جنيه فى اليوم !»

« آنى مش عاوزه فلوس ! »

« وآنى مش عاوزه ندخل السجن وننشق ! »

عادت ملامحها الى الارتجاف من جديد . راحت تحملق فيه لثوان :

«حاتغيب على يامندى؟!»

«قولى يارب !»

«حاتبعت لى جوابات؟!»

«مش لما نعرف عنوانك !»

«يادى الحوسة .. دنية اية دى !»

هكذا صرخت زغدانة فجأة . وهكذا انفجرت فى بكاء مرير ، لقد

اكتشفت فى لحظة غريبة ، كما اكتشف مندى ، أن عليهما أن يفترقا . لا

الى حين معلوم ، ولكن الى مالا يعلم الا الله ..

«زغدانة !»

من بين الدموع والشهقات جاءه صوتها نائحا :

«أصلى بنحبك يابن الناس . بنحبك أكثر من عنيه !»

وعندما كان آذان العشاء يأتى من بعيد يرسله شيخ فى زاوية رفض

أن يغلقها ويهاجر مع من هاجروا ، وكان يؤذن لمدينة خالية ، ويصلى

وحده ، فى ذلك الوقت من ذلك اليوم ، امتدت يد مندى لتقبض على يد

زغدانة . وعلى الفور ، سرت فى جسده رعشة ، وأحس بالنيران تلتهم كل

أوصاله ... واغمضت زغدانة عينيها ضائعة ، ووجد مندى نفسه يميل الى
الأمام ، لم يقصد اليها بل جاءت وحدها تلك القبلة الغربية الدافئة التي
جمعت الشفاه لدقائق لا يدريان كم طالت . لكنهما آفاقا ..
وكان لابد لهما أن يفيقا .

كانت الرمال مبللة بالمياه .. وكان الليل حالك الظلام ..
في صبيحة اليوم التالي ، رحلت العائلة وكان الوداع قصيرا ..
ركب الجميع الترام الخالي من باب ستة حيث ينتهى شارع وكالة
الليمون .

وهبطوا من الترام فى «محطة مصر» ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى
احدى عربات الدرجة الثالثة ، وكان الكومى قد قطع ثلاث تذاكر الى بلدة
تدعى «كفر الزيات» ، لم يدر لم اختارها . ولم تسأله زوجته عن سر
اختياره لها ... ولم تفكر زغدانة فى الامر نهائيا .

تحرك القطار مختفيا فى الأفق ..
وبقى مندى وحده فى المحطة لساعات . جالسا ، لا يفكر ،
ولا يعيش .

كانت زغدانة قد رحلت الى بعيد .
وكان عليه هو أن يرحل الى ما هو أبعد ! .

● الصورة الثامنة ●

مضت بضعة أيام قبل أن يشعر مندى بالوحدة ، أيام قليلة تلك التي مرت كان بيت فيها في غرفة الكومي دون أن يسأله أحد أجرا عن شيء ، كانت المدينة قد أصبحت مهجورة ، لا أحد هناك سوى الموظفين الذين اضطرتهم وظائفهم للبقاء وحدهم بعد أن سافرت عائلاتهم في هجرة بددت أهل المدينة في جميع بلدان الوجه البحرى وقراه ... وكانت الغارات تنهال على المدينة في عنف بالغ فتدمر البيوت والعمارات وتخرب الشوارع ، ويوما بعد يوم ، تعود الناس على هذا ، تعودوا على صوت صفارة الانذار ثم ازير الطائرات الألمانية المتقطع ، وصوت المدافع المضادة السريعة ... بل وصل الأمر الى الحد الذى جعل الناس خبراء في أصوات الطائرات وماركاتها وأصوات المدافع وأنواعها ... غير أن مندى ، وقد أصبح من الصعب عليه أن يظل محتبئا حتى الأبد ، اكتشف أيضا أن أحدا لم يكن يبحث عنه ، وأن حكاية الانجليز الذين ذبحوا قد طويت في الأوراق ودثرتها انقاض الحرب ، في البداية كان حريصا على الخروج قبل الغروب ليتسوق ما يلزمه من طعام . ولقد اغلقت مقهى شلوفة أبوابها ، وعزت كباية الشاى وأصبحت نادرة ، وشحت النقود في يد مندى وكاد يصبح مفلسا تماما عندما خرج ذات نهار يبحث عن رزق ... ولم يكن يعرف لنفسه طريقا

غير الميناء .

استطاع أن ينفذ من باب جانبي حتى يبعد عن الجنود ، غير أنه ما
كاد يستقبل الرصيف الذى اكتظ بجنود الامبراطورية وسفهم وسياراتهم
ورطانتهم ، ما كاد يفعل هذا حتى واجهه الشاويش عبد العزيز ...
ولوهلة ، كاد مندى يطلق لساقيه الريح لولا نداء عبد العزيز ... لم يكن
نداء من هذا النوع الذى يخشاه المجرمون من جنود الشرطة ، وانما هو نداء
صديق مغموس فى حرارة الشوق :

«مرحب يا شاويش !»

«انت فين يا بنى !»

«بنلقط رزقى »

«ده أبوك واخواتك هاجروا من غير مايشوفوك !!»

قالها عبد العزيز فى عتاب شديد فخفض مندى رأسه :

«معلش يا شاويش»

«أبرك دور عليك فى كل حته !»

«ماهو اللى ماكانش»

«ماكانش ايه يا جدع . هو أبوك لما يقول لك آنى مش عاوز

نشوفك ، يبقى برضك مش عاوز ؟!»

«ماهو»

«على العموم اذا حبيت تشوفه . حاتلقاه فاتح دكانه مانيفاتورة فى

كفر الزيات !»

«كفر الزيات ؟!»

هكذا هتف مندى وكأنه يقتلع قلبه . قال الشاويش عبد العزيز :

«انت رحتها قبل كده ؟»

«ولاعمرى شفتها !»

«على العموم لما توصل حا تلقى ألف مين يدلك!»
صمت مندى منكسا رأسه ...

«مالك ياوله؟!»

«أصلى بندور على شغلانه!»

«الشغل على قفا مين يشيل . دول مش لاقين حد فى البلد!»

«طب ماتدلنى على شغلانه ياشاويش!»

«وانت ايه اللى يقعدك هنا!»

«أصل ...»

«يابنى الغارات مش مخليه الناس تعيش والبمب والطوريد ماهمش

عينين!»

«ماهو»

«روح كفر الزيات لأبوك واقف معاه فى الدكان خليه يدعى لك!»

«انى عاوز نطلع البحر!»

بدأ الشاويش عبد العزيز فى تلك اللحظة وكأنه رأى شيئا مفرعا .

همس :

«بحر؟!»

«أيوه!»

«بحر ايه يابنى!»

«أهو آنى بقى عاوز ننزل الميه!»

«دى المراكب اللى بتطلع ما بترجعش!»

«الأعمار بيد الله!»

«وليه يابنى الناس ما»

«تقدر تساعدنى؟»

«أبوك يتقهر عليك!»

«رَبَّنَا يُجِيبُ الْعَوَاقِبَ سَلِيمَةً!»

«يَا بَنِي آهْتَدِي بِاللَّهِ!»

«وَإِذَا حَلَفْتُمْ بِالْمَرْسِيِّ!»

صمت عبد العزيز طويلا ، واشعل سيجارة نفث دخانها في وجه مندى . ثم زفر زفرة طويلة وهو يقول : «تعالى ورايا!»

لم تكن الميناء ، بعد تلك الأسابيع القليلة التي مضت ، هي الميناء التي عرفها مندى . كان كل شيء قد تغير ، ومعظم الرجال قد هجروا أعمالهم وهاجروا الى قرى مصر هربا من الموت المقدوف كل ليلة من السماء كأنه غضب من الله ، وكان الوجه الأحمر هو الوجه السائد في الميناء ، وجه جندي الامبراطورية الذي يضرب في الأرض وكأنه ملكها وما عليها ومن يسعى فوقها ... كان الطريق طويلا من باب ستة حتى باب ١٤ حيث تقف السفن التجارية وسفن الركاب ، وكان لابد من تبادل الحديث :
«اكن انت كنت فين المدة ده كلها يا جدع!»
بدأ عبد العزيز يعامل مندى على أنه رجل فخلع عليه لقب جدع .

رد مندى :

«من بلاد الله لخلق الله!»

«دي ماكانتش كلمة اللي قالها المعلم!»

«معلش . كل شيء نصيب» .

«فيه مركب يوناني مضروبة طوريد يصلحوها في الحوض الجاف!»

«كارجو والابانسجيري!»

كان يقصد ان كانت السفينة سفينة بضاعة أو ركاب ! . رد عبد

العزيز :

«مابقاش فيه مراكب باسانجيري اليومين دول!»

«خالص؟!»

«واللى فضل منها السلطة خدته وعملته كارجو!»

«فيه شغل؟!»

«واليومية ثلاثة جنيه!»

«حته واحدة؟!»

«سمعت عن اللى حصل بعد أنت ماهجيت من البلد!»

«خير!»

«واحد ابن حلال طلع المركب الانجليزى اللى كانت واقفة على

رصيف النورس وجز رقابى ثلاثة عساكر!»

دق قلب مندى بعنف . وجاء صوته مشروخا وهو يقول :

« مين اللى عمل العملة دى؟! »

«لحد دلوقت محدش يعرف مطرحه ، ولا مطرح رعوسهم!»

«هو خد رعوسهم معاه؟!»

«دى حكاية كانت عجب . والمينا اتقلبت . لكن الحرب جت

بقى وبلعت كل حاجة!»

«يعنى ايه؟!»

«العبارة اتنتت من ساعة ما طقت أول رصاصة فى بلاد

الانجليز!»

وتنفس مندى الصعداء . لأول مرة ، شعر مندى بالراحة تغمره ...

ولأول مرة ، كان يسير بجوار الشاويش عبد العزيز وهو يتلفت يمنة ويسره ..

كان ، كان يريد أن يراه كل الناس ، وأن يرى كل الناس ، حتى لقد فكر

فى السفر الى كفر الزيات .

ولكن ...

ولكن مندى وجد نفسه أمام السفينة المصابة في الحوض الجاف .
كان الشاويش عبد العزيز قد مر على بضع سفن وعاد خاوي الوفاض ...
ذلك أن بعض البحارة عادوا من المهجر بعد أن فشلوا في الاعمال التي
أسندت اليهم ، أو ، وهذا ينطبق على معظمهم ، لم يستطيعوا الابتعاد عن
البحر مدة أطول من هذه ... وهكذا ، كانت أزمة البحث عن بخارة تخف
يوما بعد يوم ... لكنهما عندما خرجا من الميناء وركبا الترام ولم يأخذ
الكمسارى منهما أجرا اكراما للشاويش ، ونزلا عند الحوض الجاف في حى
الورديان ، حتى كان باب الفرج قد انفتح أمامهما على مصراعيه !

كان القبطان سكيلا يونانى الأصل يعرف اللغة العربية :

«انتى اشتغلتى فى مراكب قبل كدة ياولد ؟!»

رد الشاويش :

«ده مولود فى الميه يا قبطان !»

«يعنى بتعرف فى شغل البحر ؟!»

«بنقول لك مولود فى الميه !»

«فيه باسبور ؟!»

«يطلع فى يوم وليلة !»

«خلاص . روح أنت طلع الباسبور بتاعه . وسيه هو للشغل

هنا !»

«فين ؟!»

دس القبطان يده فى جيبه وهو يمطر السفن والبحر بعشرات الشتائم

القييحة ، مد يده بخمسة جنيهات اعطاها للشاويش عبد العزيز الذى

التفت الى مندى متسائلا :

«معاك صورة !»

«لأ.»

«يبقى لازم تيجى معايا لاجل ما تتصور!»

فى المساء كان كل شىء هاجعا تماما . كان البحارة قد غادروا السفينة وقد علم بعضهم أن شابا قد انضم اليهم ... وكان الباشريس — كبير البحارة — مصريا «اسمه خليل» ، كان رجلا ربع القوام قصير القامة قوى الجسد يحمل فوق فمه شاربا هائلا . وتخرج من بين شفثيه كلمات لها وقع القنابل ، وقد نظر الى مندى بازدرء وقال للقبطان !

«الود ده عمره ماطلع البحر!»

رطن القبطان باليونانية ، وكان واضحا أن الباشريس خليل يعرفها جيدا ، رطن القبطان طويلا . ثم لوح بذراعه تاركا مندى مع الباشريس خليل ، الذى وقف مائلا بجذعه الى الخلف ماسحا جسده مندى من أعلى الى أسفل ، ثم قال :

«شوف يابن الناس . البحر ، ما هواش لعب . آه.»

مضت لحظة صمت لم يرد فيها مندى :

«والمراكب ماهياش فلايك . آه!»

والتزم مندى الصمت أيضا .

«وآنى هنا بقى الباشريس . آنى الكل فى الكل . آه!»

شعر مندى بغصة فى حلقه لم يجد لها سببا !

«واللى أقوله يمشى من غير أحمر ولا دستور .. قلت ايه؟!»

«آنى تحت أمرك يا باشريس!»

قالها مندى فى استقامة ووضوح أدهشا الباشريس خليل . غير أنه

سرعان ما ابتلع تلك الدهشة وهو يتمتم :

«كده يبقى كويس . آه ... تعالى ورايا!»

وجد مندى نفسه أمام حلمه وجها لوجه ... ذلك العنبر الكبير
الواسع في بطن السفينة ، والذي رصت فوق أرضه صناديق تبدو
كالتواييت ، وكان كل صندوق يستعمل كدولاب للملابس البحار وأغراضه ،
ويستعمل كفراش ينام عليه ..

«ده سريك!»

كان الفراش في ركن قصي من العنبر متلصق بجدار السفينة البارد ..

«روح هات هدومك وحطها فيه وحصلنى على فوق!»

«معنديش هدوم!»

«وحاتشتغل بأيه!؟»

صمت مندى تماما .

«تعالى نديك وردروبه اياك يطمر فيك!»

استدار الباشريس خليل بقامته الربعة وسار نحو السلم في خطوات
كان جسده يتمايل لها يمنه ويسره شأن من تعود السير فوق الموج ، هم
بصعود السلم الحديدى عندما التفت نحو مندى صائحا :

«ولو أنه مش حايطمر فيك . آه .»

وتسلم مندى الوردروبه ، وهى بدلة العمل ، وأصبح عليه أن ينتظر
حتى الصباح كى يبدأ العمل ... فلقد حل الليل وحرمت اضاءة
الأنوار ... خلت السفينة من البحارة وسادها السكون حتى من ضربات
مياه البحر . فلقد كانت لاتزال معلقة في الحوض الجاف حتى يجرى
اصلاحها وسد الثقب الذى أحدثه الطوربيد في جانبها الأيمن !!

رقد مندى فوق فراشه الخشبي الجديد ، سرح بأفكاره ... هكذا
يتحقق أغلى الاحلام غير أنه بلا طعم . هكذا أحس . فكيف يسعد
وزغدانة بعيدة عنه في بلدة اسمها كفر الزيات لايعرف أين هى ولا بد أن
الطريق اليها كان طويلا ... ولقد غفت عينه لساعات أو لثوان لايدرى ...

كل ما يعلمه انه استيقظ على ضجيج وصراخ وزعيق ... وعندما فتح عينيه . كانت هناك ثلاثة من الوجوه تطل عليه ... كانت الوجوه لرجال من رجال السفينة ، وكانت الأفواه باسمه ورائحة الخمر تفوح منها . فارتعد وهو يقفز من مكانه !

● الصورة التاسعة ●

كان الذى دفع مندى الى القفز من فراشه هو هذا الاحساس الذى يطلق عليه علماء النفس اسم غريزة البقاء ، وهو احساس غامر بالخوف من خطر مجهول . لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها مندى رجالا سكارى ، وكان يعلم أن اشد الرجال خطرا اثناء السكر هم الاستراليون ... وعندما امتلأت الاسكندرية ذات يوم بألوف الألوف من جنود الامبراطورية البريطانية ، كان فيهم الهندي والأفريقي والكندي والاسترالى ... كان الجنود الاستراليون يبدون لأهل مصر فى تلك الأيام مثل الثيران الهائجة ، فما أن يشرب الواحد منهم كأسا حتى يسير مترخا محطما كل ما فى طريقه ومن فى طريقه ... غير أن الذى يعرفه مندى عن المصريين الذين يتعاطون الخمر لم يكن يتعدى بضعة من رجال الميناء كانوا اذا احتسوا الخمر ترخوا مستندين الى حيطان البيوت فى الشوارع ، وبعضهم كان الناس يتندرون برقدته على الرصف فى انتظار نور الصباح ... لكن الذى رآه فى تلك الليلة ، وكان الرجال الثلاثة مصريين ، كان مخيفا الى الحد الذى دفعه الى أن يقفز من فراشه مسرعا الى حيث لايدرى .

وربما ... ربما كانت تلك الحركة المذعورة بالذات ، هى السبب فى

كل ماحدث بعد ذلك !

فما أن غادر مندى فراشه في تلك القفزة السريعة حتى وجد نفسه معلقا في الهواء ... وكان الذي أمسك بياقة الوردروبه ورفع مندى في الهواء عملاقا اسمه «شبيطة» ، كان له اسم آخر ، وكان جميع من في السفينة ، حتى القبطان اليوناني ، يعرفون ان له اسما آخر في أوراق السفينة وفي جواز سفره ، غير أن واحدا من هؤلاء لم يهتم على الاطلاق بهذا الاسم الحقيقي . ولأحد يدري من الذي اطلق على «شبيطة» اسم «شبيطة» أو لماذا ، ربما لأنه كان سريع الغضب كثير الشجار ، ولقد كان شبيطة سكران في تلك الليلة حتى النخاع ... كان في السفينة عندما هاجمتها الغواصة الالمانية وأطلقت عليها ذلك الطوربيد الذي صنع في جانبها الأيمن ذلك الثقب الهائل الذي أشعل النيران في عنبر ٣ وكاد شبيطة يروح فيها لولا ستر الله ... مات من زملائه ستة ، احترق اثنان وغرق أربعة أمام عينيه ، ورغم حزنه الشديد ، الا أنه ظل يضحك طوال الأيام التي قضتها السفينة في البحر حتى وصلت الى الميناء ، ثم ظل يشرب الخمر ليل نهار ، ويتعارك ، ويبكى أحيانا .

لم يكن مندى يعلم هذا عن شبيطة ولم يكن يعلم شيئا عن الآخرين ، غير أنه عندما وجد نفسه معلقا في الهواء بهذه الصورة المهينة ، وعندما ضج الجميع بالضحك ، انتابه غضب جامح ، غضب دفعه الى محاولة التخلص من مأزقه هذا فازدادت ضحكات الرجال ...

ثوان هي وامتلاً العنبر بالرجال . وأضيئت الأنوار الزرقاء لتلقى بالضوء على الوجوه الشاحبة الخائفة فتحيلها الى أشباح مرعبة . كان شبيطة ، بقوة ساعد خارقة ، يحمل مندى ويسير به في العنبر مرورا بالرجال ، وكان الغضب قد تملك مندى فراح يسب ويلعن ويحاول دون جدوى ... غير أن فرصته حانت عندما أداره شبيطة الى ناحيته وراح يضحك في وجهه فيندفع تيار أنفاسه معبقا برائحة خمر نفاذة اشعلت

نيران الغضب أكثر ، نظر اليه شبيطة وقد هدأت ضحكاته :

«اسمك أيه يا شاطر !»

«وانت مالك !»

«ذنبك على جنبك !»

«نزلى !!»

«مش لما تعرفوا الأول اسمك ايه !؟»

تكورت قبضة مندى في عنف استعدادا للانطلاق نحو وجه شبيطة ، غير أن هذا كان قد تنبه الى مايفعله البحار الصغير ، وما أن انطلقت القبضة حتى مال شبيطة برأسه الى الخلف فطاشت ضربته ، وأصبحت الضحكات في العنبر كالجنون ذاته . وأحس مندى أنه أصبح أضحوكة حتى لنفسه ... ولكن ، عندما رفع شبيطة يده اليسرى ليلطم بها وجه مندى في دقة جعلت رأسه يدور ، كان شبيطة يقول :

«ماتعملش كده تانى يا شاطر !»

ظن مندى في لحظات عصبية مرت به ، ان الامر كله ليس سوى كابوس أو حلم ثقيل ، لكن الضحكات والأصوات ودماءه التي كانت تغلى أقنعتة جميعا بأنه مستيقظ ، وأنه ثمة رجل ما يلعب به أمام الناس كما يلعب بدميه . فقرر قتله !

هل كانت هذه هي البداية !؟

بداية ذلك الطريق الذي شقه مندى في بحار الدنيا وموانئها جاعلا من نفسه أسطورة يتحدث بها الجميع !؟ ..
لأحد يستطيع أن يجيب على وجه التحديد ، غير أن ثمة شيئا شديد الأهمية قد حدث في تلك اللحظات في رأس مندى ، فلقد تذكر ، مع قراره بقتل شبيطة ، زغدانة !

في شارع ضيق يبدو مثل شق وسط المباني في مدينة كفر الزيات ،
وجد الكومي غرفة في بيت من تلك البيوت الكبيرة الهائلة الحجم . والتي
كانت ، في تلك الأيام التي ليست ببعيدة بعدا ساحقا ، تبنى كي تسكنها
العائلات الثرية ، فاذا البيت كله ، أخوات وأولاد عم وأخوان وبنات
خالة ... وكان الطابق الأرضي من هذه البيوت ، عادة ما يُخصص للخدم ،
فاذا به مجموعة هائلة من الغرف ، تزيد في بعض الأحيان على العشرين ،
تحيط بفناء رطب يمتلىء بالأطفال والنساء — نساء الخدم في البداية ثم نساء
المهاجرين بعد قيام الحرب — اللاتي كن يغسلن الغسيل أمام أبواب
حجراتهن ، أو يطبخن طعاما تفوح منه رائحة نفاذة ... فلقد كان
السكندريون يعشقون الطعام ، خاصة اذا كان سمكا !

في هذا الشارع الضيق الذي يطلق عليه حتى اليوم في كفر الزيات
اسم «شارع همازين» ، وجد الكومي غرفة في فناء بيت الحمامصي دفع لها
أجرا قدره عشرون قرشا في الشهر ، وبدأ يبحث لنفسه عن عمل ، كما
بدأت زغدانة ، بدورها ، تفكر في عمل شيء تساعد به أسرتهما .

كانت الأيام الأولى شاقة وقاسية . حاول الكومي فيها أن يجد لنفسه
مكانا ينصب فيه نصبته لبيع الشاي للناس ، فوجد بدل المكان ألف
مكان ، لكنه لم يجد من الزبائن ما يكفي للاستمرار ، انتقل من رصيف الى
آخر . من مكان الى آخر . من عند محطة السكة الحديد حيث أحمالون
وعربجية عربات الخنطور ، الى موقف الاتوبيسات الذاهبة الى طنطا عند
المزلقان الذي يغلق ويفتح لمرور القطار ، وسيارات التاكسي التي تختفي
أجسادها تماما تحت أجساد الناس الذين كانوا يركبون كل موضع قدم فيها
نظير قرش صاغ يدفعه الراكب نظير رحلة خطيرة في طريق غير معبد يمر
بعشرات القرى التي تحيط بالمدينة الصغيرة ! .

كان بعض الاسكندرانية قد وجد أعمالا شتى في بيع اللبن وتجارة

الخبز وما الى ذلك ، وكان بعضهم قد وجد عملا ثابتا في مصنع الصابون القائم في أطراف المدينة ، والذي كان يملكه رجل يوناني سرت الشائعات في المدينة وأصبحت مثل حقيقة غريبة لكنها ثابتة ، انه كسب المصنع بعماله وآلاته ومبانيه وبيوت موظفيه الحمراء ذات اللون الكاوي ، في لعبة ميسر كان المفروض أن يكون أحد كروثة خمسة ، لكنه لم يكن يملك سوى كارت به أربعة فقط ، فما كان منه الا أن عض أصبعه حتى ادماه . وطبع بالدم مكان القلب الأحمر الناقص ، قلبا بدمائه ... ومن ثم كسب المصنع !

سمع الكومى هذه الحكايات الغريبة في كفر الزيات عن صاحب مصنع الصابون الذى لم يره أحد . فالخواجات . وأى أجانب كانوا في مصر خواجات في ذلك الزمان ، ولهم هيبة ، كما سمعت زغدانة نفس الأسطورة ، وصدقها تماما ، فلم يكن هناك مايرر ألا يفعلا ... بل ربما صدقاها لانهما كانا مشغولين تماما بلقمة العيش التى كانت ، فى تلك الأيام السوداء التى كان لون الخبز فيها قد أصبح أسود مثلها ، وقد بلغت جولات الكومى وابنته حتى وصلا الى مستشفى الانكلستوما الكائنة على الشاطيء الآخر من ترعة الملوانية التى كانت تشق المدينة الصغيرة نصفين فى تلك الأيام ... وهناك ، استقرا لبعض الوقت ، فلقد جدا زبائنهما من الفلاحين الذين كانوا يتوافدون على المستشفى للعلاج من البلهارسيا والانكلستوما بشكل منتظم وغزير وطوال أيام السنة .

وكان العمل مرضيا . والحمد لله على كل شيء . لكن الذى كان يعيبه ، هو أن الفلاح لم يكن يستطيع أن يشرب الشاي قبل الحقنة . حتى اذا أخذها ، كان عليه أن ينتظر طويلا . ذلك أن حقنة الطرطير كانت تقلب معدة الرجال فيرجعون مافى جوفهم ... وكان على الكومى أن ينتظر حتى تغيب الشمس عندما تنقطع القدم من هذا الطريق الموازى لترعة الملوانية ، والذي يصبح البقاء فيه خطرا ! .

غير أن حادثة وقعت ذات يوم .

فلقد كانت أم زغدانة تجلس أمام باب غرفتها تقلى بعضا من أقراص الطعمية التي يطلق عليها السكندريون اسم «فلاقل» ، والتي يتقنون صنعها في نفسه الوقت . وتصادف مرور أحمد الحمامصي ، الابن الأصغر لصاحب هذا البيت المهول فشم رائحة الطعمية ، فما كان منه الا أن عاد الى أمه . وطلب أن يتذوق هذه الطعمية ، وسرت أم زغدانة سرورا بالغيا لهذا الطلب الرخيص ، وأرسلت الى صاحبة البيت عددا من الاقراص ، دفعت السيدة الى طلب المزيد منها صباح كل يوم ، على أن تدفع في القرص مليما كاملا .

في المساء كان الحديث داخل الغرفة بين أفراد الأسرة ، الكومى وزوجته وابنته ، هامسا خوفا من الحسد ، ومن سماع الجيران بما حدث ، فلربما قام احدهم أو احدهن بالخدمة . وهلف الرزق الآتى على غير موعد أو ترقب .

كانت الحسبة تقول أنه من الممكن أن تكسب الأسرة من هذه الصفقة قرشا كاملا في كل يوم !

كانت أقراص الطعمية تباع كل أربعة أقراص بمليم . وها هو رزق ، على غير توقع ، يفتح بابا في السماء ، لتكسب منه الأسرة قرشا اذا أضيف الى ما يكسبه الكومى من الشاى صنع دخلا يكفى لستر حاجتهم تماما .

ولكنهم في تلك الليلة ، لم يكن أحدهم يدري ما يخبئه لهم القدر من أحداث ، لم يكن أحدهم يعلم ، أن قرص الطعمية هذا الذى طلبه شاب وسيم ومدلل لعائلة ثرية ، واسمه أحمد ، سوف يكون سببا في تغيير حياتهم كلها !!

فهل كان مندى يعرف ما يحدث؟!

كان مندى فى ذلك الوقت راقدا فى فراشه مريضا بعد أن أصابته لكلمات شبيطة بكدمات وأورام لاحصر لها انتثرت فى جسده وجعلت بقاءه فى أى وضع ، أمرا غير محتمل !

كانت السفينة الآن فى عرض بحر ، كانت تحمل شحنة من القمح المصرى ، وكان عليها أن تقطع البحر الأبيض ، وأن تعبر مضيق جبل طارق ، وتنحرف بجذاء الساحل البرتغالى الذى كان يميل الى الالمان رغم أنه لم يدخل الحرب ، ثم يصعد الى الشواطىء الانجليزية وسط بحر من الالغام كان يهدد السفينة فى كل وقت .

كان مندى راقدا فى فراشه فى ذلك اليوم الغريب .

وكانت المعركة التى بدأت بينه وبين شبيطة فى تلك الليلة الأولى له على السفينة لم تنته بعد ... فلقد هزم مندى ، ولكنه صمم على الأخذ بالثأر ... وكلما حانت له الفرصة دخل معركة مريرة مع شبيطة ، وفى كل مرة ، كان يتلقى من الضربات ما يوجع جسده ... غير أنه كان يتحامل ، عنادا منه . ويقاوم الألم ويتظاهر بالعافية ... حتى كانت تلك المرة وكانت السفينة تقترب منذ الصباح من مضيق جبل طارق . حيث الموت يترصد السفن العابرة فى كل ثانية . فغير الالغام التى بثها الحلفاء فى هذا المضيق ، كانت هناك الغواصات الالمانية التى كانت تأتى بالعجائب — هكذا كان يقول الرجال — وتخترق أى حقل من حقول الالغام المزروعة فى البحر . لتصيب سفن الحلفاء فى مقتل ، ويبتلع البحر بين يوم وآخر عددا لا بأس به من جثث البحارة .

فى تلك المرة كان السبب شيئا عاديا لا يدفع للعراك . غير أن مندى انشب أظافره فى عنق شبيطة ، فما كان من الأخير الا أن لقنه درسا هذه

المرّة وهو يقول :

«علشان تحرم بقى ولا تقربش منى !»

وعندما صرخ الباشريس خليل فى شبيطة ان مافعله سيجازى عليه . وانهم فى حاجة الى الرجل ... صرخ شبيطة :

«طب ماتقول له يحل عنى ... حايبقى هو والالغام !»

ذلك أن الخوف من الالغام كان عارما ... وعندما جن الليل ... وسارت السفينة فوق سطح المياه فى ببطء وحذر ، كان مندى راقدا فى فراشه . عندما دوى فى الكون انفجار هز السفينة هزا عنيفا . وطار جسد مندى فى الهواء وسقط على الأرض . وتمايلت السفينة وانطلقت صفارة الانذار وسمع مندى وهو يغادر العنبر علوا ، صوت واحد من الرجال وهو يصرخ :

«طوربيد . انصبنا . المركب بتغرق !!»

• الصورة العاشرة •

كان السكون يسود الدنيا مع الظلام في تلك الليلة التي وقع فيها هذا الذي وقع ... كانت معركة مندى مع شبيطة لم يمض عليها سوى ساعات معدودات ، وكان مندى — لفرط احساسه بالمهانة — يقف في مؤخرة السفينة ، يرقب هذا الظلام الساكن ، وسطح المياه اللامع تحت أضواء النجوم ، ووجبل طارق يبدو شامخا في السماء مثل شبح مظلم ، تتألق فيه بين الحين والحين لمبة زرقاء أو ضوء جاء على سبيل الخطأ ... كان مندى في تلك اللحظات قد أحكم خطته ، وقرر ، أن يقتل شبيطة في لحظة ما ، أن يجره الى مشاجرة ويطعنه فيها بسكين وليكن بعد هذا ما يكون .

من الداخل بدأ شبح الباشريس خليل وهو ينفذ الى السطح ، توقف الجسد الربع بعيدا عن مندى لكنه كان من الواضح أنه ينظر اليه ، شعر مندى بظهور الباشريس فالتفت نحوه وتعرف عليه في الظلام ، توقف الباشريس وهو ينظر اليه طويلا فأحس هذا بوقع نظراته عليه ، ساد الصمت الا من صوت المياه تحتك بجسد السفينة المتقدم عبر البوغاز في بطء بالغ حتى ليخال المرء أنها ثابتة لا تتحرك . عاد شبح الباشريس يتقدم

من مندى في خطوات بطيئة حتى أصبح على بعد أمتار قليلة فعاد الى التوقف ... أحس مندى بالحرج والغیظ والضيق في نفس الوقت ... كانت هزيمته عصر ذلك اليوم أمام شبيطة هزيمة منكرة ، ظل يوجه اليه اللكمات والضربات ولم يستطع مندى أن يدافع عن نفسه ... جاء صوت الباشريس عبر سكون الليل هامسا :

«شبيطة طيب !»

كان مندى يعرف التعليمات جيدا ، ان عليه ، اذا ما كان واقفاً فوق السطح في الليل فلا بد له من الحديث همساً . قالوا له أن المياه موصل جيد للصوت فلم يفهم ، قال له رجل من البحارة أن المياه تنقل الصوت الى بعيد بعيد وكأنها سلك كهربائي فصدق وأن لم يقتنع أو يفهم ... قال الباشريس ما قال فلم يرد عليه مندى ... عاد الصمت يسود المكان لثوان لكن همس الباشريس قطعة وهو يقول :

«بلاش تحط رأسك برأسه !»

هم مندى بالحديث لكن لسانه التصق بسقف حلقه . نظر الى وجه الباشريس خليل في الظلام ولم يجر جوابا . تلملم في وقفته برهة ، ثم انطلق الى العنبر لايلوى على شيء ... لم يكن أمامه سوى أن يلقي بجسده فوق الفراش ويدفن رأسه في الوسادة وكانت الدماء تغلي في عروقه . ثم ... ثم دوى ذلك الانفجار الذي هز السفينة هزا عنيفا ... طار جسده في الهواء ولمح من خلال الباب الذي فتح بعنف السنة لهب كانت قد اشتعلت حيث لايدرى ... تعالت الصرخات والصيحات وتمايلت السفينة وانطلقت صفارة الانذار وكان مندى راقدًا فوق الأرض يحاول أن يخلص نفسه من دولاب خلعه الانفجار من الجدار ليلقى به عليه ، وسمع مندى في تلك اللحظات صياح مذعور :

«طوريد . انضربنا . المركب بتغرق !»

الصيحات والصرخات والدماء والأذرع المبتورة والعيون الجاحظة والأجساد الممزقة والأجداث الملقاة في الممر والسنة اللهب وقد نالت من كل السفينة ... ركض مع الراكضين وتزاحم مع المتزاحمين ، وجاءه صوت القبطان يصرخ :

« كل واحد في مكانه ... كل واحد في مكانه ! »

وصل مندبى الى مؤخرة السفينة وسمع صيحات القبطان تتبدد في الهواء ، ورأى أجساد البحارة وهي تقفز في دعر الى المياه ... وعاد صوت القبطان الى الصراخ :

« كل واحد في مكانه ، المركب لازم تطلع من البوغاز ! »

لم يفهم مندبى شيئا ، ولم ير في تلك اللحظات شيئا ، وهو ، حتى تلك اللحظات التي كان يقص فيها ما حدث ، لا يدري لم ترك الرجال يهربون الى المياه ، ولم اندفع بقوة غريبة يصعد سلما ، ويعدو متخطيا السنة لهب كانت تعترض طريقه ، ليصعد سلما آخر ، الى حيث غرفة القيادة :

« أيوه يا قبطان ! »

كان القبطان يقف في غرفة القيادة كالمجنون وهو يصيح في الميكروفون :

« كل واحد في مكانه . كل واحد في مكانه ! »

كان هذا الرجل اليونانى ذو الوجه الصلب والكلمة التي لاترد . والذي كان مندبى يظن فيه أنه بعيد المنال عما ينال البشر ، كان يقف صارخا مذعورا هو الآخر ... وكان ثمة رجل يقف خلف عجلة القيادة ... والقبطان يصرخ في ضابط صغير بدا عليه الهلع :

« كل السرعة للامام ... كل السرعة للامام ! »

وصرخ الضابط في بوق صغير مرددا أوامر القبطان الذي التفت نحو مندبى صارخا :

«انتى واقف هنا بتعمل ايه؟!»

ولم يجر مندى جوابا . كان فقط ، يشعر بسائل ساخن ينزلق من رأسه الى وجنته ... مد يده اليه ونظر فيها وعرف أنه كان ينزف دما ... لكن صوت القبطان لاحقه :

«روح البروه بسرعة . اجرى ساعد شبيطة!»

فى لمح البصر ، كومضة برق ، مرقت الفكرة فى ذهن مندى ، لكنه كان الآن ينطلق الى حيث مقدمة السفينة ، وكان شبيطة هناك !

رغم الظلام والسفينة التى مالت على جانبها فى عنف ، رغم الذعر والهلع والرعب ، فلقد جاءه صوت شبيطة واضح النبرات :

«تعالى هنا يامندى وخليك جنب جنزير الهلب ياجدع!»

جاءه صوت شبيطة وكأنه يد حانية حازمة تدفعه لكى يطيع ، ولقد

أطاع ...

اندفع نحو محبس الجنزير وقبض عليه بكلتا يديه ، وكان شبيطة يقفز الآن الى حيث امتد اللهب من الونش الهائل الكامن فى مقدمة السفينة ، صاح :

«لو جرى لى حاجة مالكشى دعوه بيه!»

دهش مندى . كان شبيطة يقفز مثل غوريللا هائلة من مكان الى مكان ... اختفى لثوان وعاد ومعه رجل آخر وكانا يحملان خرطوم للمياه ... سلطا الخرطوم نحو النيران ، واندفع شبيطة ليفتح صمام المياه لكن المياه لم تنفذ من الخرطوم

فجأة ... دوى انفجار آخر ...

وفى لمح البرق كانت مؤخرة السفينة تغوص فى المياه ...

دوى هذا الانفجار وأحس مندى أنه يطير فى الهواء ، بل ، يسبح

في الهواء ، شيء كالغيوبة هي ، كالإغماء . كاللاشيء هذا الذي أحس به مندى حتى أنه ترك نفسه في نشوة غريبة لهذا الاحساس الذي أيقظته منه برودة المياه الشديدة فشهب ... وتدفقت المياه الى حلقه ، فلقد كان الآن يغوص في لجة فائرة بالأمواج والانفجارات والخطر ... وتحت المياه . حيث كانت الدنيا تبدو وكأنها دنيا مسحورة . دوى انفجار ثالث ، لكنه مكتوم ، وومض ضوء باهر . تحولت بعده المياه الى شيطان لا اتجاه له . وأحس مندى أنه يغوص ويغوص . ولقد حاول . حاول أن يصعد الى أعلى دون جدوى ... كان صدره الآن يضيق بحثا عن نسمة هواء ، وكان جسده مثل قشة تتلاعب بها أمواج شيطانية ... وراح خدر غريب يتسلل الى عظامه . حاول . حاول مندى أن يفكر ، أن يكون . أن يرى . دون جدوى ، كان ... كان يضيع ، الخدر يتسلل الى كل جسده مسببا آلاما رهيبة ... آلاما مثل نصال حادة تمزق صدره ... لكنها ، رغم شدتها ، كانت محتملة ... ذلك أن شيئا آخر كان يحدث في هذا الوقت ، كان النوم يزحف اليه ، لم يكن نوما . لا ... هو يعرف النوم جيدا . كان ... كان لاوعيا يجتاح جسده كله . فأحس ، وهو يدوز مع المياه الى حيث شاءت أمواجها وتياراتها تحت السطح ، براحة غريبة تجتاحه .. راحة ترك بعدها نفسه ، فلا زمان ولامكان .

عندما فتح مندى عينيه كان المكان يبدو له شديد الغرابة ، كوخ خشبي ذو نوافذ زجاجية طلي زجاجها باللون الأزرق ، صوت الأمواج يأتي من بعيد . تحركت عيناه من السقف البادى أمام عينيه الى ماحوله فوجد أسرة مرصوفة بطول الكوخ الخشبي ، انجلى سمعه فأتته أنات رجال من هنا وهناك . رائحة اللحاء النفاذة تملأ الهواء ... حاول أن يحرك جسده فأحس بالآلام في ظهره الزمته السكون مرة أخرى ، أغمض عينيه محاولا أن يتذكر ماكان فلم يفلح ، اختلطت كل الذكريات واجتاحت رأسه دوامة

من الصور لم يميز من بينها شيئاً ... عندما فتح عينيه كان ثمة وجه أشقر في
ملابس بيضاء يطل عليه باسم :

«هل استيقظت؟!»

كانت تبسم ، وكانت تتحدث في انجليزية بسيطة تعود مندى أن
يسمع مثلها في الميناء من بحارة السفن وجنود الامبراطورية ...
«أنا فين؟!»

قالها بالعربية فابتسمت صاحبة الوجه الأشقر وأمسكت بيده
وراحت تقيس نبضه ... انتبه مندى بعد جهد واستجمع ذاكرته وسأل
بانجليزية ركيكة :

«أين أنا؟!»

«في جبل طارق!»

وتذكر كل شيء مع ذكر الاسم ... الانفجار والنيران والمياه
والسفينة الغارقة ... هم بالجلوس فانتشرت الآلام تمزق ظهره ... وضعت
صاحبة الوجه الأشقر يدها فوق كتفه وأعادته الى رقدته :
«لابد لك أن ترتاح!»

شرح السكون صوت غليظ ما ان سمعه مندى حتى انتفض !
«خليك نايم وبلاش معاندة!»

التفت نحو اليسار فوجد شبيطة يرقد في الفراش المجاور . اجتاحته
الحيرة وعيناه تلتقيان بعيني شبيطة ... كان شبيطة جالسا فوق حافة
الفراش المجاور . وكان يبتسم .

«ايه اللي حصل؟!»

« طوريد تانى؟! »

هم مندى بالسؤال مرة أخرى غير أن ذات الوجه الأشقر وضعت
يدها فوق شفثيه وتمتمت بكلمات ترجمها له شبيطة على الفور :

«بتقول لك ماتكلمش كثير!»

تدحرجت عينا مندى نحو شبيطة وكانت ابتسامته لاتزال هناك ...
كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها شبيطة مبتسما . ولم تكن
ابتسامته من ذلك النوع المرسوم على الشفاه ، بل كانت ابتسامة نابغة من
القلب . ابتسامة جذبت من شفتى مندى ابتسامة أخرى وكأنهما
يتصافحان .

مضت ذات الوجه الأشقر بعد أن تمتت بكلمات مدغومة ،
فانتقل شبيطة من مكانه الى فراش مندى :

«احمد ربنا ... انت كنت حاتروح فيها!»

هم مندى بالسؤال فأسكته شبيطة بحنان بدا شديد الغرابة :

«قلنا ماتنطقش ، الكلام مش كويس علشانك!»

«ايه اللى حصل؟!»

قالها مندى عنادا ... فرد شبيطة :

«أبدا . انت كنت حاتتوكل لولا ستر ربك!»

«ايه اللى حصل!»

«كلها كام يوم ونخرجوا من هنا ونقعدها لنا قول سنة ... محدش

عارف امتى حانقدروا نرجعوا؟!»

تذكر مندى زغدانة ، وكفر الزيات ... وهاهو عام كامل يكتنفه

الظلام من كل جانب مقدم عليه . فماذا هو فاعل؟!*

بعد عشرة أيام كان مندى يسير فى وضح النهار بجوار شبيطة فى

أحد شوارع المدينة التى بدت وكأنها تنام فى حضن الجبل فينام أهلها فى

حضانها . كان يملك بعض المال الذى صرفوه له وكان الحديث يدور حول

سفينة ستعبر بعد أسبوعين فى طريقها الى الشرق ...

«يعنى ايه؟!»
«يعنى يمكن تكون رايحة مصر!»
«طب مانطلعوا عليها!»
«ويمكن تكون رايحة حتة تانية!!» .

وهكذا راحت الأيام تمضى . جاءت السفينة ولم يصعدا اليها ، وغرقا مرة أخرى فى الانتظار ... كانا قد علما أن أحدا لم ينج من السفينة سوى قلة من الرجال الذين رحلوا الى قرية بعيدة لسبب لايدريه أحد . ولم يبق هنا فى المدينة سواهما معا .

وهكذا وجد مندى نفسه ، وجها لوجه ، مع شبيطة الذى قرر قتله منذ أسابيع قليلة فوق ظهر سفينة . ولكن شيئا آخر كان يربط بينهما الآن ، نوع غريب من الصداقة راحت تمتد ... حتى اذا كان ذات مساء ، عاد مندى الى الالحاح :

«انت ليه مش عاوز تقول لى أنا نجيت ازاي؟!»

«مانى قلت لك!!»

«ايوه عارف أنه ستر ربنا ونعم بالله ، لكن ازاي!»

أطال شبيطة النظر اليه باسماء وسأله :

«انت عاوز تعرف ايه?!»

«مين اللى طلعتنى من الميه . مين الى نجاني?!»

« أنا !! !»

• الصورة الحادية عشرة •

مرت الأيام وكان كل شيء يبدو هادئا وكأن الدنيا قد عادت الى النوم والاسترخاء من جديد ... طاب المقام لمندى وشيطة في هذا المعسكر الذى وضعوهما فيه في طرف المدينة ، قادوهما الى عنبر فسيح قد امتلأ بالأسرة وامتلات الأسرة برجال من كل انحاء العالم ... في البداية لم يكن عليهما سوى أن يناما ويستيقظا ويأكلا مايقدم لهما ، وان يقفا في طابور كى يحصلوا على الطعام أو الصابون أو بعض الملابس الصوفية التى كان لابد لهما من الحصول عليها بعد ما هجم الشتاء على المدينة باردا أشد مايكون البرد ... في تلك الليلة قص شيطة على مندى ماحدث في بساطة ... كان شيئا غريبا قد حدث منذ أن قال شيطة من بين شفثيه متمتا انه هو الذى انقذ مندى من الغرق ... كانت الذكريات تعود الى مندى تدريجيا بعدماشفى من جروحه ... كان آخر ماتذكره هو هذا الخدر الغريب الذى تسرب الى عظامه ولفه لفا فاستجاب له مستسلما ربما فى نشوة ... قال شيطة أنه لم يغادر السفينة الا بعد أن أيقن من شيئين ، الأول ان السفينة غارقة لا محالة ، اما الثانى ...

«ماهو آنى كنت نبص عليك من فوق ، العوامة فى أيدي والحبل

حوالين وسطى وانت غطست ولا قبيتش .. قلت مابدهاش .. اتشاهدت
ونطيت في الميه !»

لم يدهش مندى لأن شبيطة فعل مافعل ، لكن الذى أثار دهشته
حقا أنه تلا الشهادتين قبل أن يقفز الى المياه ... نظر مندى الى شبيطة في
دهشة بدت واضحة على ملامحه ، فتوقف هذا عن الحديث متسائلا :
«مالك يا جدد ؟!»

هم مندى بالحديث لكنه توقف ... فماذا يقول للرجل الذى لم يره
الا سكران أو مؤذيا ... وكيف يتلو من كان مثله الشهادتين وكيف يكون
متدينا من كان يفعل مافعله ويفعله شبيطة ... عاد هذا يسأله من جديد :
«فيه حاجة يامندى ؟!»

«لا أبدا ياريس شبيطة !..»

وعاد شبيطة الى الحديث من جديد ... كانا يجلسان وقتها على
مقهى يطل على المضيق ، يرتفع جبل طارق من خلفهما شامخا وكأنه جدار
أسطورى يحمى المدينة من غوائل الزمن ، وتترامى امامهما المياه حتى
الشاطئ الأفريقى بلونها الداكن وأمواجها الغاضبة ، وكانت موجة من البرد
قد هبت فنهضا الى الداخل ، وطلب شبيطة لنفسه كأسا من البراندى
يدفء به أوصاله ... وعرض على مندى مثله لكن هذا رفض :

«أصلى لا مؤاخذه عمرى مادفته !»

«ما انت حاتدوقه في يوم من الأيام»

هز مندى رأسه نفيا دون أن يدرى السبب ، جاء الجرسون
بالكأس فألقاها أمام شبيطة في لا مبالاة وكسل ، رفع شبيطة الكأس الى
فمه وأفرغها فيه ومسح شفثيه وراح يقص عليه قصة انقاذه :

«ماهو ماكانش بالساهل انى نلاقك في الميه دى !..»

كانت الأمواج عالية والسفينة تغوص فيها وتسحب من خلفها كل ما

عن السطح القريب ، قال شبيطة أنه غطس في المياه مرة ومرتين دون أن يعثر لمدى على أثر ، كان في سباق مع القدر فلقد كانت السفينة تغوص في المياه بسرعة ، امتلأ المضيق باللنشات والصفارات وقد جاءت لتنقذ الغرقى من بحارة السفينة . كان الذين قفزوا مبكرا قد استطاعوا الابتعاد عن منطقة الجذب الى الاعماق مع هبوط السفينة الى المياه ، وكان شبيطة يعلم أن لكل ثانية ثمنا ... ولحظة أن استسلم وهو يدور بعينه في الظلام بحثا عن مندى فوق سطح المياه ، لحظة أن فكر أن ينجو بجلده ويسبح مبتعدا ، لمح على بعد شيئا فوق السطح ، ضرب المياه بذراعيه في عنف حتى وصل الى المكان فلم يجد شيئا ، راح يضرب المياه بذراعيه على غير هدى ، عندما ارتطمت يده بجسد انسان ... لم يكن يعرف من هو ، غير أنه عندما جذب الذراع التي ارتطمت بيده ، صعدت رأس مندى الى السطح ... فصرخ شبيطة فرحا ... وراح يجذب مندى خلفه سابحا الى حيث كان أحد قوارب الانقاذ يلقي بشعاع كشاف أحاط بهما ...
قال شبيطة :

«لما طلعوننا على ظهر اللنش واحد منهم قال مفيش فايدة !»

«فى أيه ياريس شبيطة ؟»

«فيك ياجدع ... ما انت اصلك كنت بتخلص !»

وعلم مندى بعد ذلك كيف ظل بين الحياة والموت لأيام طويلة ، تذكر أنه كان كلما فتح عينيه وجد شبيطة يطل عليه مع وجه آخر قد يكون وجه طبيب أو ممرضة ... وكانت تريزا ، تلك الفتاة المألوية ، هي الممرضة التي كرسَت أياما طويلة لعلاج مندى بدأب ... هكذا قال شبيطة فسأله مندى عن السبب ... وعندما ابتسم شبيطة تلك الابتسامة الواسعة الغريبة ، لم يفهم مندى شيئا مما عنته هذه الابتسامة . ومالبت أن ساءل : «يعنى أيه ده بقى يا معلمى ؟!»

في تلك اللحظة بالذات ، تلك اللحظة التي مال فيها مندى على شبيطة في ود وناداه بلقب معلمى ، أحس كل من الرجلين أن ثمة جبلا من الجليد كان يفصلها عن بعضهما ، وقد ذاب ... فلقد ابتسم شبيطة ابتسامة أوسع وأرحب ، وبدا وجهه في تلك اللحظات جميلا وسيما قويا مما أدهش مندى أشد الدهشة ، وصفق شبيطة طالبا كأسا أخرى ، واعتدل ناظرا في حنان نحو مندى فاضطرب هذا لظراته الغريبة تلك ...

«انت عاوز تعرف ايه؟!»

«اشمعى لما جت سيرة تريزا ضحكت كده؟!»

«هو انت مش عارف؟!»

«ماكنتش سألتك!»

«البنيت وقعت ويا بنخت من وقع ولقى اللي يسمى عليه!»

كانت النشوة قد بلغت ذروتها وشبيطة يبتلع كأسه الثانية في هذا الصباح . فصاح معلنا عن سروره وشوقه الى بلده : يا مرسى يا ابو العباس ! ولم يكن ممكنا ، مع كل تيارات الفكر التي راحت تتلاطم في رأس مندى حول تريزا ، حاملة ذكريات ماضى من أيام كان يراها فيها في اليوم مرات ومرات ، ولم يكن ممكنا ، مع كل هذا الا أن يتذكر زغدانة ... فتنهد من أعماقه !

حملق فيه شبيطة هاتفا :

«دهدى ... دى الحكاية سلك واتوصل والكهربا مشيت والأشيا

معدن!»

غير ان مندى لم يرد ... فقط ، سرح يبصره الى مياه المضيق ، وقد اجتاحه الشوق اجتياحا .

في تلك اللحظات بالذات . كانت زغدانة تجمع نصبه الطعمية من سوق كفرالزيات ، كانت حكاية الطعمية التي طلبها أحمد الحمامصي ذات

يوم ، قد كبرت ، ولم يعد بيت الحمامصي وحده هو الذى يطلب طعمية من أم زغدانة والكومى ، بل انتشر الخبر فى شارع همازين هذا انتشار النار فى الهشيم ، وفوجئت أم زغدانة بطلبات الطعمية تنهال عليها من السكان ، فشمرت عن ساعديها . كما شمرت زغدانة عن ساعديها هى الأخرى ، وبعد أيام قليلة ، وبحسبه بسيطة كل البساطة ، اكتشفت العائلة انه من الممكن الاستغناء الآن عن الشاى وبيع الشاى ، وعلى الفور ، وذات ليلة قررت العائلة أن تنقل نشاطها من الشاى الى الطعمية ...

«تنزل بكره من النجمة ياكومى تشوف لك مطرح فى حته زحمة لاجل ماتحط النصبه !»
«والمونه ياوليه !»

«مالكش دعوة بالمونه دى على ... زغدانة تنزل تصحى عم صبحى العلاف وتجييب لنا منه كيلة فول ، والخضرة لك على اجيبها من النجمة من السوق ، وعلى النهار مايطلع حاتكون العجينة عندك وتكون انت ولعت البابور وقدحت الزيت واتوكلت على الله !»

هكذا نشطت العائلة نشاطا شديدا ، ونهض الكومى الى الصفائح الصغيرة يعدل منها لتناسب عدة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها ، وانطلقت زغدانة تبحث عن بيت عم صبحى العلاف فى ظلام الشوارع المضاءة بالنور الأزرق ... راحت تتمم آيات من القرآن الكريم خوفا من العفاريت والغارات ... كان الطريق الى بيت العلاف يخترق سوق كفر الزيات القائمة فى الساحة خلف بيت الحمامصي ، كانت العربات والنصبات تبدو بها فى الظلام مثل اشباح مخيفة وكان قلبها يدق ولسانها يتمم آيات من القرآن ، حتى اذا اخترقت السوق الصامتة كصمت القبور وهمت بالانحناء الى شارع جانبي حتى دوت فى سماء المدينة ، صفارة الانذار التى وضعها رجال الحكومة منذ زمن فوق بيت الحمامصي بالذات .

ارتجفت زغدانة وهي تنظر الى السماء متسمعة الى ازيز الطائرات
الالمانية ذات الصوت المتقطع ، ومنذ أيام مر عليهم رجال الحكومة ليصرفوا
لكل واحد منهم « كإمة » تحميه من الغازات السامة ، قالوا لهم أن عليهم أن
يرتدوها عند اطلاق صفارة الانذار لأن الالمان يلقون قنابل تنشر السم في
الهواء فتبيد العالم ...

التصقت زغدانة بالحائط وقد انتابها الرعب . غاصت قدمها في
طين الطريق وانزلت مع ارتكان جسدها الى الحائط ... سمعت عن يمينها
صوت قدمين تخوضان في الطين وتقتربان منها .

دق قلبها بعنف اكبر فماذا لو كان صاحب القدمين واحدا من
رجال الامبراطورية المعسكرين على الشاطئء الثانى من النيل ، والذين اذا ما
نزلوا الى المدينة عاثوا فيها فسادا وتحديث بأفعالهم أهل البلدة لأيام حتى
يسمعوا عن حادثة جديدة ... غير أن زغدانة كانت تستعد ، كلما
اقتربت الاقدام ، لمعركة كانت تعلم مسبقا أنها معركة خاسرة ، ولكن ...
ما أن أصبح الشبح يقف على بعد خطوات منها حتى توقف ، وجاء صوت
خافت واضح :

«مين ؟!»

كان الصوت مألوفا لزغدانة . كانت تعرف صاحبة لكنها لم تتعرف
عليه وسط دوامات الخوف التى اكتسحت كل جسدها ونفسها
وروحها ... عاد الصوت يتساءل بصوت أشد وضوحا :

«مين اللى واقف هناك ؟!»

وكان لابد لزغدانة أن ترد فردت :

«أنا زغدانة !»

اندفع الشبح نحوها فى لهفة وبان صوته ووقع وجهه فى دائرة ضوء
خافت لايدرى أحد من أين جاء فاذا به أحمد الحمامصى :

«واقفه كده ليه يازغدانة!»

حكايات كثيرة تلك التي سمعتها عن أحمد الحمامصي الذي ورث مالا وتجارة ، والذي يعيش مع أمه وأخواته البنات وهو أصغرهن سنا وان كان اعلاهن مقاما فهو رجل البيت ، حكايات عن بنات أجريج — أى يونانيات — أحبينه وأحبهن ولولا أن رفضت أمه بإصرار لكان زوجا لواحدة منهن الآن ... رغم غناه الفاحش ، وملابسه الفاخرة ، ووجهه الوسيم ... الا ان شيئا ما كانت تنطق به عيناه ، شيئا لم تره زغدانة من قبل وأن كانت أحسته بوضوح :

«ايه اللي جابك هنا يازغدانة؟!»

«كنت رايحة نشري كيلة فول من عند عم صبحى!»

«وحد يشتري فول في وقت زى ده؟!»

«أصل احنا لازم ننصب النصبه بكرة من النجمة ولا عندناش فول

كفاية!»

«انتوا حاشتغلوا في الطعمية وتسيبوا الشاي؟!»

«آهو كله أكل عيش ياسى أحمد أفندى!»

«طب تعالى!»

قالها بثقة شديدة وهو يتقدم زغدانة لتعود فتسير من خلفه مخترقا السوق بأشباحه وسكونه وعرباته المغطاة ... انزلقت قدمها في كتله طين كانت تتوسط الطريق فسقطت على يديها وتوقف أحمد ناظرا اليها وعلى شفثيه ابتسامة لم ترها زغدانة فلقد كانت مشغولة في اقالة نفسها ، سبت الطين والحرب والأيام السوداء التي قذفت بهم من مدينتهم وحياتهم ... حاولت أن تخرج قدميها من الطين غير أنها كادت تفقد توازنها مرة أخرى . عاد اليها أحمد في هدوء ، وأمسك ، دون أن تنتبه زغدانة ، بيدها في قوة ، وجاءها صوته أمرا :

«اتسدى على أيدى وخطى قوام!»

كأن الأمر قد صدر من فمه الى آلة فاطاعت ، واكتشفت أنه كان يمكنها أن تخطو وحدها فدهشت ، سارت الى جواره غير ان يده لم تترك يدها ، سارت الى جواره غير أن يده لم تترك يدها ، دهشت في البداية فلقد كانت أصابعه تقبض على أصابعها في عنف رقيق ، فكرت في ان تسحب يدها لكنها لم تستطع ، لا ، لم ترد ، عربدت الدهشة والثورة والضيق في صدرها فصاحت محتجة :

«طب احنا رايجين فين دلوقت؟!»

«رايجين نجيب فول!»

«منين؟!»

«من المخزن بتاعنا!»

مرا بيت الحمامسى ودق قلبها في عنف ، فماذا لو رآها أحد وقد أمسك أحمد بيدها بمثل هذه القوة ، وهذا التثبيت ... ورغم غضبها ودهشتها ، الا أن بريقا من سعادة كان يبدو بعيدا بعيدا في أعماق أعماقها ، بريقا يدفع بالنشوة الى كل أوصالها رغما عنها ، في آخر الدوار الهائل ، في الطرف المواجه للكنيسة التي تشمخ في منتصف شارع الجندى ، وقف أحمد وترك يدها وفتح باب المخزن ودلف الى الظلام في الداخل ... ظلت زغدانة تقف في الخارج لاتعرف ماذا تفعل ، كان الظلام في الخارج حالكا ، لكنه كان في الداخل دامسا ... ولم يكن صوت طائرة قد ظهر في سماء المدينة حتى الآن ، وكانت الكشافات ذات الأذرع المضيئة حتى عنان السماء قد كلت من البحث فسحبت أشعتها وانطفأت ... ودوت صفارة الأمان وأضيئت الأنوار في النوافذ خلف الزجاج الأزرق ... وجاءها صوت أحمد من الداخل :

«زغدانة!»

كان النور قد أعاد اليها بعضاً من شجاعتها فتقدمت نحو باب

المخزن :

«نعم ياسى أحمد أفندى!»

«تعالى شيلي الشوال ده!»

عندما اقتربت ، كان وجه احمد يتصبب عرقا وقد حمل الجوال الممتلىء حتى حافته بالقول المدشوش ، وبدت زغدانة كفتاه ساذجة لاتفهم شيئاً :

«ايه ده ياسى أحمد افندى؟!»

«القول!»

«بس دانا عاوزه كيلة!»

«واذا كان شوال!»

«ماهو أصل ال... ..»

«حاحد ثمنه كل يوم الصبح ، تفضلى تظطرينى طعمية لحد ثمنه

مايخلص!»

بدا لها الامر كحلم بعيد عن التصديق ، أن هذا الجوال يعتبر بالنسبة اليهم رأسمال ما حلموا يوماً بأن يبدأوا حياتهم به ، اندفعت نحو الجوال لتحمله فتعثرت قدمها وسقطت يديها فوق الجوال الذى كان أحمد يمسكه ، كان رأسها الآن امام صدره تماماً فهبت على وجهها نسمة دافئة معطرة بعرق الشاب الذى كان ينظر اليها باسمها . رفعت اليه عينين زائغتين لاتدرى سبباً لزيغهما هذا ، وجاءت كلماتها متقطعة مهلهلة ... قالت :

«ممكن تشيلنى اسم الله على مقامك!»

فى لمح البصر ، كان أحمد يرفع الجوال ليضعه فوق رأس زغدانة التى ما إن استقر الحمل فوقها حتى انطلقت نحو الباب فى سعادة غامرة وهى تهتف :

«روح يا شيخ .. ربنا يجعل لك في كل خطوة سلامة!»
«زغدانة!»

كانت عند الباب فتوقفت . استدارت ناظرة اليه دون رد :
تقدم منها أحمد في هدوء ، قال :
«مش عاز حد يعرف انكم أخذتم الفول من هنا!»
«طب أقول لابويا وأمي أيه!؟»
«قولى لهم .. بس حرصهم!»
«حاضر ياسى أحمد أفندى ... حاضر!»

انطلقت زغدانة من مخزن الحبوب لاتلوى على شيء ، تاركة وراءها
ذلك الشاب الذى ظل مسمرًا فى مكانه لدقائق ، وعيناه ساهمتان ، وقلبه
يدق بعنف ، لكن عقله كان يعمل بسرعة شديدة .

فى ذلك الوقت بالتحديد ، كان شبيطة قد أخذ مندى الى تريزا ،
وفى ذلك المقهى المنزوى فى أحد أركان شارع كان يقع على سفح الجبل
ويصعد ، جلس مندى مع تريزا وهى ليست فى ملابس التمريض فلم يكذب
يتعرف عليها . كانت تبسّم . وكان هو يبتسم . وقال شبيطة :
«تريزا ... انت بتكلمى عربى زيك زى نص الملاطوه ، ماتلعبيش
على الواد!»

ضحك الثلاثة ... ونهض شبيطة وهو ينظر فى ساعته مخاطبا
مندى :

«ما تنساش نفسك والا قفلوا عليك الباب وتبات فى الشارع!» .

سمع مندى مقاله شبيطة لكنه لم يسمعه . فلقد كانت نظرات تريزا

الآن تمتص كل خلية في جسده ، وكانت يدها تمتدان عبر المائدة دون ارادة
منه . ليمسك بيديها ، فاذا حمرة الخجل تكتسح وجهها المستدير الهادىء
الجمال ..

وعندما نطق أخيرا قائلا : «ازيك ياتريزا!؟» جاء صوته
ضائعا مبدا وجف حلقه ...
وقبل أن ترد عليه . أيقن مندى ان ثمة شيئا جديداً سوف يحدث في
حياته !

• الصورة الثانية عشرة •

لو أن مندى حاول أن يتذكر ما حدث في تلك الأيام بدقة ، فلن يستطيع ، ذلك أن كل شيء اختلط في ذهنه اختلاطا شديداً ، كانت اقامته في ذلك المعسكر الذى يضم العشرات من جنسيات مختلفة ، قد أضافت اليه الكثير مما لم يحلم يوماً بأن يراه ، حتى وهو يفكر ، جالسا عند قمة رصيف الثورس مطلا على المياه المتلاطمة تحت أقدامه في ميناء الاسكندرية ، لم يطف بخياله أنه سوف يعيش حياة كتلك التى عاشها في جبل طارق ، تداخلت اللهجات واللغات في ذهنه تداخلا شديدا ، واصطنع الرجال الذين جاءوا من بلاد متفرقة بعيدة لأنفسهم لغة خاصة هى خليط من عدد لا بأس به من اللغات الأفريقية والآسيوية والأوربية ، كان هذا وحده كافيا لأن يشعر مندى بالدوار ، وكان كافيا لأن يجعل من شبيطة ، الذى أصبح الآن صديقه ورفيقه ، ملكا في مملكة عرف الرجل كيف يسوس أموره فيها ..

غير أن هذا كله ، وأن كان قد أضاف الى مندى الكثير مما أفاده بعده ذلك في حياته ، إلا أن ما حدث له مع تريزا ، كان أكبر وأعمق تأثيرا .

ففى تلك الليلة الأولى التى تركهما فيها شبيطة وحدهما ، وجد مندى نفسه أمام لغز شديد الغموض ... كانت تريزا «مالطية» جاءت الى جبل طارق مع احدى البعثات الانجليزية التى علمتها التمريض ... كانت فتاة من ذلك النوع الصامت الذى تتحدث عيناه بأكثر مما يتحدث لسانه ، وعندما سأها شبيطة إن كانت تحب مندى ، لم ترد ، وإنما ردت عينها ببريق كان هو الذى اختطف قلب مندى الذى راح يدق فى تلك اللحظة بالذات ، بحب زغدانة البعيدة عنه ... وعندما امتدت يده لتلامس يدها ، سارعت هذه الى يده لتحيطها بكلتا يديها ... وبدأ الأمر لمندى ، مع بساطته المتناهية ، وكأنه ذرورة مايمكن أن يحدث فى هذا الكون ... فتبدد تماما !!

ولم يكن مندى ليستطيع أن يتأخر عن العاشرة مساء ... هذه أوامر المعسكر الذى يعيش فيه ، وعندما عاد الى فراشه ، كان شبيطة هناك ، يرقد على الفراش المجاور مفتوح العينين باسم الشفاه ، يدخن ... وكان واضحا تماما أنه فى انتظار مندى .

«ايه اللى حصل يا جدع !؟»

هكذا تتم شبيطة متسائلا وهو يحملق فى مندى الذى جلس على حافة فراشه ساهما كالمأخوذ ... انتظر شبيطة لثوان أن يرد عليه مندى دون جدوى .

«مالك يا جدع !؟»

«هه !؟»

«ايه اللى بيك !؟»

«سلامتك ياريس شبيطة !»

«سلامتك انت يابن أبويا .. ايه العبارة !»

ولكن عبثا .. لم يكن فى استطاعة مندى أن يقول شيئا ، أو أن

يعبر عما كان يدور في صدره من أحاسيس .. كان صعبا ، صعبا ، صعبا .

«مندى ... ايه عبارتك بالضبط كده قول لى؟!»
كان شبيطة الآن يهز مندى هزا . فأفاق هذا مما به وابتسم ..
«ايه اللي بيك يامندى?!»

كان القلق قد بدا يستبد بشبيطة ... ورد عليه مندى :
«ولاحاجة!»

«أمال مالك؟»

«مش عارف!»

«طب أحكى!»

جاءت الكلمات الأخيرة أمرا صارما وقد اعتدل شبيطة امام مندى وبدأ عليه القلق واضحا ... أكثر ما كان يقلقه ، ابتسامة مندى الواهنة هذه ، ابتسامة كانت تنبثق من شفيتين شاحبتين ، ونظرة كانت تسيل من عيني الفتى كالدموع .

«أحكى أقول ايه يامعلمى?!»

«تقول اللي حصل بالضبط!»

«اللي حصل?!»

بدا على شبيطة أنه يفقد أعصابه لسبب لم يدره مندى ... صاح فجأة فاهتر العنبر لزثيره :

«البت دى شربتك حاجة?!»

وصاح رجل من آخر العنبر وهو يسب ويلعن طالبا الهدوء طلبا للنوم ... ولم يلق اليه شبيطة بالا ، بل راح يلح على الفتى :

«قول يامندى .. قول ياجدع!»

وقفز الرجل من آخر العنبر مندفعاً نحو شبيطة والشرر يتطاير من

عينيه ، التفت مندى نحو الرجل وعرف فيه روى ، ذلك الايطالى السمج الذى لم يترك رجلا فى المعسكر دون أن يشتبك معه ... كان من ذلك النوع من الرجال الذين توحى وجوههم بالشر دون أن يقدم على شيء ، أو يصنع شيئا ، فاحت رائحة الخمر من فمه وهو يواجه شبيطة بسيل من السباب بتلك اللغة ذات الموسيقى التى كان يطرب لها مندى ، نظر شبيطة الى روى وقال بالايطالية مامعناه أن عد الى فراشك ، لكن روى عاد يصيح بأنه يريد أن ينام ، وأن صوت شبيطة يزعجه ، وتمالك شبيطة نفسه وعاد يطلب من روى أن يعود الى فراشة ، لم ينتبه مندى الى أنه كان يتتبع الحوار بين الرجلين دون أن يفهم مما كانا يقولان كلمة . لكنه كان يفهم كل كلمة ... فى لحظة ضاق فيها صدر شبيطة بروى نهض اليه ... ونهض كل من فى العنبر جالسين فى أسرتهم ، أو مندفعين نحو الرجلين اللذين كانا يزاران فى وجهى بعضهما بعنف راح يتصاعد لحظة بعد الأخرى ... ولقد كان شبيطة ، رغم مرور الأيام ، حريصا على الا يدخل مع أحد فى معركة ، كان يعرف ، بحسه وتجربته ، أنه أفريقى ، وأن هؤلاء الذين أصبحوا نصف أسرى ، أو نصف مسلحين ، مفضلين عند حراس المعسكر من جنود الامبراطورية ، غير أنه فى تلك الليلة ، كان لابد له وأن يحسم الأمر ، وعندما رفع روى قبضته فى الهواء رافعا آياها نحو وجه شبيطة فى لكمة كادت ، لو أنها اصابت وجهه ، تهشم عظام هذا الوجه . عندما فعل روى هذا ، حدث ما كان الرجل يتجنبه طوال الأسابيع التى انقضت ... وماهى الا ثوان مضت فى لمح البصر ، حتى كان العنبر قد تحول الى حلبة للملاكمة والمصارعة معا ، واستدار الرجال من حولهما فى دائرة وراحوا يتصايحون وقد انقسموا الى فريقين ، فريق الأفارقة والآسيويين يشجع شبيطة ، وفريق الأوربيين يشجع روى ... وكان مندى يقف وسط هذا الجمع الصارخ ، ضائع النفس مبدد الوجدان..

كانت المعركة عنيفة كل العنف ، سالت دماء الرجلين ولم يكف أحدهما عن القتال ، غير أن الكفة كانت ، تدريجيا ، ماترجح انتصار شبيطة ، كان روى هائجا كثور ، لم يكن هياجه بسبب ما حدث بقدر ما كان بسبب احساسه بالتفوق على هذا المصري ، الذى جرؤ ، ورفع فى وجهه يدا ..

وعندما صاح روى اثر لكمة هائلة أصابت وجهه : «أيها القدر !» ، كان شبيطة قد وصل الى ذروة اللاعودة ، فانهالت على روى الضربات من كل اتجاه ، وفى كل موضع لجسد ... وعندما وصل ضجيج الرجال الى الحراس خارج العنبر ، وعندما اقتحم فريق منهم باب العنبر حاملين البنادق المشرعة صارخين بالكف عن العراك ... كان روى يسقط فوق الأرض مكوما فاقد الوعي سائل الدم !

بات مندى وحده فى تلك الليلة حزينا . وكان فراش شبيطة بجواره خاليا بعد أن أخذه الجنود الى سجن المعسكر . وبعد أن حملوا روى الى المستشفى فاقد الوعي . وبعد أن ساد السكون العنبر وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل . ظل مندى مفتوح العينين ، تختلط الأحداث فى ذهنه اختلاطا شديدا ، وتتداخل حتى المرثيات امام عينه ، وها هو الرئيس شبيطة ، الرجل الذى أقسم ذات يوم أن يقتله كما قتل ثلاثة من جنود الامبراطورية من قبل ، هاهو يدخل السجن من أجله !؟
فما الذى حدث ... وما الذى جعل مندى يصل الى ما وصل اليه !؟

لم يكن أمامه بد من العودة الى الورااء ساعات ليعرف فقط ، ما الذى وقع !؟

قالت تريزا وكل منهما يحتضن يد الآخر فى شغف :

«لازم نقوم من هنا!»

كانت لهجتها العربية عرجاء . لكنها كانت مفهومة ... ولقد تعود مندى على تلك اللهجات التي كانت تملأ شوارع الاسكندرية وحواريها ، وكان يكفي لأى أجنبي أن يتحدث اليه بالعربية في الاسكندرية ، أن يعرف على الفور أن كان ايطاليا أم المانيا أم فرنسا أم انجلترا أم أمريكا أم .. أم .. أم أى جنسية من تلك الجنسيات التي كانت تعيش وسطهم وكأنهم أصحاب البلد ... لم ير مندى في لهجتها اذن غرابة ، بل العكس كان صحيحا ، فلقد ذكرته تلك اللهجة بصوت الخواجة برطومط الصراف المالطى الشديد الغنى ذى المعطف البالى الذى لم يغيره منذ سنوات ، والذى كان يجلس الى مائدته الصغيرة أمام باب ستة ، يتاجر فى العملات ، ويقرض البعض بفوائد كانت مثار حديث كل من كانت له حاجة .

نهض مندى مع تريزا . سار بجوارها وقد بزغت زغدانة فى وجدانه ... كان يسير معها على شاطئ المضييق فتذكر انطلاق زغدانة فوق رصيف النورس بصينية الشاي والأكواب المليئة والملعقة الصدئة وصوتها المقتحم وعينيها الخضراوين فى لون البرسيم ... وعندما أحس بذراع تريزا تحيط خصره فى الشارع ارتجف ، نظر يمنه ، ونظر يسره ، ونظر الى الخلف وكان الطريق المضاء بالمصابيح الزرقاء ، مليئا بالناس الذين يروحون ويحيئون ، فهم أن ينبه تريزا الى أن ماتفعله قد يثير الناس ويغضبهم ، غير أنه فوجيء ، قبل أن ينطق ، برأسها ينام ، وهما سائران ، فوق صدره .

كانت جميلة ، وكان جمالها من ذلك النوع الشاحب الهادى الذى يتسلل فى نعومة الى القلب والوجدان فلا يشعر المرء الا بكيانه كله وقد احتله احساس غامض مخيف بالرغبة ... سارت به وسار بها الى حيث لايدرى ... انعطفت فى شارع جانبي ثم توقفت فى بقعة مظلمة . نظر

مندى الى وجهها المتطلع اليه من أسفل ، وكانت شفثاها ترتجفان بالرغبة ،
دق قلبه بعنف بالغ فابتلع لعابه ، اجتاحته الرغبة فى أن يفترس شفثيها
افتراسا ، لكن ثمة وهنا غريبا كان يتسلل الى عظامه ، رفعت اليه وجهها ،
ولامست شفثاها شفثيه ، فاستسلم دون ارادة ودون تفكير .

عندما أفاق مندى مما كان فيه ، وجد نفسه فى غرفة صغيرة ، فى
بيت صغير يطل على حارة كانت تنحدر الى حيث شاطئ المضيقي ،
وتتعرج مختفية وسط ركام البيوت التى ملأتها ، والتى كانت تصعد فوق
سفح الجبل الى حيث لايدرى ..

هم مندى بأن يسألها أين هما ... فتذكر أنه دخل البيت من بابه ،
وكان الأب يجلس أمام مدفأة صغيرة كانت ترسل نارا زرقاء اللون ، وكان
يميل بنظارته الطبية العتيقة فوق جريدة وقد استغرق فى القراءة فيها ، بينما
كانت الأم ، تجلس قبالة ، أمام المدفأة وهى تعبت بأبرتين طويلتين وكرة من
الخيط هائلة ، وكانت تصنع صديريا من الصوف لأحد لايدريه ... وقف
أمامهما معقود اللسان ، واستمع الى الحوار الذى دار بينهما وبين تريزا ،
ورآهما وهما يعودان الى ماكانا فيه وكان الأمر لاينخصهما من قريب أو من
بعيد ، وتبع تريزا الى حيث السلم الضيق الصغير . صعدت . فصعد
وراءها . فتحت الباب ، فدلف خلفها ، أغلقت الباب وارتمت فى
أحضانها .

فى تلك اللحظة بالذات . تذكر مندى زغدانة . دفعها بعيدا عنه .

قال :

«تريزا !»

«حبيبي !»

قالتا بانجليزية سليمة ... وعاد مندى يقول :

«آنى لازم نقول لك على حاجة !»

عادت تهمس بالانجليزية وهي تأخذه الى مقعد قديم بجوار الفراش

الصغير :

«أحبك .. أنا أحبك!»

«وأنا متجوز!»

لحظتها توقف كل شيء . وجمدت الفتاة في مكانها وهي تنظر نحوه . لا في غضب كما توقع . وإنما نظرت اليه تلك النظرة الغريبة التي يصعب على الرجل ، مهما كانت خبرته ، أن يعرف لها معنى أو تفسيراً .
أحس مندى بالحرج فنهض قائلاً في أسف :
«آنى اتجوزت قبل مانسب البلد بكام يوم!»

راحت تريزا تنظر اليه فهرب من نظراتها ... كان ثمة مصباح صغير قد وضع فوق مائدة في ركن الغرفة ، وكان المصباح يرسل ذلك الضوء الأزرق الخافت ... وهبت نسمة من خارج النافذة فتلاعبت استارها البيضاء ، وبدا له الطريق من خلال النافذة خالياً من الناس ، ومن بعيد كانت أمواج المضيق ترسل أنغامها الرتيبة ... وعندما تحركت تريزا نحوه . كانت تبدو وكأنها قررت أمراً ، فلقد اقتربت منه حتى التصقت به ، أحاطته بذراعيها وهمست متسائلة :

«وانت حاترج مصر تانى؟!»

ولم يرد ، وفكر ، قدح زناد فكره ، لكنه أبداً لم يجد أجابة ، فهل ... هل سيعود الى مصر من جديد حقا؟! ..
غير أنه قبل أن يفتح شفثيه ، كانت قد تعلقت بعنقه ، وراحت تمطره بالقبلات !

كانت الساعة الثالثة صباحاً عندما فتح باب العنبر ، وأضيئت الأنوار ، ودقت أحذية الجنود الصارمة فوق أرض العنبر ، حتى وصلت الى فراش مندى فتوقفت .

استيقظ في العنبر عدد من الرجال . هب البعض منهم جالسا .
واكتفى البعض بأن فتح عينيه وراح يرقب ما يدور ... وقال أحد الجنود في
صرامة وغضب :

«انت البحار مندى؟!»

«نعم!»

في احتقار بالغ ، لوح الجندي بابهامه قائلا :

«اذن . اجمع كل حاجياتك وتعالى معنا!»

ولقد فعل مندى ما أمره به ... غير أنه لم يكن يدري ، أن حياته

اليوم قد انحرفت في مسارها انحرافا آخر . وأنه سوف يبيت ليلته في

السجن .

• الصورة الثالثة عشر •

مر يومان قبل أن يفتح باب الزنزانة على شبيطة ومندى ، مر يومان لم يقدم لكليهما سوى وجبة واحدة كل يوم . وكان شبيطة هادئاً طوال الوقت ، أما مندى ، فلم يكن يعرف سر ماحدث ، كما أنه لم يكن يعرف رغم ماحدث ، سر ذلك الهدوء الذى حل على شبيطة فألزمه الصمت لساعات .

في الليلة التالية اعتدل شبيطة مستديراً نحو مندى وسأله :

«لسه مش عاوز تقول لى ايه اللى حصل؟!»

ولم يكن أمام مندى سوى أن يستجيب للرجل فيقص عليه ماحدث ، كان أكثر ماأدهشه وجود الأب والأم في البيت . وكان هذا مع ماكان كامناً في نفسه من احساس بالذنب تجاه زغدانة ، هو سر سهومه في تلك الليلة ... استمع شبيطة بانتباه بالغ لكل ماقال ... حتى اذا ماانتهى مندى من روايته ، زام شبيطة وانقلب على جانبه الأيسر معطياً ظهره لمندى دون كلمة .

مضت دقائق بطيئة سادها الصمت ، وكان مندى مازال جالساً مفعماً بالذكريات . في قلبه حنين غريب يجذبه الى تريزا التى لا بد هى الآن في انتظاره ، وكان على موعد معها في اليوم التالى ، سأل شبيطة فجأة :

«رئيس شبيطة!»

زام شبيطة دون أن يتحرك . وعاد مندى الى الحديث :

الا انت كنت خايف من أيه؟!«

ساد الصمت وكان يبدو على شبيطة أنه يفكر بعمق ... لكنه مالبت أن استدار نحو مندى ، ثم مالبت أن نهض جالسا مشعلا سيجارة سارحا بعينه الى بعيد . وعندما جاء صوته كان جافا خاليا من كل احساس :

«كنت خايف عليك يامندى!»

«من ايه؟!«

«الا البت تطلع من اياهم وتديك حاجة كده والا كده!»

لم يفهم مندى شيئا . قال :

«بس انت عارف انى مابنشرش يامعلمى!»

«بكره تشرب!»

«بس...»

هب شبيطة واقفا وخطا خطوة فأصبح بجوار حائط الزنزانة الرطب :

«مش الشرب اللي كنت خايف عليك منه!»

«أمال ايه؟!«

نظر مندى طويلا نحو شبيطة وكان هذا قد ارتكن الى الحائط وراح

يدخن فى هدوء ، لكنه أخيرا اعتدل فى وقفته وهو يقول :

«خفت الا يدوك حباية وبعدها ياخدوك ورا الشمس!»

ازدادت دهشة مندى فنهض الى شبيطة يريد ان يعرف . فجلس

هذا رافعا رأسه اليه :

«أصل البلاد دى فيها حرب ياجدع!»

«مانيش فاهم!»

فى عصبية قال شبيطة :

«آنى لما لقيت البنت غاويك فرحت ... مانعرفش ليه ... ومن يوم
ما اتعاركنا على المركب وان بنحس انك زى أخويا الصغير ، لما شفت اللي
شفته قلبى انشرح ، قلت بدل مانت متلقح آهو آديك تتسلى ،
لكن ... لكن بعد ما سبتك معاها ، كنت ناوى نرجع وناخذك تانى ،
خفت عليك من الحباية !»

«آنى حباية يامعلمى !»

خفت صوت شبيطة وهو يقول :

«اصل الألمان لهم رجاله هنا فى الجبل !»

«الألمان !؟!»

«والطلاينة !»

«والانجليز مش بيمسكوهم ليه !؟!»

«لأنهم أسبان ومن ولاد البلد !»

ثم أضاف شبيطة فى عصبية :

«ولأنهم مش عارفينهم كان !»

«طب أيه اللي بيحصل !؟!»

«بيدوا للنفر من دول حباية مع كاس ، مع شوية شاي ، فى

الأكل ، أيها حاجة ... بعدها النفر من دول ، قول عليه يارحمن يارحيم !»

«ازاى !؟!»

«الا ازاى .. هو انت لسه بكر يا جدع !»

علت حمرة الخجل وجه مندى ، وتذكر ، أنه لأول مرة يعرف طعم

المرأة فيها كان مع تريزا ... تلعثم ولم يرد غير أن شبيطة عاد فاسترسل فى

الحديث :

«أصل الحرب يا غالب يامغلوب ، ولأجل ماتغلب لازمن تعمل أيها

حاجة . أيها حاجة !»

«بيحصل ايه لما النفر من دول بياخذ حباية !؟!»

«مخه بيطير ، مايبقاش عارف حاجتن تخلق في الدنيا الا البنت
دى ... يديها اللي هي عاوزاه ، ويعمل كل اللي تقول له عليه !»
«ياااه»

«الامان ماخلوش حاجة ماعملوهاش ... وبعد البت ماتملك الواد
تمام ... تصبح تانى يوم الصبح ماتلقاهوش !»
«بيروح فين ؟!»

«مانى قلت لك . ورا الشمس !»
قفز شبيطة في عصبية نحو نافذة الزنزانة العالية . وقف تحتها ، أطل
منها مشيرا نحو الجبل الذى بدا في جوف الليل وكأنه وحش أسطورى :
«شايف الجبل ده ؟!»
«شفته !»

«لو خطيته حاتبقى في بلاد الأسبان عدل !»
«ودى فيها ايه ؟!»
«الأسبان يتحبوا الألمان يا جدع !»
«يعنى ايه ؟!»

«يعنى حاتلقى كام المانى مستنظرينك ، ياخدوك لأجل ماتشتغل في
السخرة لحد ربك ما يفتكر !»
«في بلاد الألمان !»
«في أيها داهية !»

«تبقى انت اتخانقت مع روى لأجل ماتحبسنى معاك هنا !»
«كنت فاكرك راجل وحاخش العركة معايا !»
«طب ازاي ؟!»

ابتسم شبيطة وقد أحس أنه انكشف :
«لكن آنى ماعتقتكش برضه . قلت لهم انى ماضربتوش
لوحدى !»

صرخ مندى :

«ايه؟!»

«لاجل ماتنحبس ولا تطلعش تانى!»

«بس البنية ماديتنيش حبوب!»

«مش يمكن تديك تانى مرة!»

«بس دى !»

توقفت الكلمات في حلق مندى أمام نظرات شبيطة الواثقة المحبة :

«ماتقدرش تقول يامندى . ماتقدرش تقول!»

وهوى مندى فوق الفراش ذاهلا . تحطم حلمه تماما . أحس بغصة

في حلقه . وظل طوال الليل مفتوح العينين ، بينما كان شبيطة يغط في النوم .

وعندما فتح باب الزنزاة في الصباح التالي ... وعندما نودى عليهما

وأمرأ بأن يتبعها الجنود ، تساءل مندى الى أين يأخذانهما .. فقال شبيطة
من بين أسنانه :

«المحكمة!»

كان الفناء خاليا تماما وقد أوغل الليل وازداد الظلام عندما سبح

صوت زغدانة متكسرا :

«بس آنى متجوزة ياسى أحمد أفندى!»

كان أحمد الحمامصى يقف قبالتها في ذلك الركن البعيد من الفناء ،

والذى يوصل الى السلم الصاعد الى الدور العلوى حيث تسكن العائلة

بأطفالها ونسائها ورجالها وشبابها ... ولولا الظلام الحالك لرأت زغدانة وجه

أحمد الحمامصى وقد شحب شحوبا عظيما ، غير أنها ، بحس الأنثى ، قد

استمعت الى أنفاسه المضطربة اللاهثة ... وعاد صوت زغدانة متكسرا من

جديد :

«تجاوزت قبل مانسب اسكندرية ونيجى على هنا!»

«آمال هو فين؟!»

«ركب البحر على باب الله!»

«حايرجع امتى?!»

«ياعالم!»

«مفيش عنه خبر!»

«كل اللي ينزل اسكندرية وكل اللي ييجى منها مايعرفش عنه

حاجة!»

ساد الصمت من جديد ، وضعفت ساقا زغدانة فاستندت الى الحائط ، فى الظلام سقطت دموعها لتغمر وجهها ، كان أكثر مايجيرها ويغضبها ويؤرقها ، هو هذا الضعف المخيف الذى تشعر به تجاه أحمد الحمامصى هذا الذى لم يتفوه بكلمة نائية أمامها ... ولم تلمس يده يدها ، ولم يفعل شيئا يغضب الله ... كسر الصمت صوت أحمد وكان يبدو أنه يتقدم منها فتراجعت حتى التصقت بالحائط :

«بتحبيه?!»

«مش جوزى!»

وهوى الصمت هذه المرة وكأنه أصبح بلا نهاية ... فاهت زغدانة أخيرا بكلمات متعثرة :

«مالك ياسى أحمد!»

تهد أحمد الحمامصى ، وبدا أنه يعتدل كى يمضى فى طريقه :

«أصل أنا كلمت والدتى لأجل ماتكلم أبوكى!»

«على أيه?!»

«عليكى يازغدانة ... عليكى!»

قال هذا وهو ينصرف متجها نحو السلم ، تلامس ذراعه بذراعها

نفوا في الظلام فارتجفت ، راحت تتسمع صوت أقدامه المتسللة وهي تصعد السلم في خفة . كادت تناديه فلم يطاوعها لسانها ، تذكرت مندى فإزداد هطول الدمع ليغرق وجهها سخينا ... هبطت بجسدها لتكوم في تلك البقعة النائبة من الفناء ، انها تحب مندى ، هذا لاشك فيه ، وهو .. هو الذى دفع مهرها ثلاثة رعوس لثلاثة رجال اغتصبوا عفتها ، وهو ... هو الذى غفر لها مالا ذنب لها فيه وما كان غيره ليفعل ... وهو ، هو الذى ركب البحر والهول في وقت كان جميع الرجال يهربون منه من أجل أن يوفر لها حياة وعشا يعيشان فيه ... هو ، هو مندى الذى كان ينظر اليها في صمت فيصيبها الدوار فوق رصيف النورس ، فما بالها الآن ، ضعيفة ضعيفة أمام شاب لم يقربها ، ولم يغازلها ، ولم يقل لها كلمة سوى أنه كان راغبا في الزواج منها !؟

شق السكون صوت المؤذن لصلاة الفجر ، وانتهت زغدانة وهي في جلستها وكان عليها أن تسرع بنقل النصبية الى السوق ... نهضت فأحست أن عظامها تتكسر تحت وطأة حركتها ... وفي مثل هذه الساعة من كل يوم كان عليها أن تحمل المائدة الصغيرة التي أخرجها أحمد الحمامصي من المخزن وأعطائها لها كي تصبح دعامة النصبية التي لم تعد الآن مقامة على الصفائح القديمة ... كان الحال قد أصبح غير الحال ... وكان الكومى قد وجد لنفسه مكانا في سوق وسط المدينة أمام الفرن الأفرنجى حيث يشتري الخواجات العيش الفينو ويشتريه الفلاحون كي يغمسوا به خبزهم المصنوع من الذرة ... وكانت النصبية قد أصبحت الآن شيئا له كيان ، ودخل الربح وفيرا الى جيب أبيها وأصبح زبائنه من أهل البلدة كثيرون بعد أن تفننت أمها في صنع عجينة الطعمية أو الفلافل كما كانوا يطلقون عليها ... وأصبح من الطبيعي أن تسمع أما تظل من نافذة أحد البيوت في حارة من حوارى كفر الزيات ، وهي تصيح في ابنها الذاهب الى السوق :

«تجيب الطعمية من عند الكومى ياوله!»

ومنذ الشروق كان الزبائن يتزاحمون حول الكومى وزغدانة وأصواتهم تتلاحق وتتشابك وتتصارع وتتعارك والكل يريد أن يأخذ نصيبه قبل الآخر ... كانت الدنيا فى تلك الأيام قد ابتسمت قليلا للعائلة المهاجرة ، والتي أصبحت محل حسد بقية المهاجرين ... وكان لابد للهمس من أن يستشرى وسط الجميع ، وكان لابد من القول بأن ماهبط على عائلة الكومى هبط من أحمد الحمامسى لغرض فى نفسه من زغدانة ، وكان الأب يعلم ، كما كانت الأم تعلم ، ولكن زغدانة لم تلق بالا الى ما كان يقال حتى كانت تلك الليلة التى خرجت فيها زغدانة من غرفتهم لشأن من شئونها فسمعت همسا يناديها ، وعرفت فى الهمس صوت أحمد الحمامسى الذى كان يقف فى هذا الركن الخفى البعيد ، وحتى وجدت نفسها تستجيب لندائه دون مقاومة ، وأن تقف معه ، وأن يحدث بينهما هذا الذى حدث !!

غير أن الحياة كان ولا بد أن تسير ، فسرعان ما استيقظت الأم وراحت تجهز العجينة بسرعة ، ونهض الأب . وحملت زغدانة المائدة فوق رأسها وقد وضعت فوق المائدة كل ماتستعمل من أوان فى صنع الطعمية ... غير أنها ، وهى فى الطريق الى السوق . سمعت أباهما يتمتم :

«احنا لازم نشترى عريية يد لأجل مانحط عليها النصبة!»

لم ترد زغدانة وظلت تسعى فى الطريق الموحد دون أن تنظر تحت قدميها فلقد كانت تعرف الطريق جيدا ، خبرت مرتفعاته ومنخفضاته فراحت تسعى ساهمة مفكرة فيما كان منذ ساعات فى ركن مظلم من فناء دامس الظلام ...

غير أنهما ما كادا يصلان الى السوق ، حتى روعهما مارأيا ... كان هناك عدد من جنود الامبراطورية محلحين بالبنادق الرشاشة ،

وسيارات مصفحة تغلق السوق من أوله حتى آخره ... وكان الباعة هناك بموائدهم وأوعيتهم ومشناتهم يقفون ذاهلين ... وكان الكل يسأل عن الخبر ... وكان الخبر غريبا :

«الكولونيل مش عاوز زحمة في سكتة!»

وكانت هذه الجملة بالذات ، هي الإشارة الخضراء ، لطريق آخر ، كان على زغدانة أن تسير فيه مرغمة !

● الصورة الرابعة عشر ●

بدأت البلدة في ذلك اليوم وكأنها في يوم الحشر ، كان شارع السوق هذا الذي أغلقه البوليس الحربى البريطانى في وجه الناس ، هو الشريان الذى يصل كل شوارع البلدة وحواريها ، الى كل شوارع البلدة وحواريها ... وكان شارع السوق هذا هو قلبها التجارى الذى يلتقى فيه كل بائع وشار ... وبينما انسد الشارع من ناحية المزلقان حيث الطريق آت من كل القرى المجاورة ، وتجمع هناك الفلاحون بأوزهم وبطهم وبهائمهم وقمحمهم ... انسد الشارع من الناحية الجنوبية بأهل البلدة الذين استيقظوا سعيا وراء رزقهم ، وأكل عيالهم ... وهناك ، وسط كل هؤلاء الناس الذين ازدحموا وتلاصقت أجسادهم واختلطت كلماتهم كانت زغدانة تقف مع أبيها وأمها التى كانت قد لحقت بهما تحمل عجينة الفلافل جاهزة للصنع .

ولأحد يدرى ما الذى حدث ، وكيف بدأ الأمر :

كان الناس يتكلمون ... كل الناس .

كان يتحدثون عن الكولونيل الذى لا يريد زحاما في الطريق الى المأمور ، وكان البعض يقولون أنه صديق الملك ، وقال آخرون انه زير نساء اليونانيين في المدينة ، وأنه يريد أن يثبت لحبيته أنه يستطيع التحكم في

لمدينة برجها ونسائها وعيائها ... وقال آخرون أن المأمور — هذا الحاكم الذى لا ترد له كلمة وبها به الكبير قبل الصغير ويعمل له الجميع ألف حساب — ليس سوى «شراية خرج» أمام الانجليز ... واحتدم الجدل بين اثنين من الرجال فصرخ أحدهم فجأة : «يحيى النحاس باشا !» ... وتردد الهتاف تلقائيا غير أن الصمت خيم على الجميع فجأة ... عندما ظهر المأمور من ناحية المركز ، وكان يركب حصانا ...

كان شارع السوق فى كفر الزيات يبدو خاليا فى تلك اللحظات الغربية ... فتحت الدكاكين ووقف أصحابها أمامها ينظرون هنا وهناك وليس هناك من بيع أو شراء ... وتجمع الناس فيما بعد الفرن الأفرنجى فى كتلة بشرية تسد عين الشمس ... وكان حصان المأمور يتهدى أمام عربة جيب صغيرة تسير بجوارها دراجة بخارية كان كل أهل البلدة يعرفونها جيدا ، فهى للسارجنت جون قائد البوليس الحربى الذى يشرب البيرة منذ الصباح حتى المساء ويطل على الناس بوجهه الأحمر القانى وعينيه الزرقاوين اللتين تنفشان على البشر كراهية وتعاليا لا يعرف أحد سببهما ... وعندما توقف المأمور أمام السارجنت بحصانه ، ترجل ... نزل من فوق حصانه ، وراح يتحدث الى الشاويش الانجليزى .

وقتها ... عم الصمت الجميع .

عم الصمت وساد السكون وتركزت آلاف العيون على الرجلين اللذين كانا يتحدثان معا ... ولكن

ولكن ... بينما كان المأمور الذى يضع على كتفيه تاجين لامعين يزغللان الأعين ويخيفان الناس من حضرة «الصباغ» ، أو سعادة البية المأمور ، كان الشاويش الانجليزى الذى يضع على ذراعه ثلاثة أشرطة بيضاء ، يقف مائلا فى استخفاف ، سيجارته بين شفثيه ، واحدى قدميه

فوق سلم السيارة الجيب ...

ولا أحد يدرى ما الذى حدث ... غير أن الناس رأَت بعيونهم المتوترة النظرات أن الحديث كان يحدث ، وأن المأمور كان يلوح بيده ، وأن السارجنت كان يعتدل فى وقفته متحديا ، وأنه ، امعانا فى التحدى قد ألقى بالسيجارة التى بين شفتيه الى الأرض ، ووضع يديه فى خاصرته وهو يزعق فى وجه المأمور مشيرا الى حيث المركز كمن يطرده ...

ولأحد يدرى أيضا من صاحب الصوت الذى ارتفع صارخا لبسبح فوق رعوس الجميع :
«تحيا مصر !»

ومرة أخرى تردد الهتاف تلقائيا ، رددته هذه المرة ألوف الأفواه ، والتفت المأمور الى حيث كان الناس قد تحولوا الى كتلة بشرية هائلة وغاضبة ... ورد السارجنت على تلك الحركة بصيحة استعد لها الجنود الواقفون أمام سور الأجساد الذى بدا يتحرك مع كل هتاف يصدر ، وقد اعتلى كتفى رجلين شاب بدا غاضب الوجه والعينين ، وعرف فيه الناس أحمد الحمامسى ...

رفعت زغدانة رأسها من وسط الناس وهى تحمل ماتحمل من أدوات النصبية ، لتجد أحمد وهو يهتف بكل ما فى حنجرته من قوة :
«يحيا النحاس باشا !»

والناس ترد ...

«تحيا مصر !»

والناس ترد !!

«نموت وتحيا مصر !»

والناس تهتف ...

ثم ... ثم دوت فوق الرعوس طلقة !

وانطبعت فوق صدر أحمد الحمامصي دائرة من الدم حمراء اللون ...
وارتفعت ذراعه في الهواء كمن يهم بالهتاف ... لكن الذراع توقفت ،
والصوت انحبس ، وهوت الذراع ، ومن بعدها الجسد ... ثم ... ثم قامت
بعدها القيامة !!

الليل والظلام ونور القمر شاحب حزين وهاهو النيل يزحف منذ أن
كان حتى تحين الساعة ... الصراخ والبكاء والدم والموت وكأن كل ما حدث
ليس سوى كابوس ولا بد أن تفيق زغدانة وتصحو ذات ساعة لتحمل
«العدة» وتسير الى السوق وتبيع الفلافل وتعود الى البيت وتتذكر مندى
وتتمزق شوقا وألما وضياعا ... وعندما حدث ما حدث تحولت البلدة الى
كرة ملتهبة من الغضب راحت تحرق وتدمر وتقتل وتسفك الدماء ... سقط
أحمد الحمامصي قتيلا وانفجر الناس فمزقوا جنود الامبراطورية شر ممزق ...
انطلقت الاعيرة النارية وأصيب رجال ونساء وسقط الكومي وزوجته تحت
الاقدام فسرعان ما عبرت الكوبرى سيارات الانجليز تحمل جيشا من جميع
الأمم راح يصب النار على الناس صبا كالمطر ، اختلط الحابل بالنابل
واهتزت اسلاك البرق واحتل جيش الامبراطورية الذى عسكر فى البر الثانى
من النيل مدينة كفر الزيات ، صرخت زغدانة ولطمت وانشبت اسنانها فى
عنق جندى أحمر الوجه أزرق العينين ولم تترك العنق الا وقد قضمت بلعومه
وهى تصرخ : «آبا ... آما» . رأت أباهما بذراعة العاجزة وهو يسقط بعد
أن تهشم رأسه بكعب بندقية انجليزية راح حاملها يهوى بها فوق رأسه فى
غل أصاب أمها بالجنون ... هجمت على الجندى وقد ألقت بالعجينة فوق
وجهه وراحت تضرب وتضرب وتصرخ وتصرخ ... عينا زغدانة تائهتان
تنظران ذات اليمين وذات اليسار واذا سونكى حاد النصل يخترق ظهر الأم
فتسقط هى الأخرى تحت الاقدام ... حوصرت المدينة ومنع الناس من
السفر وسمعت زغدانة ساعة العصر احدهم وهو يقول أن الراديو لم يذع

شيئا عن الخبر وأن الرقابة سوف تمنع نشر ما حدث في الصحف
فالامبراطورية في حالة حرب والأحكام العرفية معلنة والحكومة لعبة في يد
الانجليز الذين هتكوا كرامة المدينة وضربوا مأمورها وقتلوا رجالها ونساءها ...
لم تفقه زغدانة كلمة مما قيل غير أنها وعته وظلت تذكره وقد عادت ، أو
أعادوها ، الى غرفتها فاذا هي وحيدة ... باتت المدينة في تلك الليلة وفي
كل بيت مأتم ... لم ترتد زغدانة السواد ولم تصرخ ولم تلطم ولا تدرى ما
الذى فعلوه بأبيها وأمها ، أدخلوها غرفتها فدخلت ، أجلسوها فجلست ،
تحدثوا اليها فلم ترد ... كان كل شيء يبدو بغیضا كريها ولم تكن تريد أن
ترد أو تتحدث وباليته تنسى ولا تتذكر شيئا مما كان ... فهل يعود أبوها
وتعود أمها مثقوبة الظهر مرة أخرى؟! ... في المساء كانت الشوارع خالية
ومنع الناس من مغادرة بيوتهم ... فتح الباب ودلفت ذراع تحمل مصباحا
ورفعت زغدانة عينها لترى على ضوء المصباح وجها مستديرا شديد البياض
شديد الجمال شديد الحزن ... وعرفت زغدانة صاحبة الوجه ، الست
دولت سيدة نساء الحمامصي ورجاهم معا ، أم أحمد الذي سقط اليوم
مثقوب الصدر برصاصة جندي انجليزى وهو يهتف تحيا مصر ... امتدت
يد السيدة اليها فنهضت معها ، ومن كان يستطيع أن يقول للست الكبيرة
لا ! غادرت الغرفة مطيعة ، وصعدت السلم لأول مرة الى حيث كانت
عائلة الحمامصي تقطن ... حيث البيت المسحور الذى سمعت عنه ...
أجلستها الست دولت بجوارها فوق الكنية ، وأمرت لها بالطعام فجاءوها
بصينية قد امتلأت بالأطباق والأطعمة ... أمرتها أن تأكل فأكلت ولم يكن
للأكل طعم ولا مذاق ، غير أنها ما أن ابتلعت لقيمات حتى تحرك في
صدرها شيء ... لم تكن زغدانة قد تناولت الطعام منذ أن استيقظت
وهاهو الليل ينتصف وهي تبتلع الطعام فيسيل الدمع من عينها مدرارا ...
ربت احداهن على ظهرها مواسية فجاء صوت الست الكبيرة أمرا :

«سببها تعيط!»

وانفجرت زغدانة في البكاء لأول مرة ... بكاء ليس كالبكاء ،
ونحيب ليس كالنحيب ، لكنه شيء لاوصف له ... لاتعرفه زغدانة ولم
تعرفه .. غير أنه ينبع من أعماق أعماق أعماقها ، وشيء واحد يطوف
برأسها ... فهل قدر لها أن تولد كي تعيش في بحر من الدماء؟!!

لم يكن السجن سجنا ، ولا كانت الزنزانة زنزانة .
كان السجن مكانا يربض تحت سفح الجبل ، وكانت الزنزانة كوخا
خشبيا ... وكان الحكم قد صدر على مندى وشبيطة بالسجن ستة
أشهر ، والعمل لحساب السلطة !

ضحك شبيطة وهو يدلف الى الغرفة الخشبية قائلا :
«ماهو هنا زى هنا!»

«بس ده سجن ياريس شبيطة!!»

«والحثة اللي كنا فيها كانت ايه؟!»

«على الأقل كنا بنخرج!»

ضحك شبيطة وهو يلقي بنفسه فوق فراش صغير :

«هانت ... فات الكثير مابقى الا القليل!»

صاح فيه مندى غاضبا :

«انى قليل ده يامعلمى . داخنا لسه في أول ليلة!»

«مين عارف حانخرج من هنا امتى!»

ومنذ أن صدر الحكم من فم الضابط الانجليزى ذى الملابس

الصفراء وانشفتين الرقيقتين الصارمتين ، ومندى يفكر فيما يمكن أن يحدث
له .

«ولاحاجة ... يا أما حايشغلونا في الفاعل ، يا أما حايشغلونا أى

حاجة لحد مانخرج!»

« كان لازم تضرب روى يعنى !؟ »

رفع شبيطة عينيه نحو مندى فارتجف هذا ... كانت فى العينين نظرة غريبة . نظرة اختلط فيها الألم بالعتاب ، وجاء صوت شبيطة معاتبا :

« انت اللى بتقول ده يامندى !؟ »

احس مندى بالخجل . أرخى بصره وسار الى فراشه وتمتم بكلمات اعتذار بلا معنى .

« هو انت من يوم المركب ماغرقت كنت عاش يا جدع !؟ »

ظل مندى صامتا مطرقا وقد آلمه أن يجرح شعور شبيطة .

« تريزا وحشتك يامندى ! »

ولأول مرة ينتفض مندى وقد أدهشه ذلك الحنان الذى كان يسيل من كلمات شبيطة ... ساد الصمت بينهما طويلا طويلا ، كان مندى يحملق فى وجه شبيطة الغريب التقاطيع وشاربه الكث المهول ، وكان قلبه يدق فى عنف .

« اوعى تكون وقعت يا جدع ! »

وتساءل مندى بينه وبين نفسه ان كانت دقات قلبه حنينا الى تريزا أم حنانا نحو شبيطة .

« اللى زيننا مالوش فى الحب يامندى ! »

نهض مندى سائرا نحو شبيطة . جلس الى جواره ناظرا اليه فى توسل كمن يستزيد .

« اللى زيننا يابن الناس كل يوم فى حته ، وكل يوم فى بلد . وكل يوم فى حزن واحدة شكل ! »

هم مندى بالحديث فلقد نبتت زغدانة فى صدره فجأة كشجرة تطاول السماء سموقا .

« وآهو اللى له بيت له بيت ، واللى له ولاد له ولاد ... انما هو فى البيت فى والولاد فى !؟ »

كان شبيطة الآن حزينا حزينا ... وكانت عينا مندى قد تشبنا به وهو يسير نحو النافذة التي تطل على الجبل الذى بدأ لونه فى الليل مخيفا ... وتنبه مندى الى أنه لايعرف عن شبيطة شيئا ، تذكر أنه اقسم ذات مرة أن يقتل شبيطة فاذا به اليوم على استعداد لأن يموت فى سبيل الرجل الذى أقسم على قتله !

«وهو أنا كنت خائف عليك من ايه؟!»

«من الحباية!»

«مش بس يامندى ... مش بس!»

كان شبيطة الآن يستدير نحو مندى وقد جرفه الانفعال فاستسلم له

دون مقاومة .

«امال من أيه كانى يامعلمى!»

«من الزفت اللي يقولوا عليه حب!»

نهض اليه مندى وقد جرفه الشوق والحنين الى زغدانة .

«الا انت عمرك ماचितت ياريس شبيطة!»

اندفع شبيطة مبتعدا عن طريق مندى ... سار الى حيث كان

فراشه وألقى بنفسه فوقه ودفن رأسه فى الوسادة وجذب البطانية فوق جسده وهو يقول :

«تصبح على خير يابن أبويا!»

... ..

... ..

كان مندى يعلم أن قوة فوق سطح الأرض لاتستطيع أن تجبر

شبيطة على الحديث ، أدهشه ماحدث لكنه أجل الحديث لوقت كان

يعلم أن شبيطة سوف يتحدث فيه ، أحس للحظات أن هذا الرجل قد

امتلاً بالالام الى الحد الذى جعل من اسمه «شبيطة» ... تمدد مندى فوق

فراشه ، وراح يرقب السقف الخشبي ، واطفىء النور وعلت فى الخارج

صيحات الجنود تأمر الجميع بالنوم ... فلفته الاحلام !

.....

.....

ومضت الأيام ، وكان لابد أن تمضى ...

مضت الأيام وهما يخرجان للعمل في الميناء حيناً ، وفي معسكرات
الجيش الانجليزي حيناً ... حتى جاء يوم ، بدا فيه شبيطة كسيف
البال ... وعندما دلفا الى غرفتهما الخشبية ، سأله مندى عما به ، فقال
شبيطة في اقتضاب :

«روى جه السجن !»

● الصورة الخامسة عشر ●

الموت والدم والقتل والشقاء ولاشئ آخر في حياة زغدانة ، ولقد مرت أيام طويلة وهى تعيش فى بيت الحمامصى - فوق - رفضت الست الكبيرة أن تدعها تعود الى غرفتها فى الحوش الكبير وسط المهاجرين ، مضت الأيام واقامت محاكمات وحبس رجال وصبيان ونساء من كفر الزيات ، خلت الشوارع من المارة وامتألت بدراجات وجنود البوليس الحرنى البخارية وحاملات الجنود المشرعين سلاحهم فى وجه المارة ... عاشت المدينة أياما كئيبة لا يخرج الناس من بيوتهم ... لا يبيعون ولا يشترون ، وم من مريض عانى من الألم أو مات لأنه كان ممنوعا أن يخرج أحد من بيته فى غير الساعات القليلة التى حددها الكولونيل الانجليزى فى وسط النهار ليجد الناس ما يحتاجون اليه ... وحتى تلك الساعات القليلة لم تكن تخلو من أحداث تحدث بها المدينة سرا ... قتل جندى اخطأ وخطأ فى حارة جانبية وحدة فوجدوه مذبوحا فى خرابة ، وقامت الدنيا وقعدت وقبضوا على حسين أفندى الذى يسكن فى المنزل المجاور ، موظف التليفونات المحترم المصلى الذى لم يعرف العيبة فى حياته ويكفى خيره شره هو وأسرته ... وذات مرة نشبت معركة بين بعض شباب المدينة وجندين من جنود الامبراطورية كان أحدهما هنديا راح يصرخ فى الشبان عندما استولوا على

بندقيته وسددوا السونكى الى صدره : أنا مسلم . لا اله إلا الله . وكاد حامل البندقية يتراجع ولكن عبوده ابن الأسطى خميس الميكانيكى دفع بالبندقية الى صدره وهو يصرخ :

«وكان فين اسلامك لما قتلت الناس فى السوق ياابن الـ»

حكايات وحكايات وقصص وحودايت كانت تسمعها زغدانة فى مكانها الذى لم تبرحه ... كانت زغدانة صامته صمت القبور منذ أن حدث ما حدث ، ولم حاولت الخادمت الآتيات من القرى المجاورة أن يخففن عنها ، ولم حاولت الست الكبيرة التى تحركت بجسدها السمين الثقيل لتعبر الشقة من اقصاها الى اقصاها ، ليأتوا لها بمقعد تجلس عليه أمام زغدانة المكومة على الأرض الساهمة الشاحبة التى لاتقبل على الطعام الا لماما ، لتجلس السيدة الوقور المتشحة بالسواد حزنا على ولدها الذى ضاع فى شربة ماء ، وحاولت هى الأخرى مع زغدانة .

لكن زغدانة لم تنطق ... قالت واحدة من الخادمت ان عفريتتا قد ركبها وانها تحتاج الى زار ... فهل يقام زار فى البيت ودماء الموتى منه لم تجف؟! ... وقالت أخرى أن أم سعيد الندابة تستطيع أن تفك عنها ما بها ، وجاءوا بأم سعيد ، وكانت سيدة طويلة نحيفة مثل نخلة ، لها وجه أسمر مستطيل وعينان جميلتان نفاذتان ، وصوت رجل أجش ، يقولون أنه صوت الجنى الذى خاواها والذى تلبس جسدها ... جلست أم سعيد أمام زغدانة وراحت تحدثها وتحدثها ولا تكف عن الحديث ، كانت الخادمت يرحن ويحجن ويتفرجن وينقلن الأخبار أولا بأول الى الست الكبيرة التى كانت قد فتحت قلبها لزغدانة ، فهى ، هى الشئ الباقى لها من رائحة ولدها الذى سقط شهيدا برصاص الانجليز وهو يهتف بحياة مصر ! ولكن حتى أم سعيد التى لم تستعص عليها حالة منذ أن كانت ، فشلت مع زغدانة ، وظلت الفتاة صامته ذلك الصمت الغريب الذى كان

يطل من عينيها نظرات مية تائهة مخيفة ... يومها ، قالت أم سعيد وهي تجلس على الأرض تحت قدمي الست الكبيرة المترعة بجسدها الهائل فوق الكنية ، قالت أم سعيد :

«مفيش فايده ياستى أم المرحوم ... لازم لها زار !»

«ياندامتى ... زار قبل الأربعين يأم سعيد !»

«الشر بره وبعيد ياستى .. البنية مش واعية ، وسيدها راكبها وعاقده

لسانها !»

«الناس تقول علينا ايه !؟»

شهقت أم سعيد ، واشعلت سيجارة بعد أن خبطت بكفها فوق صدرها ، ثم نفثت الدخان وهي تقول :

«مايقول الناس اللي يقولوه ، البنيه حاتروح من ايديكى ، أنا عارفة الصنف ده من بسم الله الرحمن الرحيم !»

صمتت الست الكبيرة طويلا ، ومدت يدها تحت وسادة الكنية وأخرجت علبة نشوق فضية ، وفتحتها وأخذت منها بأصبعيها وراحت تدس النشوق في فتحتى أنفها وتتنفس بعنف . ثم ساد الصمت بعد ذلك .

لكن الست أم أحمد نطقت أخير :

«طيب يا أم سعيد .. عاوزه أيه !؟»

«اسم الله على مقامك ديك أحمر فيه علامة بيضة ، وعضمة من

الترب !»

ارتجفت الست الكبيرة عندما جاء ذكر المقابر . نظرت اليها أم سعيد فى أسى ودمعت عيناها وقالت :

«والنبى مانى عارفة ايه حكاية قلبك الحنين ده !»

«يعنى أسيب البنت تروح فى ايدينا يا أم سعيد»

«أنا ماقلتش كده ... بس كل من حى وله بلوته!»

همست الست الكبيرة :

«أحمد كان عايزها!!»

«اسم الله على مقامك ... وهى كانت من مقام المرحوم ياستى!»

«لولا أنها مكتوب كتابها كنت اديتها له!»

«ربنا يخليكى للكبير قبل الصغير!»

تهدت الست الكبيرة وهى تدس فى يد أم سعيد ورقة مالية خضراء

اللون :

«جنيه آهو يأم سعيد!»

فهمت هذه بفرح :

«الوقت اتمسى على ... والخروج ممنوع الهى يورينا فيهم يوم!»

«باتى هنا يأم سعيد!»

ولم تكن أم سعيد تريد أكثر من ذلك . فلقد طلبت بخورا ونارا .
وصعدت الى سطح البيت ومكثت هناك ساعة وبعض ساعة ، وعادت
تحمل ديكا أحمر اللون به علامة بيضاء ...

هرولت الخادومات هنا وهناك . وسرى الهمس بين أهل البيت أن
الجان جاءوا لأم سعيد بالديك ، فليس فى عشرات الدجاجات التى تسعى
فوق السطح ديك له هذا اللون فمن أين أتت به هذه الولية التى دخلت
على الست الكبيرة ساعة العشاء وفى يدها الديك المطلوب من الجان ...
وهتفت بصوتها الأجرش : «وحياة النبى ومن نبى النبى ومن جعل النبى نبى
ياستى أنا كنت حاروح فيها!»

توقفت الست أم أحمد عن الطعام وهى تحملق فى الديك الأحمر :

«جبتى الديك ده مين؟!»

«من الأسياذ ياستى . ماكانوش عاوزين . يقولوا أن اللى على

زغدانة رذل ومؤذى !» .

«وبعدين يأم سعيد !»

«ولا قبلين ... أديني باتحاييل عليهم من ساعة ماطلعت فوق

السطح لحد مارضوا !»

«والزار ؟»

«مانا قلت لهم أنه يايصحش والمرحوم لسه ماربعنش !!»

«ورضيووا !؟»

«وهم يقدرروا يرفضوا لك طلب !؟»

وانفجرت الست الكبيرة في بكاء حار ، استمر حتى منتصف

الليل ، وباتت ليلتها تلك وقد أسعدها أن سكان ماتحت الأرض من الجان

كرموا ولدها ، وان الأمل في شفاء زغدانة بات وشيكا !

وكانت زغدانة ، عندما دخلت عليها أم سعيد تحمل في يدها المنقد

وقد توهجت نيرانه من قوالح الأذرة المجففة المرصوفة فيه بعناية خاصة ،

كانت لاتفكر الا في شيء واحد ... هو الهرب !

كانت الأيام التي مضت أياما عجيبة ، فكرت في الموت أولا ، ان

تقتل نفسها وأن تستريح من هذه الدنيا ، قالت ، فيما قالت لنفسها ، أنها

«وش نحس» ، وأنه بسببها قتل مندى ثلاثة رجال ... وأنها في السوق رأت

أباها وأمها يقتلان ولم تدفنها ولا تعرف لجثتيهما مكانا ، فلم لم تُقتل

هي !؟ ... قالت أن أحمد الذي أحبها . قتل . ومندى الذي تزوجها .

هج من البلاد وسافر الى حيث لايعلم الا الله ... وانها يجب أن تموت ،

أو ... أو ... تقتل هؤلاء الذين كانوا سببا في كل ماحل بها من

مصائب .

كلمة كانت تبدو لها ذات يوم ، عندما كانت صغيرة ، منذ بضعة أشهر فقط ، رهيبة وبشعة وغير محتملة ... لكنها الآن أصبحت كالصديق الملازم لها ... فهي تلاحقها في كل مكان ، وإذا كانت هي السبب في كل هذه الدماء التي سالت . وإذا كان اقترابها من أحد قد يودى به الى الجحيم ، فلم لاتفعل مثلما فعل مندى ... لم لاتقتل العساكر الانجليز ... لم لاتأخذ بالثأر ... ولكن كيف !؟

وعندما يعود مندى ذات يوم سوف تحكى له . ولاسييل الى تحقيق الثأر الا بالهرب من كفرالزيات ، والعودة الى الاسكندرية حيث يكثُر جنود الامبراطورية هناك ... وهكذا قررت زغدانة أن تهرب ، وأن تذهب الى المحطة ، وأن تركب القطار ... وكانت هذه الليلة التي دخلت عليها فيها أم سعيد هي الليلة التي قررت فيها زغدانة ان تنفذ خطتها ... ولكن كيف !؟

... ..

... ..

انطلق البخور وتوهجت نيران القوالمح في المنقد الموضوع وسط الغرفة ، وراحت أم سعيد تتمم بكلمات مبهمة وصرخات مكتومة وشهقات مخيفة ... وعندما اخرجت من ملابسها ذلك السكين الماضى ، وعندما هوت على الديك المقيد بجوارها لتفصل رأسه عن جسده ، وتغرف من دمة الدافىء وترش به وجه زغدانة ، حتى اطلقت هذه صرخة رعب هائل ، هاهو القتل يلاحقها مرة أخرى ، وهاهو وجهها ملطخ بالدماء ، وهاهى الدماء دافئة ... فراحت تصرخ وتصرخ ... وكانت أم سعيد تزداد تلاحقا في تمتماتها وتعاويذها ، وكانت الخادومات قد تجمعن أمام باب الغرفة فى هلع وقد سمعن أحدهن تقول : أن الجنى يرفض أن يغادر جسد زغدانة ، لذا فهى تصرخ من العذاب ... و... وفوق صرخات زغدانة التى

راحت تتلاحق في عذاب ، تعالت كلمات أم سعيد وهي تأمر الجان بحق هاروت وماروت وماهب وما دب وما تحت نور الشمس والقمران أن يغادر جسد زغدانة على غير رجعة وفي سلام ..

الدماء والنيران ورائحة البخور الخانقة والصرخات تنحبس في حلقها ، وصدرها يضيق وإذا بها تنتفض مندفعة الى باب الغرفة ، تلاحقها تمام أم سعيد وتعاويذها وكلماتها .

انطلقت زغدانة تجرى في البيت الواسع على غير هدى ، كانت تخرج من غرفة لتدخل غرفة ، وكان منظرها بشعا وقد تلطخت ملابسها ووجهها بالدماء ... راحت زغدانة تتردد فيها بين الحيطان ككره تنقذف بلا سبب ... حتى اذا ما اندفعت في لحظة نحو الباب المؤدى الى السلم ، صرخت فيها أم سعيد أن تعود ... ولكن هيهات !

وعندما اخترقت زغدانة الفناء وسط السكان من المهاجرين الذين خرجوا من غرفهم ووقفوا أمام أبوابهم ، البعض منهم يعلق ، والبعض يتلو أدعية ، وآخرون يقرأون قرآنا ، عندما اخترقت زغدانة الفناء مندفعة الى الباب المؤدى الى الطريق ، لم تسمع النداءات والتحذيرات من جنود الامبراطورية الذين يجوسون طوال الليل في الشوارع بحثا عن غادر بيته ليعطوه نصيبه ، رصاصة في الصدر !

غير أن زغدانة ، وقد غسل وجهها هواء الليل البارد ، بدأت تفتيق مما كانت فيه ، كانت تجرى من شارع الى شارع ، ترى داورية انجليزية فتختبئ منها في مدخل بيت أو خلف جدار أو في خرابة... كان لها هدف واحد ، وكانت تعرف الهدف ... هو أن تصل الى محطة السكة الحديد ، وأن تركب قطارا الى الاسكندرية وأن يحدث لها بعد ذلك ما يحدث !

عندما جاء الصباح لم يجدوا لزغدانة أثرا في المدينة ... قيل أنها غرقت في النيل ولكنه مسحوا المياه وقاع النيل بالشباك ذات السنانير الهائلة دون جدوى ، فتشوا المقابر ، وسألوا الجيران والناس ، ولكن زغدانة كانت قد اختفت تماما . كانت وكأنها ذابت في الهواء ...

بعد يومين كانت أم سعيد تجلس أمام الست الكبيرة لتواسيها

قائلة :

«خطفها يانضرى ، خطفها اللي مايتسمى !»

وكانت الست أم أحمد تبكى في صمت . وفي أحيان أخرى كانت تنهه فيهتز جسدها المترهل اهتزازا عنيفا ... وأكدت أم سعيد أنها قالت بأن الجنى الذى خاواها كان عنيدا وقاسيا ، وأنه استشوى الديك ، وطلب خروفا يذبح قبل آذان الفجر بساعة ويفرق لحمه على الفقراء ... وهزت الست أم أحمد رأسها . وافقت على ذبح الخروف . فقط . تعود اليها زغدانه .

في ذلك الوقت كانت زغدانة في مكان آخر . كانت تقبع في سبنسة قطار من قطارات البضاعة . يجلس أمامها كمسارى يرتدى بذلة صوفية تقيه البرد . وكانت ترتجف . وكان الرجل الذى لايعرف اسمها ولم تعرف اسمه ، يخلع المعطف الثقيل من فوق كتفيه كى يدثر به زغدانة وهو يسألها للمرة العاشرة : من هى ؟ . وما الذى حدث ؟ وهل هم الانجليز الذين فعلوا بها هذا ، أم أن هناك شيئا آخر .

ولزمت زغدانة الصمت ... كانت ، وهى تهتز مع القطار ، تفكر في شخص واحد . شخص واحد هو الذى بقى لها في هذه الدنيا ...

وكان هذا الشخص هو مندى !!

فأين هو مندى الآن ؟

الصورة السادسة عشرة

كانت زغدانة ، في ذلك الوقت الذى تقبع فيه أمام كمسارى السبنسة ناظرة اليه بعينين تائهتين ، تفكر في مندى ، كان هو الوحيد الذى تبقى لها في هذه الدنيا ... ولكن أين هو مندى !؟

وكان الرجل الذى تجاوز الأربعين من عمره ويبدو للعين لكثرة ما عانى في حياته أنه قد تجاوز الستين ، قد خلع معطفه الميرى الثقيل رغم السعال والروماتيزم اللذين كانا قد هدا جسده هداً ، ودثر به تلك الفتاة التى ظن أنها عفريت أو جان ، كانت ، عندما قفزت الى سبنسة القطار بملابسها الملطخة بدماء الديك ، تبدو وكأنها قد ارتكبت لتوها جريمة قتل غسلت فيها ملابسها بدماء القتيل ، وكان القطار يسير ، يقطع طريقه بين الحقول ، ولم يكن هناك مفر من قبوله للأمر الواقع ... غير أن هذا الأمر الواقع سرعان ما تحول في نفس الرجل الى واقع آخر عندما رأى عيني زغدانة الزائغتين ، عندما رأى ارتجاف جسدها وشحوب وجهها وضياعتها ... قدم لها كوباً من الشاي ، سأها عما بها فلم ترد ... لم تستطع أن ترد ... كانت تبحث في ذهنها عن شيء تقصه أو تحكيه دون جدوى ، لم تكن تفكر الا في مندى ، فقط هو مندى الذى استطاع أن ينتقم لها من الانجليز في البداية ، وهو مندى الذى يستطيع الآن أن ينتقم لها من

الانجليز بعد ماقتلوا كل أحبائها ، كل من تعرفهم ... فأين مندى الآن؟! ... هكذا كانت تتساءل ، ولكن مندى ، فى ذلك الوقت بالذات لم يكن يفكر فى شىء الا فى الرئيس شبيطة . وما قد يجره مجيء روى الى السجن من أحداث !

يوم أن وصل روى الى السجن ... تأكد مندى ، كما تأكد شبيطة ، وقال كل من كان هناك وسمع بما حدث . أن روى لم يأت الى السجن عفوا ، بل لقد وصلت الأخبار ، قبل ظهور روى مع المساجين الجدد بأنه افتعل مشاجرة كسر فيها فك رجل ، كى يحكم عليه بالسجن ، كى يأتى الى شبيطة وينتقم منه !

ولم يضيع روى وقتا ، ولقد حرص حراس السجن على وضعه فى مكان آخر بعيدا عن شبيطة ، لكنه ، بالرغم من هذا أعلن ، وفى وضوح ، أنه قد جاء كى يقتل شبيطة !!

ووصل الخبر — أثناء العمل فى الصباح — الى مندى وشبيطة فى نفس الوقت ، وغمغم شبيطة ساعة الغداء ، وهو يلتمهم مافى طبقة بسرعة : «مانا عارف !»

وهكذا عاش الرجال داخل السجن أياما من القلق وهم ينتظرون ماسوف يحدث اذا ماالتقى الرجلان ... وكان لقاؤهما يتم ، بالضرورة ، فى تلك الساعة التى كان يقضيها نزلاء السجن ، قبل الغروب ، فى الفناء ... يسرون فيها جيئة وذهابا ، أو يقبعون بجوار الجدران ، بعضهم ساهم ، وبعضهم يثرثر ، وبعضهم يدبر ...

ولقد كان مندى قلقا على صديقه اشد مايكون القلق ، وكان قلقه يزداد كلما مضى يوم ، فلقد انقسم السجن تدريجيا وبشكل تلقائى ولايعرف

أحد كيف تم هذا ، الى فريقين ... فريق أحاط بروبي وراح يناصره ، وفريق أحاط بشيطة وراح يشجعه ... وجاء وقت ، كان النزلاء فيه ينقسمون الى هذين الحزبين كى يجلس كل منهما تجاه الآخر ..
وكان شيطة صامتا ...

وكان مندى يشعر أن الأيام تضيف اليه سنوات من العذاب بلا نهاية ، وكان اذا ما اختلى بشيطة ، تساءل :

«ناوى على ايه يامعلمى !»

وكان شيطة يرد فى اقتضاب :

«خليك انت بعيد يامندى !»

وكثيرا ماداهمت مندى الأحلام والكوابيس ، كثيرا ما كان ينهض من نومه فى جوف الليل لاهث الأنفاس يتصبب العرق من كل جسده وقد رأى المعركة — فى المنام — محتدمة بين روى وشيطة ، وكان روى دائما ، فى كل حلم أو كابوس ، يحمل فى يده خنجرا ، وكان روى دائما ما يطعن بالخنجر فى القلب ... وكان شيطة دائما ما يسقط مضرجا بدمائه !

ذات مرة ، هب مندى من نومه مرتجفا ، فلقد كان الحلم هذه المرة بشعا عنيفا ، كان يجلس على فراشه محمقا فى الظلام عندما جاءه صوت شيطة :

«رجعت تحلم تانى يامندى !»

همس مندى :

«ريس شيطة»

«نام !»

«أنا عاوز نقول لك على حاجة !»

«قلت لك نام !»

«ماهو آنى مش حانسكت الا لما نعرف ناوى على ايه ؟!»

وساد الصمت فغادر مندى فراشه ونحطا نحو فراش شبيطة ، ركم
بجواره وهو يهمس في حرارة :
«ناوى على ايه !؟»

برقت عينا شبيطة في الظلام ، وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ،
وتكسرت الكلمات على شفثيه :
«رونى غدار !»
«سيهولى !»

قفز شبيطة جالسا من مكانه وقد أذهلته الكلمة :
«ابعد انت يامندى !»

«آنى حانجيب لك أجله !»
«قلت لك خليك انت بعيد . انت لسه صغير على الحاجات
دى !»

«آنى جبت أجل ثلاثة قبل كده ، فيها أيه لما ندبح الرابع !»
وكانت هذه الجملة كفيلة بأن تجعل شبيطة يغفر فاه — ربما لأول
مرة في حياته — ذعرا ودهشة ... ظلا صامتين لدقائق لايدريان ان كانت
قد طالت أم قصرت ، وكان شبيطة ، على ضوء النجوم المتسرب من نافذة
العنبر الخشبي ، يحاول أن يستشف ماوراء وجه مندى ، الذى بدا له رغم
الظلام ، وكأنه تحول الى وجه رجل آخر .

«ايه العبارة ياجدع ؟»

عاد مندى الى فراشة دون كلمة ، ساد الصمت من جديد ليعود
شبيطة فيشعل سيجارة متسائلا :

«ايه العبارة ياجدع قول لى !»

ولم يكن هناك مفر ، كالقدر ، كأن انسانا آخر هو الذى ينطق
من صدر مندى ، أو ، كأنه يزيح عن صدره عبئا ثقيلًا ، راح مندى
يحكى حكايته منذ البداية !

كان القطار قد توقف فيما بين قريتين ليفسح الطريق لقطارات الركاب المكتظة بجنود الاحتلال ، وكان الكمسارى يصعد الى السبنسة وهو يحمل جلباب زغدانة بعد أن غسله في مياه الترعة الصغيرة مما علق به من دماء ... ولى النهار والقطار فى مكانه ، وكانت زغدانة قد قصت على الرجل قصتها ، وكان هو قد طلب منها أن تختبئ فى ركن من السبنسة لتخلع جلبابها كى يغسله لها وتتدثر بالمعطف الثقيل الذى أذفاها مع أكواب الشاى واللقيمات التى اعطاها لها ..

وقف الرجل بباب السبنسة الخارجى مناديا فى صوت خافت :
«زغدانة !»

وأطلت زغدانة من الداخل بوجه شاحب وشعر مهوش ، ونظرت اليه بعينين تائهتين . قال :

«الجلابية نشفت !»

وامتدت يدها لتأخذ منه الجلباب ، ثم اختفت واختفى وارقدت جلبابها وعادت اليه .

«القطر حايقوم بعد عشر دقائق !»

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وكانت سنابل القمح تتمايل مع نسيمات الشتاء الباردة ، وسألته زغدانة :

«يعنى حانوصل اسكندرية امتى ؟!»

هتف الرجل دهشا :

«اسكندرية ؟!»

«هو القطر ده مش رايح اسكندرية ؟!»

«لا يابنتى ... احنا حانوصل مصر على وش الفجر !»

عندما كان مندى يسير الى جوار شبيطة وهما فى الطريق الى اسمل . كان ذهنه مشغولا بسؤال واحد : هل اخطأ عندما أعلن سره لـ شبيطة ؟

وكان شبيطة هو الآخر ينظر الى مندى بجانب عينيه متسائلا : هل
أصدقه هذا الفتى القول عندما حكى له حكاية زغدانة وبحارة الانجليز الذين
ذبحهم؟!

غير أن شيئا غريبا ، رغم هذا وذاك ، كان قد ربط الاثنين
بهدف واحد . فجأة ، قال شبيطة :

«إذا جرى لي حاجة يامندى خليك بعيد!»

«وانت يعنى حايجرى لك ايه يامعلمى!»

«اسمع يامندى ... اللي زى روى ده آنى شفت منهم كثير فى

دى ، فيه ناس كده ربنا خلقها لأجل ماتأذى ... روى كده .

حايبيب تاره الا إذا مات هو أو ...»

هتف مندى مقاطعا :

«خلاص . أجيب لك أجله!»

فى عنف زجره شبيطة :

«قلت لك خليك بعيد!»

هم مندى بالحديث عندما استدار نحوه شبيطة فى عنف ، وألقى

كان فى يده من الآلات ومطارق وأنشب أظافره فى خناقة وهو يصيح

«اللى بنقول لك عليه عمله ياجدع . فاهم؟!»

ذهل مندى ، فهتف :

«ريس شبيطة!»

ارتفع كف شبيطة فى الهواء ليهوى على صدغ مندى فى

صارخا بصوت توقف له الجميع والتفتوا :

«قلت لك خليك بعيد يعنى خليك بعيد . فاهم?!»

كان مندى ذاهلا فحاول التخلص من قبضة شبيطة :

«انت بتضربنى ياريس شبيطة؟»

«وهو انت كبير على الضرب ياوله ... طب خد!»

قبل أن تهوى اللطمة الثانية على وجه مندى ، كانت طلقة قد دوت في سماء المعسكر . وكانت صفارات الجنود قد ملأت المكان ، وهروا البعض منهم مشرعين سلاحهم ، وصاح بعض الرجال مهللين ، ووقف روى بعيداً يتفرج ، وكان شيطه ، وكأنه فقد عقله ، قد بدأ يهوى على وجه مندى بالضربات وهو يصيح :

«أكبر منك يوم يعرف عنك بسنة!»

وتوقف العمل في ذلك الصباح . وسبق مندى وشيطة الى الضابط الصغير الذي كان يشرف على المعسكر ، كان واحدا من هؤلاء الشبان ذوى الوجوه الحمراء والشعور الصفراء والأنوف الممتدة الى الامام في صلف يبعث في الغيظ . كان هناك تحقيق . وكان هناك سؤال ، وكان مندى ذاها ، وكان شيطة هائجا ... ومضى اليوم بسرعة ، وصدر الأمر بفصل مندى عن شيطة ، ذلك أن شيطة كاد يعتدى على مندى في مكتب الضابط وهو يكيل اليه الاتهامات ، ولم يكن مندى يقول شيئا ، كان ذاها ، وكان فاهما ، وكان يهتف من قلبه المكلوم :

«انت ليه عاوز تبعدنى عنك يامعلمى!»

لكن شيطة لم يرد عليه . أبدا لم يرد . كان وكأنه قد تحول الى وحش كاسر ، فراح يلقي بالتهم ويقذف بالشتائم وكأنه فقد عقله ... وعندما انتهى كل شيء ، ووضعت القيود الحديدية في يد شيطة ، وساقوهما معا كلا الى مكان ... عندما كانا يسيران وسط الجنود المدججين بالسلاح في فناء المعسكر ، حانت لحظة الفراق ... فتوقف شيطة مستديرا نحو مندى ، وكان وجه مندى مليئا بالكدمات ، وكانت في عيني شيطة نظرة غريبة ... وقتها فقط ، في لحظة الفراق هذه ، همس شيطة :

«خلى بالك من نفسك يامندى!»

ثم استدار ومضى نحو مصيره الجديد ، ولم يكن مندى يعرف ، في تلك اللحظات الغريبة ، ان هذه هي المرة الأخيرة ، التي يرى فيها شبيطة حيا !!

كان القطار يقترب من محطة القاهرة عندما أبطأ من سرعته حتى أصبح يزحف ... وكان عم رشاد ، وهذا هو اسم الكمسارى ، يعيد للمرة العاشرة حديثه لزغدانة :

«حانزلى هنا . ومعاكى عشرة صاغ . تعدى القضبان دى لحد السور ، تنطيه حاتلقى نفسك فى شبرا ... تسألنى على محطة الاتويس ، سامعانى يازغدانة ؟!»

«ايوه سامعاك ياعم رشاد !»

«لما توصلنى محطة الاتويس اسألنى على اتويس السيدة ، حاتدفعى قرش ويفضل معاكى تسعة ، فى السيدة زينب تنزلى ، فى آخر الخط . فاهمة !»

«يوه .. فاهمة ياعم رشاد !»

«تنزلى فى آخر الخط وتستنينى . مهما غبت عليكى لازم تستنينى . اذا جعتى اشترى حاجة كليها ، ميدان السيدة مليون بالخير . اقرى الفاتحة لأم هاشم ، واقعدى هناك لحد ما آجى لك !»

«حاضر ياعم رشاد !»

«يالله اتوكلى على الله !»

هبطت زغدانة ، كان القطار يزحف فى بطء بالغ . وقبل أن تقفز زغدانة الى الأرض المبدورة بحبات الزلط الكبيرة هتف :
«زغدانة !»

التفت نحوه متسائله :

«أنا يابنتى متجوز وعندى خمسة . ثلاث بنات وولدين .

ماتروحيش هنا ولا هنا ، ولاد الحرام كثير وعساكر الانجليز ماليين البلد
ولافيش لهم كبير !»

«حاضر يا عم رشاد !»

«يمكن أتأخر عليكى شوية ماتقلقيش !»

«حاضر !»

«اصلى لازم اسلم القطر قبل ماأروح !»

«حاضر !»

هم الرجل بالحديث مرة أخرى لكنه توقف . كانت المخاوف تعصف
به . وكان يشعر في ذلك الوقت ان اليومين اللذين قضاهما مع زغدانة في
سبنسة قطار كان يزحف على القضبان ، قد ربطاه بها الى الأبد ، غير أن
سر قلقة هذا ، والحاحه هذا ظل غامضا بالنسبة اليه واليها ... وكان
شيئا ، شيئا غريبا لايدريه وقد لاتدريه هي الأخرى ، قد حدث في
داخله ... وأخيراً لم يجد أمامه مفراً!!

كانت زغدانة لاتزال معلقة على سلم القطار وهي تنظر اليه ،
فارخى عينيه وهمس :

«انزلى بقى ربنا معاكى !»

وقفزت زغدانة الى الأرض ، ووقفت ترقب القطار وهو يتعد في بطاء
شديد ، كان عم رشاد يقف في مؤخرة العربة ينظر اليها ، وكانت هي تقف
بين القضبان تنظر اليه ، كان يتعد ، يتعد ، حتى ذاب القطار وسط
عشرات القطارات التي كانت تقف على القضبان العديدة الممتدة في هذا
المكان ... وأحست زغدانة بغصة تقتحم صدرها ، هاهو انسان آخر يحنو
عليها ، وها هو القدر يحملها الى بعيد ، فهل تقترب منه حتى يقتله الانجليز
هو الآخر !؟

صعدت دمعة الى عينها فتركتها تنزلق في بطاء . ومدت يدها الى
جيب جلبابها وقبضت على قطعة النقود الفضية في يدها . وراحت تعبر

حقل القصبان هذا ، حتى اذا وصلت الى السور قفزت من فوقه ، لتجد
نفسها في شارع طويل ، شارع غريب مترب كالح مزدحم ... سارت في
الشارع وهي تشعر أن كل العيون تنظر اليها ، لكنها عندما اقتربت من
امرأة كانت تسعى بملاءة لف ، سألتها عن محطة الاتوبيس ، وأشارت لها
المرأة الى نهاية الطريق . فعادت زغدانة تسير من جديد ، وهي لاتدرى إلى
أين !!؟

• الصورة السابعة عشر •

كانت زغدانة وهى تسير فى ذلك الشارع الذى بدا لها غريبا مزدهما متربا ، تنظر حولها وهى تتساءل : هل هذه هى القاهرة؟! ... طالما تمت أن ترى القاهرة ، أن تسير فى شوارعها ، أن تشاهد ناسها ، وأن تزور ضريح السيدة زينب بالتحديد ، وكلما كانت تسمع أمها وهى تدعو : يا أم العواجز ، كانت تشعر شعورا عميقا ودفينا بشيء يربطها بالسيدة زينب ، أم العواجز هذه التى دائما ما كانت أمها تدعوها على البعد كى تساعدنا وتقف بجوارها ... و... وهامى الآن فى طريقها لأم العواجز شخصيا ، هامى تقف عند محطة الاوتوبيس ، وتسال ، ويدلها الناس ... هامى تصعد الى الاوتوبيس وتجلس فى أحد المقاعد ، وتسال الكمسارى ، ربما للمرة العاشرة ، هل سيقودها هذا الاوتوبيس الى السيدة زينب؟! ... ثمة احساس غريب ، واضطراب اغرب كانا ينتابانها كلما سعى الاوتوبيس فى سيره ، كلما قطع شوطا فى الطريق ، أو ترك شارعا ودار الى شارع ... كانت عينها تلتهمان كل شيء ، وكان قلبها يفيض بالحنان ، فهل ... هل تساعدنا أم العواجز؟! ... هل تقف بجوارها؟! ... هل تنصرها؟!!

«السيدة يا شاطرة!»

وانتهت زغدانة مما كانت غارقة فيه ، انتهت ثم ارتجفت ، ودارت

عينها بسرعة وهفة ، كانت تبحث عن الجامع والضريح ... وكان الرجل لا يزال يقف بجوارها ..

«انتى غريبة يابنتى؟!»

«فين السيدة زينب ياعم؟»

«آهيه قدامك!»

لكن الجامع لم يكن هو الجامع الذى صوره لها خيالها ... هبطت من الاوتوبيس وهى تشعر وكأنها تسير فى الهواء . كان الميدان مزدحما بالخلق لكنها ما ان اقتربت منه حتى علا صوت ينوح :

«يأم العواجز!»

كان الصوت حزيناً ، وكان كسيرا ، فصعدت الدموع الى عينها ، رغما عنها ... قالت لنفسها أنها تنذر أن تذبح خروفاً ، حتى ولو ماتت فى سبيل شرائه ، لو حققت لها أم العواجز ماتريد ... كان ماتريده زغدانة شيئاً غريباً ، كان أملاً بعيداً بعيداً ، غائصاً فى أعماق أعماقها ، ولو أن القطار قادها الى الاسكندرية لكان تحقيق الأمل هينا وميسورا ، فى الاسكندرية كانت قدمها ستعرفان الطريق ، أما هنا ، فى هذه المدينة الواسعة الرمادية اللون ... فأين الطريق؟!!

عندما وقفت بباب السيدة زينب ، عضها الجوع ، مدت يدها الى جيب جلبابها وقبضت على القروش التسعة الباقية لها ... خطت داخل الجامع فاحتوتها رائحة غريبة ، راحت تتلفت حولها بحثاً عن الضريح ، حملتها صيحات المكلمين : «مدد ياست!» ... جاشت نفسها بسبيل بلا نهاية من الدمع فتركته ينهمر من عينها بلا حساب : «يا أم هاشم!» ... قادتها الصيحات والنداءات والدعوات الى حيث كان الضريح يكمن خلف سوره النحاسى اللامع ، امتلأ صدرها برائحة البخور فتذكرت أمها فى كل جمعة ، وقت الصلاة ، عندما كان المؤذن يؤذن ،

وعندما كانت هي تطلق البخور في العشة الصفيح فيسخر منها الكومى
قائلا :

«بتبخرى على ايه ياويله !»

«يوه ياخويا ... آهى بركة !»

وتمت زغدانة من بين شفيتها :

«ياحبيبي يابا !»

ولم تستطع زغدانة أن تقاوم ... كانت وكأنها في انتظار هذه
اللحظة ، تقدمت من السور وهى تهمس منادية : « يا أم العواجز ! » ،
انهمر الدمع من عينيها غزيرا وتهاوى جسدها فتشبثت بالسور ثم هبطت
لتجلس على الأرض بجواره ... ملأها احساس طاغ بأن يداً تمتد من داخل
الضريح لتمسح على رأسها ... سرى الخدر فى أوصالها فأسندت رأسها على
السور المشغول فكأنها وضعت رأسها فوق صدر أمها ، همست :
«ساعدينى يأم العواجز ... خدى بأيدى دانا يتيمه !»

ولم يكف الدمع أبدا عن الانهمار ... لكن زغدانة ، كلما فاض
الدمع من عينيها ، كلما أحست بتلك الراحة الغامرة التى افتقدتها وظنت
أنها فقدتها ... تمضى بها الدقائق وهى تتحدث ، كانت — الآن — تشعر
وكان السيدة زينب قد خرجت من ضريحها لتجالسها ... قالت :

«الانجليز هتكونى ياست !»

قالت :

«الانجليز اخدوا منى مندى يأم هاشم !»

قالت :

«الانجليز قتلوا أحمد الحمامصى !»

نهبت واهتز جسدها وهى تدفن رأسها فى تعرجات السور
النحاسى :

«وقتلوا أبويا وأمي في يوم واحد!»

ولو هله ... ومضة ... لحظة غريبة مفزعة ... تنهت زغدانة الى
أنها ، حتى الآن ، لاتعرف أين دفن أبوها وأمها ... أنها ... أنها ليست
يتيمة فقط ، بل هي لاتعرف لوالديها مكانا ... ومن صدرها ، لا ، من
قلبا ، من أعماق قلبها ، اطلقت صرخة عاتية .
وتجمع حولها الناس !!

كان مندى يعلم سر هذا الذى فعله معه شبيطة . بات لأول مرة
منذ غرقت السفينة وحده ... كان فراش شبيطة بجواره خاليا ، وكان الرجال
فى العنبر ينظرون اليه من بعيد دون حديث ، اختفى شبيطة من العنبر لكن
الحياة فيه عادت الى ماكانت عليه ، فهل ينتظر شبيطة تلك المعركة
الضارية بينه وبين روى ؟! ... و... وهل يقتل روى فيقتلونه ، أو يقتله روى
فيختفى من حياته ، فى كلتا الحالتين ، ذلك الصديق الذى ركن اليه
وأحبه ؟!

مضى الليل لكن مندى لم ينم ، كان يعلم أن شبيطة أراد له أن
يبتعد عما هو قادم من أحداث ، فى الصباح الباكر تقدم منه رجل افريقى
أسود اللون غليظ الشفتين له عينان نفاذتان ، فقال :

«هل أنت حزين على صديقك ؟!»

نظر اليه مندى وكان لايزال راقدا فلم ينهض ... همس الرجل وهو
يربت على يد مندى .

«لقد أراد أن يبعدك عن المعركة فلا تغضب منه!»

هب مندى جالسا وقد مس حديث الرجل الذى كان يتحدث اليه
بالانجليزية شغاف قلبه .

«مازلت صغير السن ، ومثل هذه المعارك لايطبقها الا من عرك

الحياة وعرفها!»

أراد مندى أن يتحدث ، أن يقول شيئا لكن لسانه التصق بسقف حلقه ... نهض الرجل من مكانه وقد أحس بعزوف مندى عن الحديث ، أطل عليه من وقفته وهو يهمس :

«هل أنت مسلم؟!»

«نعم!»

قالها مندى في لهفة ... فهمس الرجل :

«أنا أيضا مسلم!»

وعندما رأى تلك النظرة الغريبة في عيني مندى ابتسم عن اسنان

شديدة البياض وهو يتلو بالعربية :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا

رسول الله!»

هم مندى بالنهوض فوضع الرجل يده على كتفه وتلفت في العنبر

ناظرا الى الرجال الذين كانوا قد بدأوا يغادرون أسرهم وعاد يقول :

«لا تخبر أحدا بهذا السر ... لقد أردت فقط أن أقول لك أنك

لست وحيدا!» ..

تركة الرجل ومضى فهتف مندى لنفسه :

«كيف يكون مسلما وكيف يكون اسمه موريس!»

... ..

... ..

كان الجو صحوا رغم البرودة التي كانت تدثر الدنيا من حول

الرجال ، وكانت الشمس واهنة الحرارة تبدو في السماء مثل عروس تخجل

أن ينظر اليها الناس في ليلة زفافها ، وكان مندى مستغرقا في حيرته عاكفا

على ما كانوا قد عهدوا اليه به من عمل عندما أحس وكان تيارا كهريا قد

سرى فى الجو دون صوت . استقام من انحناءته وراح يقرب الفناء الواسع وقد تناثر فيه الرجال وراحوا يتحركون فى كسل ، تساءل مندى بينه وبين نفسه عن سر هذا الاحساس الغريب الذى اجتاحه اجتياحا ، لم يكن هناك ماينبىء بشيء ، كان كل شيء هادئا ، وكان الرجال يعملون بكسلهم المعتاد ، وكان الجنود يحملون البنادق فوق اكتافهم فى استرخاء وهم يسرون بين الرجال شأنهم كل يوم ... فما الذى حدث؟! .

«صباح الخير يارفيق»

كان هذا هو كومارو الهندى السبخى الذى يربى ذقنه ولا يخلق شعره ويصففهما معا بطريقة كانت تدهش مندى دائما . ابتسم مندى وهو يرد التحية وعاد كومارو يقول :

«رغم أنى لأدخن . ولا أحب التدخين ، بل انه عندنا حرام ...

ألا أن بى رغبة عارمة فى المعصية؟!»

لم يفهم مندى ماكان يقوله كومارو ...

كان يدهشه أشد ماتكون الدهشة أن الهنود — كل الهنود الذين التقى بهم فى مصر أو فى الخارج — يتحدثون الانجليزية بطلاقة وكأنها لغتهم ... بدأ على وجهه أنه لم يفهم فراح كومارو يعيد مقاله مرة أخرى بكلمات أبسط ، ابتسم مندى وقد أدرك مايريده الرجل ، فمد يده فى جيبه متسائلا :

«هل تريد سيجارة؟!»

«لا لا .. لست أريد سيجارة ، فأنا لن أدخن وان كنت أريد

ذلك؟!»

انتابت مندى الحيرة وهم بالحديث عندما علت فى الفناء صيحة

السارجنت كوبر :

«هيه ... أنتما هناك!»

التفت مندى وكومارو وأيديهما تعملان بسرعة وكأنهما يعرفان ما

الذى سوف يقوله كوبر ... عاد السارجنت يصيح :

«عودا الى عملكما وكفا عن الثثرة والا ...»

صمت كوبر فلقد اطاع مندى وكومارو وانحنيا على بعض المعدات
يحملانها الى أحد اللواري الواقعة في الفناء ... عاد كومارو ، فورا الى
الهمس :

«منذ رأيتك وأنا أريد أن أقرأ كفك !»

تهلل مندى في بداية أيامه في المعسكر عندما رأى كومارو وهو يقرأ
أكف الرجال لكنه لم يجزؤ على الاقتراب منه ... في لحظة تذكر يوم أن
أمسك كومارو بيد شبيطة ونظر فيها فارتدت ملامحه ورفع عينيه اليه ...
وعندما طال صمته صاح فيه شبيطة في سعادة ومرح :

«تكلم أيها الرجل ، ماذا رأيت ؟!»

في اختصار قال كومارو :

«ملاك الموت !»

ضحك شبيطة وصاح بالعربية :

«كلنا ليها !»

ولم يفهم واحد من الرجال — سوى مندى — صيحة شبيطة ،
تبادل الجميع النظرات وبدت في عيني كومارو نظرة دهشة ... فعاد شبيطة
الى الحديث مفسرا :

«هل ستموت يا كومارو ؟!»

قال كومارو :

«بالتأكيد !»

ضحك مندى فسبحت ضحكته مرحة في أرجاء العنبر وقال :

«وأنا أيضا سأموت !»

بدت فلسفة شبيطة وكأنها أعجبت كومارو فابتسم . وعاد شبيطة

الى الحديث :

«كلنا سنموت يارفيق!»

يذكر مندى هذا جيدا . يذكره الآن ويتساءل كيف نسيه ، حدث هذا في اليوم الثالث لدخولهما السجن ، وكان كومارو يقرأ كف شبيطة وكان مندى يجلس بجواره ، جذب شبيطة يده من يد كومارو وهو يخاطب مندى ساخرا :

«كذب المنجمون ياوله!؟»

ابتسم مندى وهو يردد مقاله شبيطة : «كلنا ليها يامعلمى!»

عاد شبيطة يقول :

«الراجل ده بيضحك على عقول الخلق ... قال ايه آنى حانموت ،

طب ما آنى لازم حانموت!»

كان مندى سعيدا بالعودة الى الحديث مع شبيطة ، جلس كل منهما على فراشه ... غير أن سحابة طافت بوجه شبيطة ، سحابة حزينة حقا . لكنه سرعان ما زفر وهو يلقي بنفسه فوق الفراش كمن يهرب من شبح ، وجاء صوته خافتا عميقا :

«الأعمار بايده هو .. بايده هو!»

... ..

... ..

تذكر مندى كل هذا وهو يحمل صندوقا ثقيلًا ساعده كومارو في

حملة وهو يهمس :

«أريد أن أقرأ كفك!»

«ولم لم تفعل يا كومارو»

«لأنى خائف!»

قال كومارو هذا وهو يقفز الى اللورى كى يتلقى الصندوق من فوق

كتف مندى غير أنه للحظة ، جمد فى مكانه ... وأحس مندى بالثقل

بضغط على ظهره فصاح :

«خذ الصندوق عنى يا كومارو !»

غير أنه ، وهو يزيح الصندوق عن كتفه الى اللورى ... دار برأسه الى أقصى الفناء ، وهناك رأى شبيطة .

تخلص مندى من حملة ووقف فى مكانه ينظر الى شبيطة الذى كان يقف أمام جندى يحمل بندقيته فوق كتفه ، كان كومارو هو الآخر يقف فوق اللورى وهو يرقب شبيطة لكنه كان يتمم بكلمات لم يفهما مندى ... رفع مندى اليه رأسه وكان كومارو الآن يهتف وهو ينظر الى الناحية الأخرى من الفناء :

«يا الهى !»

استدار مندى الى حيث كان ينظر كومارو فذق قلبه بعنف وصرخ بكل ما فى حنجرتة من قوة :

«حاسب ياريس شبيطة !»

غير أن كل شىء تم بسرعة غريبة ...

كان روى ينطلق عدوا بكل قواه نحو شبيطة ، كان قد ترك ما فى يده وراح يخترق الفناء غير عابى بصيحات السارجنت كوبر وهو يهتف به أن يقف ... وكان شبيطة ، عندما سمع صيحة مندى قد التفت ... لكنه لم يكن يملك من الوقت مايمكنه من الحركة ، فلقد وصل اليه روى ، انقض عليه ، وغرس فى صدره سكيناً ، فدوت صيحة شبيطة فى سماء الفناء ، صيحة مكتومة مليئة بالألم ، لكنها كانت أيضا ... صيحة مبتورة .

فى تلك اللحظة بالذات ، سبحت سحابة وحيدة فى سماء المكان . فحجبت قرص الشمس الواهن ، وساد الدنيا لون رمادى حزين ... وكان شبيطة يهوى إلى الأرض لأول مرة ... وكان مندى يعدو نحو روى وهو يصرخ كالمجنون ! .

• الصورة الثامنة عشرة •

تم كل شيء في لمح البصر . وقبل أن يصل مندى الى روى الذى كان يقف الآن والسكين في يده يقطر دماء وقف في طريقه عشرات من الرجال ومن جنود الامبراطورية ، ظل يصرخ ويصرخ ويسب ويلعن ويضرب ويتلوى ويحاول التخلص من عشرات الأيدي التى أحاطت به . كان يقفز الى أعلى فيرتفع جسده وتلتقط عيناه وجه شبيطة الشاحب الراقد فوق الأرض ، فيزداد جنونه ، فيهوى الى الأرض محاولا التخلص ممن أمسكوا به دون جدوى ... دون جدوى ... دون جدوى ..

وكما تم كل شيء في سرعة شديدة ، اختفى روى عن الأنظار في سرعة أشد ، اختطفوا السكين من يده وقيدوه وصحبوه الى حيث لا يدري مندى ولا يعرف ولا سبيل الى الوصول اليه ، لكن وجهه هذا البغيض ، وابتسامته هذه الساخرة ، أبدا لم تفارق خيال مندى الذى أصبح الآن راقدا فوق فراش في مستشفى صغير ، وقد عادت تريزا اليه مرة أخرى ، وأطلت عليه ابتسامتها .

بدت له الدنيا كتيبة بلا معنى ، بدت له الحياة سوداء اللون ذات أنياب لا ترحم ، تذكر زغدانة فدمعت عيناه ، ومنذ أن خطفها جنود

الامبراطورية ، عرف هو طعم الدم ، ومنذ أن حدث ما حدث في السفينة ،
ومنذ أن قتل الجنود الثلاثة والدم يلاحقه ، في كل مكان يلاحقه ... ولكن
لابأس من قليل من الدم مرة أخرى وليكن ، حتى نهاية العمر ، ذا هدف
واحد ، هو أن يقتل روى ...

تماما مثلما كانت تحتزن زغدانة الآن في صدرها ، ومنذ أن هربت
من كفر الزيات وصعدت الى القطار ، منذ أن التقت بهذا الكمسارى
الطيب القلب الذى البسها معطفه وغسل لها جلبابها وواعدها في ميدان
السيدة زينب بعد أن أعطاها القروش العشرة ، لكنه لم يأت ... منذ تلك
اللحظات وزغدانة لاتفكر الا فيما كان يفكر فيه البحار مندى ، ولقد
كان كل مهما بعيدا عن الآخر كل البعد ، قريبا من الآخر كل القرب ،
يفكر في نفس الشيء ، أن يلاحق الدماء كما لاحقته الدماء ، وأن يصبغ
الحياة باللون الأحمر ... وكما كان مندى — وهو راقد في فراشه في المستشفى
— يفكر في كيف يقتل روى ، كانت زغدانة الآن ، حيث أصبحت في
مكان لم تعرفه ولم تسمع عنه ، تفكر في شيء واحد ... أن تقتل من
عساكر الانجليز ، كل من يسقط في يدها ..

عندما فتح مندى عينيه وجد نفسه في المستشفى ، وكان وجه تريزا
يطل عليه :

«آنى فين ؟!»

امتدت يدها الى جبينه ، وأطلت من عينيها نظرة حزن عميق
وعمست بالانجليزية :

«لاتتحدث كثيرا .. انت متعب !»

«آنى فين ؟!»

«استرح ولسوف اقصر عليك كل شيء!»

«ماتكلميني عربى ياتريزا!!»

ازداد صوتها خفوتا وهى تقترب منه :

«مندى ... انت مريض ... اغمض عينيك ... اغمض عينيك

ونم ولسوف تعرف كل شيء!»

قبل أن يفتح مندى فمه بالسؤال مرة أخرى ، اقتحم الغرفة طبيب

أحمر الوجه ، صارم التقاطيع . قال :

«هل أفاق؟!»

ابتعدت تريزا قائلة فى أدب :

«نعم ياسيدى!» ..

وقف الطبيب ناظرا نحو مندى ممسكا برسغه :

«كيف انت أيها القاتل الصغير!»

هم مندى جالسا فى فرع :

«قاتل؟!»

انتفض الطبيب مبتعدا عنه هاتفا فى تريزا :

«نادى الحارس فى الخارج!»

«أنا لم أقتل أحدا!»

قال الطبيب :

«نعم نعم .. اذن فاهدا!» .

عادت تريزا ومعها أحد الجنود ، وكان يحمل على كتفه بندقية ...

وقف أمام الطبيب :

«نعم ياسيدى!»

دون أن يحول الطبيب عينيه عن مندى ، قال مخاطبا تريزا :

«الى الحقنة!»

فى سرعة ، كانت تريزا ، فى ركن الغرفة تعد احدى الحقن ... قال

الطيب :

«انه لايزال فى حالة هياج ، اعطه هذه الحقنة أيضا !»

تقدمت تريزا من مندى ، همست :

«أعطني ذراعك يامندى !»

فى عينها نظرة حنان أذابت توتره ... فى حركتها حنان جعله يعود الى رقدته ، فى صوتها دموع لا تخطئها اذن رجل حتى ولو كان رجلا صغيرا ، شمر عن ذراعه وهو يهمس لها وقد مالت عليه :

«لكنى لم أقتل أحدا .. لم اقتل أحدا !»

غرست الحقنة فى ذراعه ... وبدأ الخدر يسرى فى أوصاله ، وكان يردد أنه لم يقتل أحدا ... و ... وبدأت المرثيات تتداخل فى عينيه ، ومن بعيد ، من بعيد جاءه صوت الطيب وقد اقترب منه وجهه هائلا متداخل الملامح ، وكان يقول :

«بل قتلت أيها السفاح الصغير ، قتلت جنديا من جنود صاحبة

الجلالة !»

وغامت المرثيات ، وذابت الأصوات ، وراح ... راح مندى !..

وكان كل مافيه يردد بلا صوت :

«أنا لم أقتل أحدا .. لم اقتل أحدا !»

رغم الاظلام ، ورغم الغارات ، ورغم المصاييح الزرقاء ... كان الشارع يموج بالأضواء والموسيقى وصيحات السكرى وديب أحذية جنود الامبراطورية ... وكانت زغدانة هناك . فى شرفة البيت الذى قادتها اليه تلك السيدة الغريبة التى التقت بها فى السيدة زينب ، ترقب كل شىء فى صمت وتفتح عينها جيدا حتى تعى كل شىء وترى كل شىء ، وتفهم كل شىء ... وعندما حدث ما حدث لها بجوار الضريح ، وتجمع الناس من

حولها ، كان لابد للمولد أن ينفض في ساعة ... غير أن المولد انفض في لحظة غريبة وجدت رأسها فيها ، وهي تتحب وتهمر دموعها بغزارة لم تعرفها من قبل ، وجدت رأسها فوق صدر تلك السيدة التي راحت تبسمل وتحوقل وتصلى على آل البيت وتقرأ في أذنها قرآنا وتربت على ظهرها وكتفها وتسألها عما بها .

انفض المولد عندما صاحت السيدة بجمع الناس الذين سدوا منافذ الهواء على زغدانة :

«ياناس حرام عليكم .. شوية هوا»

واخترق الجموع شيخ يحمل قلة ، أخذ منها ماء ورشه على وجه زغدانة فانتفضت ، نظرت حولها فاذا الرعوس ملتفة حولها ، واذا العيون تحملق فيها ، واذا صوت السيدة يصيح مرة أخرى في الناس أن ينفضوا فانفضوا في بطاء وتراخ وكل منهم يدعو الله أن يجنب المسكينة العذاب ...
قالت السيدة :

«مالك يا ضنايا !»

كان صوتها حنونا حنونا ... فانهمر الدمع من عيني زغدانة دون كلام .

«قومي يا حبيبتى !»

بذلت كل جهدها كي تنهض فنهضت .

«انتى غريبة عن هنا يا بنتى !»

سارت معها وهي تهز رأسها ايجابا !

«مالكيش حد فى مصر !؟»

غادرت معها المسجد وهي تهز رأسها نفيا ..

«لا حول ولا قوة إلا بالله ... وحاتعملى ايه يا بنتى !»

راحتا تعبران ميدان السيدة في طريقهما الى محطة الأوتوبيس ، وكانت
زغدانة تهمس :

«أنا حاستنى عم رشاد على محطة الاوتوبيس!»

«مين عمك رشاد ده؟!»

«الكمسارى بتاع القطر!»

«وده يقرب لك!»

«لأ» ..

«تعرفيه مين؟!»

«من القطر!»

«وحاتستنيه ليه?!»

نظرت زغدانة اليها في صمت ... امسكت السيدة بذراعها وادارتها
حتى واجهتها :

«انتى اسمك ايه?!»

«زغدانة!»

«من أى بلد?!»

«اسكندرية»

«وايه اللى جابك مصر?!»

وكان لابد لزغدانة ان تقص عليها الحكاية ... فى انكسار قصت
عليها قصة ركوبها القطار ... اشترت السيدة خبزاً وطعمية وقدمته لها :
«خذى كلى!»

أحست زغدانة بالخطر لسبب مجهول ، وعادت المرأة الى
الحديث :

«انا حاقعد معاكى لحد ماييجى اللى اسمه عمك رشاد ده واشوفه

بنفسى!»

نظرت اليها زغدانة غير فاهمة ، فعادت السيدة تقول :
«انتى وحدانية ... والزمن يابنتى بقى غير الزمن ، وابن الحرام
ماخلاش لابن الحلال حاجة !»

همت زغدانة بالحديث لكن السيدة استطردت :
«والانجليز ماليين البلد وكل من حى عاوز ينهب له قرشين ان شا
الله على حساب روجه !»

راحت زغدانة تمضغ فى صمت :
«أنا كان لى بنت لو عاشت كانت حاتبقى قدك !»
أخذ عقل زغدانة يعمل فى سرعة . ماذا تريد هذه المرأة ؟
«أنا عايشه مع عمك مدبولى لوحدينا ... ان ماجاش الكمسارى
تعالى معايا !»

لم يكن امامها سوى الاستسلام .

«شوفى يابنتى ... احنا عندنا قهوة فى عماد الدين !»

وكانت هذه هى المرة الأولى فى حياة زغدانة التى تسمع فيها باسم
شارع عماد الدين ... لكنها فى تلك اللحظة التى سمعت فيها اسم
الشارع ، لم تتصور أن هذا الاسم بالذات ، وهذا الشارع على وجه
الخصوص ، سوف يكون لهما فى حياتها شأن وأى شأن .

ولقد انتظرت مع الست عنايات حتى كادت الشمس تغيب دون
أن يظهر عم رشاد ... غمغمت الست عنايات أن زوجها سوف يقلق
عليها ، لقد أخبرته أنها ذاهبة لزيارة السيدة للوفاء بنذر كانت قد نذرته ...
ودارت زغدانة بعينها فيما حولها ، وهزت رأسها كمن تقول : انها لن تخسر
أكثر مما خسرت .

ونهضت مع عنايات !

وها هو النهار قد انقضى ، وهاهو الليل قد جاء بعد أن غادرتها
لست عنيات مع عم مدبولى الى المقهى القائم غير بعيد عن البيت .
تركها وحدها فهضت الى البيت لتغسله ، مضت ساعة وساعة وساعة
وأصبح البيت مرتبا نظيفا ، كان بيتا واسعا ، وكانت وحدها فيه ، وعندما
حل الظلام ، اقشعر بدنها من الخوف ، فهربت من خوفها الى الشرفة ،
وطالعتها الشارع بما فيه من اضواء وصيحات وضحكات وحركة كانت
تموج بلا توقف ... امتصتها تلك الحياة ، وامتألت بالكراهية وهي ترى
جنود الامبراطورية ، وامتألت بالحنين وهي تتذكر مندى ... ودمعت عيناها
وهي تذكر أحمد الحمامسى ... لكن النعاس غلبها على ذكرياتها . فسقط
رأسها فوق صدرها ... واستيقظت مع آذان الفجر ، وصوت الست
عنيات يهتف :

«مدبولى ... زغدانة آهيه . دى نايمة فى البلكونه يا حبة عيني !»

كانت أيام قد مضت ، وعلم مندى أنه أصيب بانهيار عصبي ،
وأنه نقل الى المستشفى فى حالة هستيريا عنيفة ، وأنه — أيضا — ظل لأيام
يتغذى بالأنابيب ، وكلما أفاق أعطوه حقنة مخدرة أعادت اليه هدوءه .

قالت له تريزا أنها تحبه ... وقالت له أن شبيطة قد مات ، وأنه دفن
فى سفح الجبل ، وأن روى قد وضع فى زنزانة منفردة ، وأن محكمة سوف
تشكل لمحاكمته ، وأنها على يقين من أنهم سيحكمون عليه بالاعدام ...

كان كل هذا مقبولا ومعقولا ، لكن ماقالته له تريزا بعد ذلك هو
مالم يقبله عقله ، قالت له أنه مخفور ، وان جنديا يقف بباب حجرته
بالمستشفى ليل نهار ، وأنه يعتبر سجيننا ... كاد مندى يفقد عقله عندما
قالت له تريزا ماقالت ، كاد يجن عندما علم أنه ، فى هياجه هذا بعد مقتل
شبيطة ، قد اختطف بندقية من يد أحد الجنود ، وأنه انهال بها على كل

من حاول أن يمسك به أو يمنعه ، وأنه — وهنا خفق قلب مندى بعذاب حقيقى — ضرب جنديا على رأسه بمؤخرة البندقية فهشمها !

قالت له تريزا أنه سيحاكم ... وأنهم يعرفون انه لم يقصد قتل احد ... قالت ان القانون قانون ، وانهم سوف يحكمون عليه بالسجن لسنوات لن تقل عن الخمس ...

قالت تريزا الكثير ، ظلت لأيام تحكى له ما حدث ، كانت تستقى الأخبار من ابن عم لها يعمل جنديا فى السجن ... قالت له الكثير . لكنه أبدا لم يذكر أنه قتل أحدا ، لم يذكر شيئا مما قصته عليه ... وكان ينظر اليها وكأنه يصرخ بها أن تساعد ... حتى اذا كان مساء ، جلست اليه وقالت :

«مندی ... أنا أحبك !»

كان فى الأيام الأخيرة عازفا عن الحديث ، لم يعد لشيء عنده معنى ولا مذاقا ولا قيمة ، أمسكت بيده فارتجف ، خشى عليها من الموت ، خشى عليها من الدم ... لكنها همست :

«لأبد أن تفعل شيئا ؟!»

نظر اليها متسائلا ... لم يكن يدري ماالذى يمكن أن يفعله . همست :

«لأبد لك أن تهرب !»

ابتسم فى ضياع ... فلم يكن يدري الى أين يهرب . لم يكن يعرف لنفسه هدفا ولا طريقا ... نظر من النافذة فرأى الجبل الداكن اللون يطل عليه كالشبح المهيب ... ضغطت يدها على يده وعادت تهمس :

«لأبد لك أن تهرب ؟»

«الى أين !»

«إلى أى مكان !»

«وماذا بعد الهرب!»

«اذهب الى المغرب ... عبر المضيق فقط ، وستجد هناك قوما

يحدثون لغتك!»

«أليس في المغرب جنود؟»

«ان العالم كله الآن جنود!»

«قد يقبضون على!»

«وقد تستطيع العودة الى بلدك!»

ودق قلب مندى ، دق في عنف . وتذكر زغدانة ... تذكر الاسكندرية والميناء ورصيف النورس ... تذكر أباه وأباها وأمه وأمها والصحاب والشوارع والحوارى واشتاق لطبق من الفول ...

«سوف ارتب لك الأمر!»

وكانت هذه هي آخر جملة قالتها تريزا قبل أن يحدث ما حدث بعد ذلك . قالتها وهي تطبع على شفثيه قبلة رقيقة ، وكانت عيناها دامعتين !

بدا له الأمر وكأنه حلم لاعلاقة له بالواقع ، وعندما همست تريزا بأن عليه أن يهرب ، لم يفكر في الأمر ولم يعره اهتماماً ، كانت كلما اعطته حقنة استسلم وترك نفسه لأحلام كانت تدور حول الرئيس شبيطة الذى كان ، فى — رقدته تلك على أرض السجن ، ووجهه الشاحب هذا الذى طالعه وهو يمد له يداً مرتجفة تطلب النجدة ... وكان مندى — فى هذا الحلم المتكرر — يمد يده نحو يد صديقه دون جدوى ، كانت يده دائماً لاتصل الى يد صديقه ، فكان يصرخ منادياً عليه ، يصرخ ويحاول ويصرخ ويحاول ، حتى كاد — ذات حلم — أن يلامس اليد الممدودة . فاذا به يستيقظ وهو يتصبب عرقاً ، وانفاسه تتلاحق ... وكانت تريزا تجلس على حافة الفراش وقد أخذته بين ذراعيها وهي تربت على رأسه هامسة فى أذنه أن يهدأ ... وعندما انتبه مما كان فيه ، كانت هي تبسم قائلة :

«مندی ... انها أنا!»

«كم الساعة الآن؟!»

«جاوزت منتصف الليل!»

«هل كنت أحلم؟!»

«ولكن عليك أن تستيقظ الآن!»

«ماذا؟!»

«عليك ان تستيقظ يا حبيبي!»

سرى همسها الحنون الى اذنيه فاستراح ، نظر اليها وتعجب ، كان يرى الحب في عينيها واضحاً ، رغم الليل والضوء الخافت والسكون . وكانت يدها تمسح على وجهه في حنان .

«ماذا هنالك ياتريزا!»

«اخفض صوتك ... فلسوف تهرب الليلة!!»

انتفض مندى وهو ينظر اليها في دهشة ... عادت تهمس :

«لقد ربت كل شيء مع ابن عمى!»

«ولكن ... كيف سنخرج من هنا!»

«لقد اتيت اليك بملابس ثقيلك البرد!»

«والحارس الجالس في الخارج؟!»

«سوف تخرج من النافذة ونعبر حديقة المستشفى حتى السور

الشرقي ، وهناك سنجد خوان!»

«من هو خوان هذا؟!»

«انه ابن عمى ... كف عن الحديث ، وانهض لتستبدل

ملابسك ، واياك أن تصنع أى صوت ، فلسوف أغادر الغرفة كي اطمئن

الى نوم الحارس تماما ، ثم أعود اليك بعد خمس دقائق!»

شعر مندى وكأنه يتجمد في مكانه ، راح يحملق فيها غير

مصدق ... عادت الى الهمس وهي تهتف :

«مندی . ليس هناك وقت !»

«وماذا اذا ماأحس بنا الحرس !»

«لا تخف . لن يشعر أحد باختفائك الا في الصباح !»

«والى أين سأذهب !»

«سوف تعبر الحدود الى اسبانيا مع مطلع الفجر ، فقط ، عليك

أن تسرع !»

قالت هذا وغادرت الغرفة في خطوات ثابتة ... اغلقت الباب

خلفها وسمعها تضحك وهي تقول :

«انه نائم كالطفل ، ولقد أعطيته حقنة أخرى !»

وجاءه صوت الحارس مرحا :

«اذن ، فأنا استطيع النوم !»

وتعالت ضحكات تريزا وابتعدت خطواتها وعاد السكون يسود

المكان تماما .

لكنه كان لايزال جالسا في مكانه مسمرا ... سمع صوت أنفاسه

فاضطرب ، تعلقت عيناه بالباب ، فتحرك جسده رغما عنه ، كأن قوة

خفية تدفعه الى النهوض ، كأن عشرات الأيدي تساعد على خلع ملابسه

واستبدالها بتلك الملابس الصوفية الملقاة عند طرف الفراش ، اصطدمت

قدماه العاريتان بحذاء ضخم كان موضوعا فوق الأرض ، دس قدميه في

الشراب الصوفي السميك وهم بارتداء الحذاء عندما سمع نقرأ انتفض له

تماما . دق قلبه بعنف بالغ . عاد النقر من جديد فالتفت نحو النافذة

المطللة على الحديقة ، نهض اليها متلصصا فاكتشف في ظلام الليل وجه تريزا

من خلف الزجاج وكانت تشير اليه أن يفتح النافذة ... امتدت يده ، وفي

حرص بالغ كان يفتح النافذة فهب من الخارج تيار هواء شديد البرودة

فارتجف لكن حواسه كلها انتبهت مرة واحده ... همست تريزا في عجلة :

«هيا ... ليس هناك مزيد من الوقت!»
وقف جامداً لثوان لايدرى ماذا يفعل ، لكن صوتها عاد مرة أخرى
كالسوط يلهب ظهره :

«هيا يامندى ... هيا!»

انحنى على الأرض والتقط الحذاء ، وصعد الى قاعدة النافذة وسرعان
ما كان في الحديقة ... وعندما جاءه صوت تريزا الآن ، جاءه أمرا ، كأنها
أصبحت امرأة أخرى ، كأنها أصبحت انسانا آخر :

«ضع قدميك في الحذاء وأربطه جيدا فان المشوار أمامنا طويل!»
ما أن انتهى من وضع قدميه في الحذاء حتى مزق الصمت صوت
سيارة تدخل من باب المستشفى فى سرعة بالغة والأضواء الزرقاء تسبقها .
وضعت تريزا يدها على رأسه فانكمش منحنيا خلف شجيرة صغيرة ،
وكانت هى الأخر قد انكششت الى جواره . قالت :

«لابد أن شيئا قد حدث فى الميناء!»

وقفت السيارة أمام باب المستشفى ، وهبط منها بضعة جنود فتحوا
بابها الخلفى وراحوا يحملون بعض الجرحى قالت تريزا :
«اتبعنى ولاتردد ... فسوف يقتلوننا لو انهم امسكوا بنا ...
هيا ... الآن!»

قالت هذا وتركته عدوا الى حيث السور الشرقى للمستشفى ...
وكان مندى يعدو خلفها ، حتى اذا وصلا الى السور ، التفتت اليه
لاهثة :

«ارفعنى الى أعلى السور ولا تضيع الوقت!»

شبك يديه منحنيا فوضعت قدمها فوقهما ... وسرعان ما كانت فى
أعلى السور وهى تهمس :

«خوان!»

وجاءها الصوت من الناحية الأخرى :
«لماذا تأخرت !»

التفتت نحو مندى وهي تقول :
«هل تستطيع أن تقفز الآن »

وسرعان ما كان مندى يتدلى من الطرف الآخر الى الشارع ...
وهناك وجد رجلا كث الشعر كث الشارب يضع على رأسه طاقة صوفية
تغطي أذنيه وجبهته ... قال الرجل في سرعة :
«هيا ... اتبعاني !»

وراح الرجل يعبر الطرقات والأزقة في سرعة شديدة . وكان مندى
يتبعه ، ويد تريزا تمسك في يده ، وكانت برودة الجو شديدة !

...

قالت الست عنايات :

«عاوزة تيجي القهوة ليه يازغدانة !؟»

قالت زغدانة :

«مانا بقى لى فوق التلات جمع وانا قاعدة فى البيت ياخالتي !»

ابتسمت عنايات وهي تقول :

«بس القهوة مش ليكى يابنتى !»

«أبويا كان فاتح قهوة !»

ضحكت عنايات وهي تقول :

«قهوة أبوكى حاجة وقهوتنا حاجة تانية !»

«وأنا اللي كنت بأخدم فيها !»

«ولو !»

«وأنا اللي كنت باودى الطلبات للزباين فى المراكب وعلى الرصيف

النورس !»

«زغدانة!»

«انتى خايقة على؟!»

«الانجليز ماليين الشارع يابنت الناس!»

«وماله ... فيها ايه دى ... ماهم ماليين البلد كلها!»

كانت لهجة زغدانة هذه المرة ذات نغمة خاصة ... نظرت اليها الست عنايات نظرة ثاقبة كمن يحاول أن يستشف ما وراء تلك النبرة الغريبة الصارمة ... همت بأن تقول شيئاً عندما عاجلتها زغدانة قائلة :

«طب ما انتى بتقعدى فى القهوة مع عم مدبولى للساعة تلاتة

الصبح!»

«أنا جوزى معايا!»

«طب مانتو الاتنين معايا!»

وضعت الست عنايات يدها فوق يد زغدانة فصاحت هذه :

«أنا زهقت من قعدة البيت!»

«بس انتى حلوة!»

«وماله!»

«ولاد الحرام كثير!»

ابتسمت زغدانة وقالت فى صوت شديد الجفاف :

«ما تخافيش على!»

واستسلمت الست عنايات . وابتسمت وهى تقول :

«طب قومى البسى الفستان اللى اشتراهولك عمك مدبولى . محدش

عارف ربنا مخبى لنا ايه؟!»

كانت سبعة أيام قد انقضت منذ هرب مندى من المستشفى .. وكان قد عبر مع تريزا ، وابن عمها جبالا ووهادا وممرات . وكانت أقدم

الثلاثة قد تورمت تماما ، عندما وقفوا جميعا فوق ربوة عالية يطلون منها على شاطئ البحر ، حيث كانت مدينة صغيرة تقوم في حوض الجبل كأنها مدينة للأقزام ... هتفت تريزا وهي تسأل ابن عمها :
«قرطاجنة؟!»

هز ابن العم رأسه ايجابا وهو يقضم عودا جافا كان بين أسنانه .
«هل تعرف بيت كارلوس؟!»

هز ابن العم رأسه مرة أخرى ايجابا وهو يسعى بين الصخور هابطا في منحدر كان يبدو شديد الخطورة ، لكنه غمغم مستديرا نحوهما :
«عليكما أن تنتبها جيدا . ان الطريق خطر!»
ابتسمت تريزا وهي تستدير نحو مندى قائلة :
«لقد نجونا يا حبيبي!»

وعندما همت بالسير أمسك مندى يدها ، وراح ينظر اليها في عرفان ، التفتت اليه متسائلة فقال :
«هل انت واثقة من انك تريدان اصطحابي؟!»
قالت ضاحكة :

«فات أوان التراجع يامندى ... وفي هذه القرية ، سوف تجد قاربا تعمل عليه لتكسب لنا قوت يومنا!»
«تريزا!!»

صرخت فيه تريزا :
«لولا أنني عدت الآن الى جبل طارق فلسوف يحكمون على بالسجن لأنى ساعدتك على الهرب!»
ثم استدارت ومضت ... وكان مندى ، وهو يخطو خلفها فوق أرض المنحدر المليء بالصخور ، يشعر وكأنه يولد من جديد !

كان الوقت صباحا عندما وقفت زغدانة أمام عم مدبولي والست
عنايات . وكان الرجل وامرأته ينظران اليها في اشفاق بالغ ، أمامهما صينية
القهوة ، وكانا صامتين ، أما هي فكانت باسمه .

«نازلة يا زغدانة !؟»

«أنا اسمي ليلي ... انتي نسيتي يا خالتي !؟»

نهضت عنايات من مكانها مرتجفة وهي تصيح :

«أنا مش فاهمة بديعة عاوزه منك ايه !؟»

«عاوزه تعلمني الرقص !»

قال مدبولي :

«وحاترقصي !؟»

«لازم آكل عيش يابا !»

قالت ماقالته وهي تشعر ، ربما لأول مرة في حياتها ، أن لها أبا بكل

ما تحمل الكلمة من معنى ... كان مدبولي ينظر اليها في حب واستسلام :

«طب خلى بالك من نفسك !»

«طول ما انتوا معايا انا مش ناعية هم حاجة !»

صاحت عنايات :

«وحاتقولي للناس ايه !؟»

«حاقول لهم أن انتوا أهلي ... أبويا وأمي !»

تقدمت منها السيدة عنايات في حنان :

«زغدانة !»

«اسمي ليلي يا أمه ... ليلي كريم ... انتي نسيتي !»

كانت زغدانة تبتسم ... فابتسمت عنايات ، وعادت الى مجلسها

مستسلمة :

«خلصي البروفة وتعالى على القهوة !»

«حاضر ... فتكم بعافيه !»

وعندما كانت زغدانة تخطو خطواتها الأولى في شارع عماد الدين مرتدية ذلك الفستان ذا اللون الأصفر ، راحت تدب فوق الأرض وهي تشعر وكأنها تولد — هي الأخرى — من جديد ... وكانت هذه المرة تعرف الطريق جيدا الى حيث كان كازينو بديعة يقوم في ميدان الأوبرا ، كأشهر مكان في مصر في تلك الأيام ... ولم تكن تدري ، ان رحلة العمر قد اتت الآن الى منحني جديد ، وخطر ، ورائع ... لكنها أبدا في ذلك الصباح ، لم تذكر مندى ..

- مايو — أغسطس — ١٩٧٨ •
- القاهرة •

القرش

— ١ —

... وهكذا لم يعد أمامنا سوى أن ننتظر معه وعيوننا معلقة بالسناارة العارية عند السياج الخلفى ... وهكذا تناثرنا من حوله فوق سطح السفينة وقد تمزقت ملابسنا ونزفت دماؤنا ، وتسليخت جلودنا وتورمت أقدامنا وتشققت شفاهنا ، وتحجرت النظرات فى عيوننا ... وأصبحنا — بين يوم وليلة — كالجثث الحية على سطح سفينة نقد وقودها ، وأقتلعت صواريخها ، ودمرت غرفة قيادتها ، وأتلفت بوصلتها ، ونفذت المياه الى أجزاء منها .

ولم يعد يعنينا أن نعد الأيام ، فلم يكن ذلك فى الحقيقة ممكنا ... اختلط الليل بالنهار ، وأظلمت السماء وتلبدت بغيوم كثيفة داكنة حجبت عنا الشمس والنجوم وأصبحنا نحسب الزمن كلما طالت ذقوننا واسترسلت شعورنا ... كنا معلقين فى فضاء بلا شاطئء فى انتظار معجزة!

... وهكذا مرت العاصفة بعد أن دمرت كل شىء وتركت السفينة كقطعة من الحديد الممزق العائم فوق سطح مجهول بلا حول ولاطول ، وأمواج البحر تسحبنا الى ظلمات لاعهد لنا بها ... حتى الاسماك اختفت ، وشح الطعام فى السفينة . وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كل يوم ، وتناقصت مياه الشرب فأصبح الحصول

على رشفة منها كنزا لا تعادله كنوز الأرض ... وقد الكثيرون أعصابهم ،
وفقد البعض عقولهم فالتقوا بأنفسهم في المياه مؤثرين الموت وهم يصرخون
صرخات مجنونة ... وأمر القرش بإطلاق الرصاص على رجل حاول أن
يغتصب لنفسه كوبا من المياه بالقوة !

وهكذا لم يعد أماننا سوى أن ننتظر مع القرش طوال الزمن الرتيب
ونحن نحملق في الافق الداكن نرقب قدوم المستقبل ونتسمع الى خطواته في
حفيف الرياح ، وأسنام الموج تمضى من حولنا في وشوشة يبتلع الفضاء
صداها ... ومع الزمن ثقلت حركة الرجال ، وبقي كل منا في مكانه فوق
السطح يرقب القرش القابع بجوار السلك الطويل الممتد من الونش حتى
مؤخرة السفينة ، في نهاية السلك سنارته الطويلة المعلقة في الهواء بلا طعم
تكاد أن تلامس سطح المياه دون أن تغوص فيها ... وكان القرش يظل في
جلسته هذه بالساعات وقد تسمرت قدماه العاريتان فوق السطح ،
وارتكن بذراعيه فوق ركبتيه ، ورأسه مشرع الى الامام ، وعيناه تبرقان وهما
تتطلعان الى مياه البحر الساكن تماما !

* * *

كانت بداية رحلتنا هذه كبداية كل رحلة سبقتها ... ساعة الرحيل
بضجيجها وصخبها وهدير الآلات والأوناش وصيحات الرجال وصرخات
القرش تملأ سطح السفينة ، وتبدو العنابر مفتوحة وكأنها معدة هائلة
لكائن لايشبع ، ويبدو الرجال على السطح وفوق الصواري والحبال
كالقرود ، وعلى الرصيف جموع المودعين والأصدقاء والزوجات والعشيقات
وكلمات الوداع وتوصيات التحية مع الفرحة الممزوجة بألم الفراق ، ثم تدوى
صفارة السفينة زاعقة زعقة الرحيل فيزداد الهدير ويتسلق القرش الصارى
الكبير وتبرق عيناه بالفرح الهائل وهو يصيح في الرجال فيلهب
حماسهم ، ويلوح بذراعيه الى المودعين فترتفع له عشرات الأذرع ...
وتتحرك السفينة في ببطء لتغادر الرصيف الى مياه الميناء الضحلة وهي تمز

ازيزا خافتا ، وتهدر الآلات في جوفها ذلك الهدير الصاحب حينما الهادىء
حينما آخر ... حتى اذا استقبلت باب البوغاز وابتعد الرصيف خفتت
الأصوات ، ومالت الشمس بقرصها المتوهج نحو الغرب ، ويبدو الأفق من
بعد حاجز الأمواج صافيا شديد الصفاء ، ويختفى ذلك الضباب الذى
يصنعه غبار الموج عادة ، وتبدو الأعلام الملونة على صارى السفينة مرفوعة
في شموخ ، وتسبح صيحات القرش في سماء الميناء بهدير له نغم الموج
العالى :

«لم البارومة في البروة!»

«اسحب الواير على الونش في الإش!»

«اقفل العنابر وأرمى المشمع يابحرى!»

وقبل أن تبدأ الخطوة الأولى في رحلة آلاف الأميال ، يصبح

القرش من مكانه العالى :

«ادينى تمام على الفلايك ياريس!»

وقتها ... ينتظم الهدير في جوف السفينة ، ويستقبلها الموج في
صفعات رقيقة ، وتمايل السفينة يمنة ويسرة ، وتبدأ الشمس في ملامسة
حافة الأفق ، وكلما انحدر قرصها كلما كبر وازداد اتساعه ، حتى اذا
اختفى نصفه بدأ النصف الآخر كبوابة أسطورية لعالم دافىء ... وتدور
السفينة يعد انطلاقها من الميناء الى عرض البحر الواسع ، لتتجه نحو
القرص الذى يبدو وكأنه يستعد لاستقبالنا في نهاية الرحلة !

— ٢ —

هكذا كانت بداية رحلتنا كبداية كل رحلة ... وهكذا أصبحنا في
عرض البحر ننتظر ليالى القرش الصاخبة وحكاياته وحديثه ونحن نتطلع اليه
وهو جالس على سطح السفينة يعد سنارته للصيد العظيم ... وهكذا
كان حاله دائما ... فما أن تغادر السفينة مياه الميناء ، وينتظم الهدير في

حرفها حتى ينكب القرش على السنارة التي لا يعرف سرها الا هو .. كان
يجلس على السطح ليعمل بيديه وقدميه معا ، يمسك سلكها الرفيع
الصلب بأصابع يديه وقدميه ، ويعكف عليها بالساعات في صمت فيبدو
وكأنه يصلى في معبد ... كان وقتها يتم بصوت خافت وكلمات
لا نستطيع سماعها وكأنه يحدث شيئا ... كنا نرقبه وقد تحولت ساقاه الى
ذراعين ، وقدماه الى كفين ، فاذا هو كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيدي
ورقبة عريضة مربعة بارزة القسماات وكأنها قطعة من صاري صغير ركبت
على الجسد لتحمل فوقها رأس سمكة بشرية ...

في مثل تلك اللحظات ، لم يكن احدنا يجرؤ على الاقتراب منه أو
الحديث معه ... وفي مثل تلك اللحظات كان الرجال في الموانئ وعلى
أرصفة الموانئ يصخبون ويشربون ويدخنون وهم يتحدثون ويؤكدون أن
القرش سيصطاد هذه المرة ، وتثرثر النسوة في بيوت الموانئ والواطئة ، وفي
الحواري والأزقة . وهن يجرعن كئوس الخمر الرخيص ، أو يصرخن بأصوات
مشروخة مع أنغام أغنية حزينة ، أو في أحضان بحار جلس يقص على
الرجال كيف يصطاد القرش سمك القرش الأزرق وكيف يرمى في البحر
سنارته ... وتنعقد فوق الرؤوس سحابات الدخان فيختنق الضوء ويعم
الصمت ، وينصت الجميع حابسين أنفاسهم ، ويعلق رجل تحدث مع
القرش قبل الرحيل ، وتؤكد امرأة كان لها حظ قضاء ليلة بين ذراعيه ،
وتسيطر على الأذهان أحلام الانتصار ، ويتساءل الجميع متى يصطاد
القرش سمكة القرش الأزرق ... ويؤكد البعض ، وينهض البعض وقد استولى
عليهم اليأس ، وينفض السامر وقد علق الانتظار برقاب الجميع كقدر
لامفر منه!

في مثل تلك اللحظات كان يحلو لنا أن نرقب القرش وهو جالس
على سطح السفينة وقد تخلصنا من أسر الأرض وانطلقنا في الفضاء

الواسع ... كان يجلس بالساعات منحنيا فوق سنارته الغربية ذات الطرفير المديين اللامعين كهلب صغير ... وساقها تبدو لنا على البعد كعصا ساحر ، في نهاية الساق يمتد السلك الى عشرات الأمتار ، ثم يدور حول أسطوانة الونش الصغير يملؤها ... وتمضى الدقائق والساعات ونحن ننتظر ، حتى اذا اطمأن القرش الى سلامة سنارته فاحت في الجو رائحة اللحم الأبيض النفاذة ، وبدت لنا يده وهي تحمل اللحم لتكسو ساق السنارة وطرفها كيد ساحر يأتي بالمعجزات ، تفوح الرائحة وتنفذ السنارة الى الكتلة البيضاء الناصعة وتغوص فيها ، وتضغط عليها الأصابع العريضة الشديدة السمرة ، ويبدو في عيني القرش ذلك البريق الخاطف ، وتلك البسمة التي تنبسط فوق ملامح الوجه كله ... وكان ينهض بعدها وهو يحمل السنارة في صمت ، ويعبر سطح السفينة حتى يصل الى مؤخرتها ، ثم يقف ملتصقا بالسياج يطل على الموج برأس شاخ ... ثم يرفع ذراعه بالسنارة ويملاً صدره بشهيق شه ، ويدير السنارة فوق رأسه دورات تزداد سرعتها حتى يصبح لدورانها في الهواء صغير حاد يخترق الآذان ... وتفلتها أصابع القرش فتنتلق في الهواء كالسهم ، تبتعد وتبتعد ثم تهوى الى المياه وتغوص فيها ساحبة خلفها أمتار السلك الطويل حتى النهاية .

* * *

سنوات وسنوات ونحن نعيش مع القرش ومنتظر معه ، سنوات وسنوات ونحن ننتظر في قلق وقلوبنا تخفق كلما رأينا أسماك القرش تتلاعب من حول السفينة في أسراب تعد بالعشرات ... كانت تظهر دائما كلما اشتدت الرياح وعلت الأمواج ، فتبدو لنا وكأنها نمور بحرية تقفز من قلب الموج في قوس منتظم ثم تعود لتغطس في صخب المياه من جديد ، كانت تتبع السفينة أينما ذهبت ... ويظل القرش مستندا الى السياج لاتفارق عيناه سلك السنارة الطويل الملتف حول اسطوانة الونش في المؤخرة ، وكلما اشتد بنا القلق وطال الزمن ، كلما ازدادت سرعة سمك القرش في المياه

انصاحبة ، فإذا بها تسبق السفينة ، وتلدور حولها سربا وراء سرب دون أن تقترب من السنارة . وغالبا ما كانت الأسماك تأكل الطعام لتترك السنارة غارية ، وقتها ... كان غضب القرش يتحول الى زججة هادرة وهو يطل على المياه صارخا :

«يانا يانت يأزرق يالثيم ... أكلت الطعام المرة دى تبقى غلبتنى ... لكن أنا حاغلبك والتار بيننا بايت ... وحق الموج ومن سيره لاصطادك ولو فضلت العمر مستنى!!»

ويصمت القرش ويضطرب صدره مع اضطراب الموج من حولنا ، ويصدح صوته فى فضاء البحر الواسع :

«يأزرق يا جبان ... يأزرق ... يا جباا ان!!»

كان يبدو لنا فى ذلك الوقت كسمكة تحولت الى انسان ، وكنا نحس أنفاسنا ونحن نرقبه من بعيد وصوته القوى يملأ آذاننا ويدفع الدماء فى قلوبنا ويملؤها بالحماس والرغبة والترقب ، ويظل بالساعات وهو يحمق فى الموج صامتا وسنارته تتأرجح بجواره ، ونظل ندور من حوله متهامسين ، ويسأل بعضنا البعض متى تعود أسماك القرش الى الظهور ، وفى أية مياه ؟ ... كنا دائما نستعد مع الלהفة والقلق للانتظار من جديد !!

* * *

هكذا عرفناه وهكذا أحبيناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه ... وهكذا امتد بنا الانتظار حتى حدث ما حدث ، وصمت القرش صمت البحر الآسن من حولنا ، وراح يرقب سطح المياه ويشم الهواء بأنفه ونحن متناثرون من حوله نلحق الزمن بقلق وقد تمزقت ملابسنا وتشققت شفاهنا ، وتورمت أقدامنا ، ولم يعد أماننا سوى الانتظار ... فلو اصطادت سنارة القرش لشربنا دماء السمكة وارثوينا ، وأكلنا لحمها وشبعنا ... وتجدد الأمل !!

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه ...
ولطالما جلسنا اليه في الأمسيات الدافئة فوق سطح السفينة أو في أعماق
عنبر من عنابرها ونحن نستمع اليه ونستحلب كلماته بأذاننا ... طوال
أعوام لا يستطيع أحدنا أن يعرف عددها ونحن نرقب حماسه وهفته
وانتظاره ... وما من رحلة انتهت الا وازداد شوقه الى الرحيل من جديد ،
وما من مرة رسونا فيها على شاطئء الا واستعجل الابحار بنشاط وهفة وهو
يعد العدة ويجهز الاسلاك واللحم الأبيض ويطمئن على سلامة سنارته التي
لا يستطيع صنعها الا هو ...

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه ، وهكذا التقى به كل منا
ونحن نصعد سلم السفينة بعد طول شوق وانتظار ، عندما يطالعنا وجهه
الأسمر الداكن من خلف السياج ، وتخرق نظراته العين عند أول لقاء ،
وتأسر بسمته كل القلوب ... ويمد القرش الى القادم منا كفا غليظة
الأصابع صلبة الملمس وكأنها صنعت من معدن تسرى فيه الدماء ،
ويطالعنا شاربه الكث الذي ينتشر على جانبي وجهه ككفين صغيرين
بعشرات الأصابع الرمادية ، يتربع فوقه أنفٌ نرس واسع الفتحات ، وفمه
يبدو كخط رفيع يمتد أسفل الشفة العليا من الأذن الى الأذن ، تعلو وجهه
جبهة تنزلق في انحدار شديد الميل ، ينتهى بجدارين صغيرين من الشعر
الكثيف يظللان عينيه ، وتهتز نفوسنا بالدهشة العارمة عندما نكتشف أن
رأسه كرأس سمكة القرش سواء بسواء ، ونسمع حفيف الهواء في شهيقه
وزفيره ، ونرتج لنظرات عينيه الثاقبة!

وأيا كان القادم منا فلا بد أن يتأرجح به سلم السفينة المعلق ،
ولا بد أن تزل قدمه أو يفلت الحبل من يده أو يتطوح جسده ، ولا بد أن
تنقذه صيحة القرش أو ترفعة الكف الصلبة من فوق السياج ، ثم يدوى في

الآذان صوته الهادر :

«وانت طالع السلم تخلى عينك دائما على الحبل وايدك ثابتة!»

ولا يصبح الواحد منا فى حاجة الى مصافحته ، فلا بد أن تظل
يده أسيرة أصابع القرش القوية ، وقبل أن يفتح فمه يملأ الصوت العريض
أذنيه :

«أنا القرش!»

... وهكذا تعودنا جميعا أن نناديه دون أن نقول له يا باشريس ، رغم
أنه باشريس السفينة وكبير البحارة فيها ... ولم يعرف أحدنا اسمه الحقيقى ،
ولا يدرى أحدنا ما اذا كان اسمه هو القرش حقا ، أم أنها أطلقت عليه
وارتضاها هو لنفسه .

وإذا كان يوم الرحيل هو أسعد الأيام ، فسعادتنا بليالى القرش
وحديثه كانت تقف وحدها فوق قمة شائخة من قمم احساسنا الوحشى
بالحياة ... ممرات السفينة وسحابات الصهد المتصاعدة من غرفة الآلات ،
الهدير الدائم الدائب الذى يتحول الى جزء من الصمت والذى تبدو الحياة
بدونه على سطح السفينة وكأنها قد توقفت عن النبض ... تعجل
الدقائق طوال اليوم استعدادا لساعة العشاء ، وعاصفة القرش الصوتية
وصخبه وضجيجيه وحديث الرجال معه ... امتلاء الأفواه بالطعام
والكلام ، ولا يأكل القرش من طبق واحد ، بل يلتقط طعامه من طبق وهذا
وطبق ذاك ... يضعه فى فمه وبتلعه دون مضغ ، ويضرب رجلا على ظهره
ويسب آخر ألقى عليه سؤالا ، حتى اذا جاء حديث الصيد تغيرت النبرة
واحتد الصوت وبرقت العيون ...

«اللى ياكل لحم القرش مرة يا ينسأهوش طول العمر!»

ويصرخ رجل ملاً جوفه بالخمير :

«وهو لحم القرش ينفع مزة ياقرش!؟»

ولا يستجيب القرش للهدر وقت الحديث عن الصيد أبدا :
«بدل ماتشرب تعالى أعلمك ... القرش كوم وسمك البحر كله

كوم!»

«القرش الأزرق والا الحوت الأبيض ياباشريس؟»

«القرش ملك الميه!»

ويصبح آخر متسائلا :

«المركب مابترووحش ميه الحيتان ليه؟!»

«الحوت زى الفيل ... جته من غير فخ ، وأيها عيل يقدر يركبه!»

ويصبح ثالث من آخر العنبر أو طرف السطح :

«قالوا فى المينا القرش الأزرق جبان وطرى!»

«القرش الأزرق غول الميه!»

«بيقولوا انه مالى البحر هناك؟»

«القرش لئيم ولازم لؤمك يغلبه!»

«واذا ماكانش فيه لحم أبيض ... نصطاده ازاي؟»

«لف السنارة بالقطن يهيش فيها ان كان جعان!»

«القطن مالوش ريحة!»

« لو جاع القرش مايشمش ، وتبقى عينيه كلوبات!»

«بيقولوا ان ميته غويطه .. غويطه!»

«اذا قابلته فى بحر على حرص منه ، واذا مسكته فى ميه غويطه

حايتمكن منك!»

«واذا الريح شد بالليل؟»

«ازعق ... ازعق بالحيل يخاف منك!»

«واذا البحر على والموج كبير؟»

«تشد الواير وتظمن له ، واذا السنارة غمزت ماتقربش لوحذك ،

وذا اتمكنت منه اضرب بالبلطة بين عينيه ... هنا ... هنا . هنا تمام تجيب
أجله!»

الفم الواسع والأنف الأفطس والعينان البراقتان والجبهة
المتحررة وحديث المساء فوق سطح السفينة أو في أعماق عنبر من
عنابرها ... وجلسة القرش فوق كومة الحبال تحت النجوم اللامعة والرجال
من حوله ينصتون ... وزجاجة الخمر التي اذا مارفعها القرش الى شفثيه
فعل ذلك بكلتا يديه محتضنها اياها مقبلا فاها في رفق حيناً وفي قسوة حيناً
آخر ... وحديث الصيد والرحلات الطويلة وعشق البحر وهدير
الأمواج ... وأسماك القرش المتلعبة من حولنا ... وصوت الآلات يأتي من
الأعماق كالقلب المنتظم ... ويقول القرش كلما صمتنا قليلا ورا ان هدير
الآلات علينا :

«من غير المكن مش ممكن نمشى في بحره !!»

ومياه البحر وهي تعلق الجدران في رفق حيناً وفي وحشية حيناً
آخر ، وصيحات القرش في قلب الريح والسلك الملتف حول أسطوانه
الونش الممتد عبر المؤخرة الى حيث مياه البحر الواسع ، والمصباح الهائل
الذي يصب على سطح المياه ضوءه ليجذب بالنور الأسماك الهائجة :

«الكشاف يسحب نور كثير ياقرش!»

ويأتي صوته عبر الليل كنبى يرسى تعاليمه :

«من غير النور السمك ما يظهرش ، والقرش يهرب منك في

الضلمة!»

والرجال المتناثرون هنا وهناك في صمت وانتظار وقد تسمرت عيونهم
في بقعة الضوء المتوهج بزبد الموج الأبيض ، ووجه القرش الداكن في
لظلمة ، والاحساس الغامر بالبهجة ، وصوته يسرى الى الآذان ليحكى
نصه القرش الأزرق ... واذا ظلت السفينة تجوب المياه والبحار وتعبر
محيطات وتصارع العواصف والأنواء فنحن في أمان مادام القرش معنا ،

فلم يسمع أحد أن هناك موجا تغلب على سفينته ، أو ريحا دفعتها الى
حيث لايريد !

— ٤ —

... واذا قال القرش أن عاصفة ستهب فلا بد أن تهب العاصفة ...
واذا قال أن الموج سيعلو فلا بد أن يعلو الموج ويزجر وهو ينهش جدران
السفينة ويتكسر على جوانبها ... واذا أصاب بعضنا القلق صاح فيه القرش
منذرا :

«البحر كبير ... وعلشان تركبه لازم تكون أكبر منه!»
والنظرة من عينيه كانت كفيلة باقتحام النفس ومعرفة خباياها ..
«واذا خفت من البحر ركبك الموج وطواك ونهش القرش لحمك!»
واذا عاد الاطمئنان الى النفوس كان القرش هو ركيزته ... وم جلسنا
نرقبه وقت الحديث عن العاصفة مبهورين ، عندما يعمق صوته وتلمع عيناه
بذلك البريق الأخاذ ، عندما ينظر الى الموج الصاحب فيحدثه وكأنه
يروضه !

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه ... وهكذا كنا
قبل أن تهب العاصفة .. وهكذا أصبحنا بعد أن هبت وذهبت معها بكل
شيء لتركنا مجرد حطام عائم في بحر بلا سماء ، وهكذا أصبح علينا أن
نتنظر معه طوال زمن لايعرف أحدنا طوله الا بمقدار ماتطول ذقوننا
وتسترسل شعورنا ... ثم راح البعض منا يحسب الزمن بعدد مرات شهيقه
وزفيره !

ولقد كان القرش يعلم في تلك الليلة أن العاصفة ستهب حتما ...
انبأته السماء الملبدة ولسع الرياح التي كانت تلمح وجوهنا ونحن جالسون
على السطح نستمع اليه ... كان يتوقف بين الحين والحين وهو يطيل
النظر الى السماء ثم يهبط بعينه ليمسح سطح البحر بنظره وهو

بنتم :

«النوه الليلة نازلة جامد ... والبحر حايكبر!»
ونهبض الى السياج لنرقب اسماك القرش وهى تتقافز من حول
لسفينة ، ثم يصيح أحدنا وكأنه يقطع بصيحته قطعة من قلبه :

«لكن القرش ماياكلش الطعم ليه ... ليه السنارة مش بتغمز؟!»
ويرد القرش فى صوت الواثق :
«لسه .. لسه مش دلوقت!»

ويعود ليحملك فى وجوهنا ثم يقول منذرا :

«البحر حا يعلى والموج حايكبر .. حايكبر قوى!»
ويرفع رأسه فى الهواء كسهم مشرع ، ويغمض عينيه ويشم الرياح
بفتحتى أنفه الواسعتين حتى يمتلىء صدره بالهواء ، ثم يردد فى صوت
كالصراخ المكتوم :

«الريجه دى أنا عارفها .. شمو معايا تعرفوها زى!»
ويطفو القلق على وجهة ثم تبتلعه ملامحه فى ابتسامة واسعة ..
وينهبض من مكانه ليعبر المؤخرة حتى السياج الخلفى ، وينتصب واقفا هناك
وهو ينظر الى البحر ثم يصيح وذراعا مشرعتان فى الهواء :

«الليلة ليلتك ياأزرق ... الليلة ليلتك أنا عارف ريختك ... ولو
غلبتنى برضه لازم حايجى يوم يتعلموا وأغلبك فيه ... وحق من سير دى
الريج لأغلبك ، وحق من علا الموج لأغلبك!»

وتأتى علينا لحظات يمتصنا فيها حديث القرش ونبرات صوته حتى
ننخلع قلوبنا بالرهبه ، وتأتى عليه لحظات يزجر فى وجوهنا بيديه وقدميه
،عينيه وهو يصرخ فينا :

«لكن حتى لو السنارة غمزت ... مين حيصطاده منكم معايا?!»

ويعم الصمت ونحن نرقبه فيزداد هياجه :
«واحد لوحده مايقدرش عليه ... الضربة من ديله تهد مركب
بحالها ... والخبطة من رأسه تجيب الأجل ولو كان الراجل جبل!!»

— ٥ —

وتملأ آذاننا زجرة الموج وصفير الرياح وصرخات البحر الوحشية ،
ويشعل البعض سجائر تتوهج في الظلام كنجوم كابية في سماء صدئة ،
ويعذبنا تأنب الضمير فنغرق عذابنا في الخمر ، ويأتينا صوت القرش عميقا
خافتا :

«لإزم تتعلموا صيد القروش ... اللي يصطاد القرش يبقى اصطاد
البحر كله !»

ولابد أن يأتيه صوت منا :

«البركة فيك ياقرش!»

ولابد أن تحتد الزجرة ويشتد صياح القرش :

«البحر مالوش كبير!!»

ونفرغ كئوسنا ونحن ننهض متممين :

«وهو فيه بحر أكبر منك؟!»

ويأتينا الرد حاسما :

«البحر مالوش كبير!!»

ويتمه أحدنا وهو يتشاءب :

«وهو ده معقول .. وهو ده معقول!»

«ولو اصطادتوا القرش. تبقوا اصطادتوا البحر كله!!»

وكان يقف وسط السطح عارى الرأس لامع العينين ممتد القامة :

«بالكم القرش حياكل الطعم؟! .. أبدا .. ده حياكلكم أنتم!»

ثم يضرب سطح السفينة بقدمه صارخا :

«لكن القرش مياكلش لحم منتن!!»

هكذا عرفناه وهكذا أحبيناه وصدقناه والفنا حديثه وغضبه ،
وهكذا كانت ليالى القرش تنتهى لتأوى بعدها الى أسرتنا وكبائتنا وكل منا
منى النفس بالصيد العظيم ، ويأتينا صوت القرش عبر ممرات السفينة
زاعقا : «البحر مالوش كبيرة!» ... فنبتسم جميعا فى اطمئنان واثق ، فلم
يسمع أحد أن سمكة قد غلبته ، أو أن موجا قد تغلب على سفينته ، أو
ريحا دفعتها إلى حيث لايريد ... وهكذا كان الخدر يطوينا فى كل ليلة الا
تلك الليلة التى بدأت ولم نر لها نهاية ... ووجدنا أنفسنا ونحن متناثرون فوق
حطام عائم فى بحر مجهول يبدو بلا شاطئ!

أخذ صياح القرش يتردد فى فضاء البحر كالريخ العاتية :
«النوه جامدة ... والريجة دى أنا عارفها ... عارفها!!»
هكذا راح يردد فى تلك الليلة فتحمل الرياح الباردة صوته الى بعيد ،
وقمم الأمواج تتعالى من حولنا ، وزمجرة البحر تملأ فضاء الكون كوحش
جائع أطلق من عقاله ، وسمك القرش يبدو فى جوف الظلام وقد برزت
رعوسه فى عامود الضوء الذى يصبه المصباح الكبير ، والقرش جالس فوق
كومة الحبال وقد اعتراه الصمت وهو يحملق فى الفضاء المظلم من حولنا ،
والسفينة تترخ فوق السطح الصاخب وهى تنن تحت ضربات الموج
الموجعة ... واهتز سلك السنارة وارتعش رعشات سريعة فخفقت قلوبنا
وحبسنا انفاسنا وتعلقت عيوننا بدائرة الضوء الباهر ، ثم نهض القرش وأدار
الونش ليسحب السنارة فى بطاء ، ومضت الدقائق وقلوبنا تدق ورذاذ الموج
يغرق كل شىء حتى ابتلت ملابسنا ونفذت المياه الى اجسادنا ... وعندما
ظهرت السنارة كانت عارية تلمع فى ضوء المصباح بعد أن أكل القرش
لحمها الأبيض ، وقبل أن ينطق أحدنا بكلمة ترنحت السفينة ومالت على
جانبا فانزلقت أقدامنا وكاد بعضنا يسقط فى المياه ، وارتفعت السفينة فوق
موجة ثم هوت على سفحها لترتطم بالمياه الهائجة ... وارتحت من تحتنا

بعنف وغاصت مقدمتها في قلب موجة هاجمتها واغرقتنا بزبدها ، ثم انحسرت
الموجة لتدوى في الظلام صرخة رجل اصابه الهلع :
«الدفة .. الدفة انخلعت .. الدفة ياقرش!»

هاجمنا الذعر بكل عنفوانه ، وتمايلت أجسادنا وترنحت عيوننا
تشبث بالقرش وقد أصبحت السفينة طعما للرياح والأمواج بعد أن كسرت
دفتها وابتلعها الموج في أعماقه ... هرولت الأقدام وتعالى صيحات القرش
وهي تأمر الرجال بالحركة هنا أو هناك ... وأخذت زجرة الأمواج تشتد ،
وهبوب الرياح يدفع بمياه البحر في جبال كانت تتالى لتضرب السفينة
بعنف وتغطيها حيناً ثم تنحسر عنها لتعلو في الظلام صرخات القرش :

«كل راجل يثبت مكانه ... القرش في الميه جعان والليله ليلته!»
توقفت الآلات في انتظار الغيب المجهول ... ثم دوت صرخة أخرى
انخلعت لها القلوب فهرع البعض الى قوارب النجاة صارخين :
«المركب بتغرق ... المركب انفتحت ياقرش!»

ولاحقتهم صرخات القرش الغاضبة :
«ارجع يابحرى انت وهوه ... الميه عالية والمركب عايمه!»
كانت الأمواج قد مزقت جانب السفينة الأيمن حيث رصيد الوقود
الذى فاحت في الجو رائحته النفاذة وحملته الأمواج فوق سطحها لتغرقنا به
وتلطنخ وجوهنا وملابسنا بسواده ، وسبحت صيحات القرش في كل مكان
تأمر وتحذر ، فوق السفينة وفي جوفها وممراتها ... كانت السفينة قد مالت
على جانبها ميلا شديدا وأصبحت هدفا للموج الثائر المزجر في وحشية ...
وفاحت في الجو تلك الرائحة التي تنبئ بالخطر الشديد ، وركب الخوف
قلوب البعض فألقوا بقارب نجاة الى المياه وقفزوا اليه ... وحملت الرياح
صوت القرش صارخا :

«ارجعوا يارجاالله ... الميه عالية والنوه شاده والريح الليله
غدار!!» ..

ورأيناهم كالظل يتعدون عن السفينة في هلع تحملهم أمواج مزغرده
في الظلام ... وعاد القرش يصرخ فيهم وقد تدلى جسده من فوق السياج :
«ارجعوا يارجال الله ... اليه مليانه بالقرش ، السمك في البحر العالي
يبقى جعان!»

واندفع القرش نحو المصباح الكبير فصوبه نحو القارب الذي بدا
وسط دائرة الضوء شديد اللمعان ، وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر
المنغرس وسط الصدر تماما ... وبدت أجساد الرجال في القارب كالدمى
تتقاذفها أنواء مفترسة ، كان القارب يتلاعب بهم وقد فقدوا السيطرة عليه
تماما والرياح والأمواج تحمله الى بعيد وتغوص به في الظلام ... وخفت ضوء
المصباح مع نفاذ الوقود وعاد القرش الى الصراخ :

«واحد لازم يقعد على الدفة .. أمسك المجداف بايدك واسنانك
وقسموا بعض يمين وشمال . ومتخافش من الموج واوزن القارب أحسن الموج
يغلبك!»

وانطفأ المصباح عندما انقضت عليه موجة حملته وهي تزغرد بصوت
كظيم ، وعندما انحسرت مياه الموجة كان القرش لايزال متشبثا بالسياج
يحملق في قلب الظلام ، وقد أربد وجهه بالغضب وهو يتم بصوت
غليظ :

«مفيش فايده ... غلبهم الموج ونهش القرش لحمهم!»

وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر المنغرس وسط الصدر تماما ...
صرخة ثاقبة ممزقة مذعورة وكأن صاحبها قد أفرغته رؤية الشيطان نفسه ،
وعاد القرش يردد :

«نهشه ... نهشه الغدار في الضلمه!!»..

وكان منا من أدار وجهه ... ومنا من تسمرت عيناه وهو يحملق في
الظلام حيث شبح الجسد الطائر في الهواء وفم القرش الدامي والموج
يبتلع كل شيء ... وازداد ميل السفينة وهي تنن بصوت ممزق ، وتكاثف

الظلام ، ودوت في الفضاء قرعة هائلة كأنها انفجار ، وصرخ القرش بكل صوته :

«نام على وشك يابحرى انت وهو .. الصارى اتقلع يارجااله .. الصاااارى اتقلع والريخ حاتاخده والموج حايثيله والمركب حاتفضل عايه ولازم نركب البحر ونكبر عليه!» .

وهوى الصارى الهائل بكل ثقله فوق السطح مهشما غرفة القيادة والبوصلة ، وعندما ارتطم بالسطح أنت السفينة أنينا كالبكاء ، وسكن الصارى لثوان ثم بدأ يتدحرج بأسلاكه وحباله وأعلامه نحو المياه ، ثم حملته الأمواج وابتلعه الظلام ... وزغردت الرياح وأخذت الأمواج تبتلع ذواتها ، وأصبحنا نتشبث بسطح سفينة نغد وقودها وابتلعت مياه البحر بعد أن مزقت الأمواج جوانبها ، واقتلعت صواريخها ، ودمرت غرفة قيادتها ، واتلفت بوصلتها ...

وذهبت العاصفة لتتركنا ونحن راقدون فوق السطح نحملق في سماء ملبدة بغيوم حجبت عنا الشمس والنجوم ، وابتلع الفضاء كل ريخ ، وأصبح البحر آسنا تبتعث منه رائحة كالعفن ... ولايدري أحدنا كم من الوقت مضى ، اختلط الليل بالنهار في كون داكن اللون ، ونغد الطعام وشحت مياه الشرب ، وأصبح أملنا الوحيد في الحياة أن يصطاد القرش ... فلو اصطاد لشربنا الدم وارتويننا ، وأكلنا اللحم وشبعنا ، وتجدد الأمل !!

— ٦ —

... وأصبح من العسير علينا أن نحدد الزمن أو نحسبه الا بمقدار ماتطول ذقوننا وتسترسل شعورنا ... غابت أذهاننا في ضباب حالك والزمن يمضي بنا متشابه الضوء والملاح وكأننا عبرنا الدنيا الى محيط الأبدية ... تناثرنا من حول القرش بخرقنا وشفاهنا المتشققة ودمائنا النازفة ونحن نرقبه في جلسته الصامتة بالساعات ، وعيناه تحمقان في مياه البحر دون أن يطرف

له جفن أو تبدر عنه حركة ... وكان يكفي أن يسأله أحدنا سؤالا حتى
يأتينا منه الجواب حاسما هادىء الصوت :

«الساعة دلوقت تطلع لها أربعة بعد الظهر ، والنهاردة الخامس
وبكره تدخل فى سادس يوم!»

ويطول بنا الصمت لساعات ، ثم يأتينا صوته وكأنه ينبئنا بأننا
لانزال نحيا :

«مش ممكن كل السما تسوى بعضها ... فيه سحابه بيضه
هناك ، تقدر نشوفها لو كنت عايز ... لونها يقول لك احنا امتى وكنا
فين!»

وتتمسح عيوننا بالسنارة المعلقة فى الهواء بلا طعم ، ونلوك فى
صدورنا أملا كان يخبو شهيقا بعد زفير ... وشح الطعام فى السفينة
وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كنا موقنين أنها
ستصبح فى الغد لكل اثنين ، وتناقصت مياه الشرب فأصبح الحصول
على رشفة منها كنزا لاتعاده كنوز الأرض ... وكلما انبأنا القرش أن يوما
قد مضى بدت لنا الحياة أملا بعيد التحقيق ، وتخشب كل منا فى رقدته
وكانه يرقد فى تابوت ... وكان صوته يأتينا بين الحين والحين متمتا :
«القرش الأزرق . لو اصطدناه نبقى اصطدنا البحر كله ... ونلقى
البر قدامنا!!»...

ورد أحدنا على القرش بصوت كالنواح :

«مفيش أزرق فى الميه!»

وتحرك البعض منا فى مكانه ، ثم تمللنا جميعا فى أماكننا وكأن جملة
الرجل قد تحولت الى ذراع يحركنا ... ودفع القرش رأسه واحتد صوته :
«القرش الأزرق غول الميه ... أنا شفته!» ...

وهب رجل فى مكانه وفى عينيه بريق مخيف :

«أنا عمري ماشفته!» ..

وقال آخر : «ولأنا» .. ورد ثالث : «ولا أنا» .. ورابع : «ولا أنا» .. واختلطت أصواتنا كالفحيح : «ولا أنا ... ولا أنا ... ولا أنا ...» كذا جميعا نردد الكلمات بلا ارادة ... وصرخ أحدنا في القرش فجأة :

«محدث شاف القرش الأزرق ... ولا انت عمرك اصطدته!» .
وفرزنا جميعا على أيدينا ، وبدأت صرخاتنا تشق صدورنا في وجهه .
وجحظت عيوننا بالغضب ، واجهنا القرش بنظرات محمومة ، وصرخ أحدنا :
«امتى حاتصطاده؟ ... امتى حاترمى السنارة؟! ..»

وجاءنا صوت القرش هادئا واثقا :

«لما الريح تشد والموج يعلى!»

ويعوى آخر :

«كذاب ياقرش... انت عمرك مااصطدمت سمكة!»..

وانتفضنا جميعا عندما صرخ صوت :

«فرق علينا اللحم الأبيض!».

«اللحم الأبيض- علشان الأزرق اللي جاى فى السكة!»

«ارمى السنارة دلوقت!»..

«السماك الصغير يأكل الطعم... والقرش مايطلعش الا فى الميه

العالية!»..

«الأكل خلص والميه فرغت!».

«ناكل كل أربعة حبة بطاطس ونصبر لحد الريح ماتشد!»

«كذاب.. كذاب!» ..

صرخها الرجل وهو يقفز نحو القرش والدماء تتساقط من شفثيه المتورمتين فى قطرات راحت تتخلل شعر ذقنه ... وكانت أظافره قد تحولت الى مخالب ، وأصابعه تقوست وانتفخت رقبته ... قفز الرجل قفزته فمال القرش يسارا وسقط الرجل على وجهه لتهوى كف القرش فوق ظهره

كالمطرقة :

« الشر مافيهوش رجا .. واللى بيكى زى النسوان الموت فى البحر
أحسن له ..»

وساد الصمت تماما ولم نعد نسمع سوى أنفاس القرش الغاضبة ...
وتحول صراخ الرجل الى نحيب راح يسرى فى الجو الآسن من حولنا وهو
يتمتم : « عطشان ... عطشان ... عطشان !» ..

وخفت النحيب ثم تلاشى وعاد الصمت ونحن نرقب عيني الرجل
وقد تسمرتا على سطح المياه الراكد ، وكانت شفثاه المتشققتان منفرجتين
عن لسان شديد البياض ... وقال القرش بصوت يندر بالخطر :
« ماتبصش للميه!»

وهمس الرجل فى فحيح :

«دى ميه ... ميه!» ..

«أبعد عنيك عن البحر!» ..

«عطشان . عطشان ياقرش!» .

«لو كنت بحرى كنت عرفت انها ملح!» ..

وأطلق الرجل صرخة دوت فى أرجائنا ، وارتجف جسده رجفة قفز
بعدها الى المياه ، وارتطم جسده بالسطح الآسن وغاص فيه واختفى ...
وتهدد القرش بصوت حزين :

«لو سمع الكلام مكانش راح!»

وقال أحدنا بصوت باك :

«وحتى لو اصطلدنا حانشرب منين؟!»

«نشرب دمه!» ..

«دم؟» ..

«ولازم الريح تجمد!»

«ميه!» ..

«ولازم البحر يعلى!»

«الدم ما يرويش يا قرش!» ..

«ولازم الموج يشخشخ!» .

«والبر؟ .. أمتى نوصل البر؟» ..

«البر قريب .. أنا شام ريخته!» ..

«فين البر يا قرش؟!» ..

جحظت عيوننا وصرخ أحدنا :

«فين البر؟ .. البر فين يا قرش؟!» ..

«البر بعيد علينا...» ..

«انت قلت أنا شام ريخته؟»

«الريجة في البحر زى الصوت ... الميه تشيلها!» ..

«الراجل غطس ما قبش تانى!» ..

«الريج جاي قريب!» ..

«البر فين يا قرش يا كذاب ... انت عمرك ما اصطدت ولا عمرك

حاصطاد» ..

وقفز أحدنا فوق القرش وهو يعوى ، وبدأت صرخاتنا تتعارك مع

عراك الرجلين اللذين توسطوا السطح الخلفى ... زاح كل منا يصرخ

وهو في مكانه ، وكلما اشتد العراك كلما اشتد صراخنا واشتد تساقط

الدماء من شفاهنا ... تدحرج الرجلان فوق الأرض فازدادت حلقتنا ضيقا

وتقاربت أصواتنا وامتزجت فوق رأسيهما ، وسرعان ما تهاوى الرجل ونهض

القرش واقفا وهو يمسك بتلابيبه وينهال عليه صفعاً وهو يصيح صيحات

حادّة أسكتتنا وقهرتنا :

«قلنا الشر ما يجيبش رجا ... اهدى وروق ونخد دى غلشان تتعلم

ازاى تغطى بطنك وانت بتتعارك . واذا ضربت تضرب فى المليان ، وبلاش

صریح زى النسوان ، وبدل ما تضربنى خلى ذراعك للقرش الأزرق ... ارفع

لى دماغك وبص فى عينى واملا صدرك بالهوا تشم الريح جاى من
هناك ... الريح ... أنا شام ريحته ... وصوت السمك وهو ييقب ويغطس
مع الموج ... بص للسمما يابجرى تشوف المطر جاى لك من هناك ...
الريح أهوه ... الريح وصلت والموج حايعلى والبر قرب!»

كان جسد الرجل مكوما عند قدمى القرش وقد تحولت صرخاته الى
أنين ... وخفقت قلوبنا وقد تعلقت عيوننا بجسد القرش المنتصب وسط
السطح كالوتد وهو يخلق فى الأفق البعيد ... وعندما صاح هذه المرة
ردد الفضاء صدى صيحته :

«صوتك وصل لى بأزرق ... صوتك وصل!» ..

تحاملنا ، ودهمنا احساس مريع بالخوف فتراجع البعض منا :
«أنا سامعك ... أنا هنا ومستنيك!» ..

وعندما ارتد الينا صدى الصوت صرخ أحدنا فى جنون :
«الريح غسلت وشى!» ..

كان القرش يقف مكانه وقد شرع رأسه نحو السماء وراح يتشمم
الهواء بقوة ، وكلما نادى نداء أو قال كلمة ازداد حماسه وانجلى رنين
صوته ... وبدأنا جميعا ننظر الى حيث كان القرش يتطلع ... وبدونا جميعا
وقد تهوشت شعورنا وكأننا حيوانات مفترسة ... وداعبت الريح شعورنا
فتهاوى أحدنا باكيا :

«الريح غسلت وشى!» .

وتشاءب البحر من حولنا وتمطى بملايين الأمواج الصغيرة التى راحت
تسبح فوق سطحه فى أسراب وكأنها أسماك وليدة ... وعلا نحيب أحدنا
عندما سفحت الريح وجوهنا وعلت الأمواج قليلا ... وانجلى الموات فاندفعنا
واصطدمنا وصرخنا وتحدثنا ولم نشعر بالدم الذى راح ينثال من شفاهنا
ويلطخ صدورنا ... كنا نبكى ونصرخ ونقفز ونضحك ونتحدث ودموعنا
تسيل ... استند بعضنا الى السياج وراح يرقب سطح المياه المتلاعب فى

توسل ... واختلط صوت البكاء بالضحكات ، وظل القرش في مكانه وهو يتشمم الهواء بفتحتى أنفه الواسعتين دون حركة ، صرخنا فيه وقبلناه .. واحتضناه لكنه ظل صامتا ... كانت الحياة تعود الى الدنيا مع هبوب الرياح وتلاعب الأمواج ومناغاة المياه لحطام السفينة الذى راح يتمايل بنا في هدوء ... وعندما صرخ القرش أجمنا صراخه :

«وأنا جاهز لك وسامع صوتك ... لحمتك عندي وأجلك جاي على أيدي ... أنا مستنيك يأزرق ياللى محدش عرف يصطادك غيرى ..»

كان القرش يطلق صيحاته في وجه الريح التي حملت لنا أصوات قفزات تعرفها آذاننا جيدا ، قفزات منتظمة دقت لها قلوبنا في فرح غامر ... وبدت لنا أسراب سمك القرش على البعد السحيق وكأنها أسطول منظم يستعد لملاقاة ... ومع هبوب الرياح كانت السحب تتكاثف من فوقنا ، وإذا الضوء ينحبس ويكاد الظلام أن يسود ، وإذا الأمواج تعلو فيملاً الفضاء أنين السفينة المحطمة ... واندفع القرش الى الداخل وعاد صائحا بصوت مرتجف :

«القرش يحب اللون الأبيض والريجة الجامدة»! ...

ونفذت الى صدورنا رائحة شديدة النفاذ قبل أن نرى قطعة اللحم الهائلة في يد القرش فيسيل لعابنا ... جلس القرش فوق الأرض وجذب اليه السنارة ، وتحولت ساقاه الى ذراعين وقدماه الى كفين فبدا وكأنه كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيدي ... رأيناه في الضوء الكايب كشبح أسطوري لجنى من ساكنى الأعماق ، وصدرت عنه همهمات سمعناها :

«أنا كنت عارف ... أنا كنت عارف وقلت لكم!» ..

وصاح أحدنا بصوت متشنج وهو يشير الى مياه البحر :

«القرش وصل!» ..

والتفتنا نحو أسراب السمك التي راحت تتقاذف فوق سطح المياه

وأفواها فاعرة ... وكلما علا الموج تمايل الحطام بنا ولعقت المياه جدران السفينة الممزقة ... وأصبحنا في انتظار كلمة منه ... كانت السنارة قد اختفت داخل قطعة اللحم وأصابع القرش تعمل بسرعة ودراية ، ومالبت أن نهض وهو يحمل السنارة في يده ويفحص السلك ويخلصه من اسطوانة الونش :

«مفيش ونش . فيه رجاله؟!»

وبرقت عيناه بريقا مخيفا ، ثم قال في ثبات :

«عاوز البلطة .. واللى فيه حيل منكم يقرب منى!!» ..

وتدافعنا جميعا نحو القرش وجاءته البلطة مشرعة ... وإذا السلك بين أيدينا قد استماتت عليه أصابعنا . التصقنا والتحمنا وصيحات القرش تنظمتنا ... وبدأ الاحمرار يغزو وجوهنا ، وتسمرت على السطح أقدامنا ، وبرزت عضلات أجسادنا ، ونبتت على الجلد قطرات عرق ... وإذا الدماء تزغرد في عروقنا ونحن نرقبه عند حافة السياج والسنارة تتلاعب في الهواء وأسماك القرش تدور حول السفينة ورفع القرش ذراعه في الهواء بالسنارة ، وقبل أن يهم باطلاقها علا في الجو نواح رجل :

«ياقرش ... ياقرش!» ..

والتفت القرش فاذا الرجل ينوح بصوت ممزق :

«علمنا ياقرش .. علمنا ازاي نصطاد!»

وساد الصمت الا من صفير الرياح ولمعت في عيني القرش نظرة ، وافترت شفتاه عن ابتسامة توارت عنا وهو يواجه البحر وحده ... ودارت السنارة فوق رأسه دورات أخذت تشتد وتسرع حتى شق صفير السنارة آذاننا ... وعندما أطلقها من يده شقت الهواء كالسهم مبتعدة ، ومالبت أن هوت الى المياه في دوى ملأ البحر . ساعتها استدار القرش نحونا وصرخ بكل صوته :

«الجمعان لازم ايده تموت, على السلك ... والعطشان لازم يفهم أن
دم القرش يروى مراكب ... واللى عايز يعيش حتما حايشم ريحة البر
قريبه!!»

— ٧ —

... واذا الزمن حبل طويل من الانتظار ... واذا الحياة تمضى كحلم
فلا جوع ولا عطش ... ويشتد هبوب الرياح وارتفاع الأمواج وتلاعب أسماك
القرش من حولنا ، وتموت أصابعنا قابضة على السلك وتتسنمر أقدامنا على
سطح السفينة ، واذا رأس القرش عند السياج الخلفى مشرع كصارى
سفينة يريد اختراق السحب ... واذا جذبه تنفضنا جميعا فترتج أبداننا
وتتبدد أفكارنا فنصحو على صيحة القرش العالية :
«ياأزرق يالثيم!»

وجذبنا السلك جذبة ارتجت لها أجسادنا وسقط بعضنا فوق الأرض
وتمايلت أجسادنا وترنحت لولا كفا القرش وذراعاها وصرخاته :

«اجمدوا يارجاله ... السنارة غمزت وغلبننا الأزرق ملك البحر!»
واستقامت أجسادنا وازداد تشبثنا بالسلك وارتجف صوت أحدنا
صائحا بفرح غامر .

«غمزت!»

وقال آخر :

«القرش الأزرق!»

وصرخ القرش :

«اثبتوا النهارده يومه وحاشوفوا دلوقت لونه بيضوى فى العتمة!»

وازداد تكاثف السحب وبرق الضوء فى السماء وجاءنا صوت الرعد
شديد البعد ... وأفسحت السحب مكانا على حافة الشمس فانصب من

بينها الضوء في بريق يخطف البصر فوق سطح البحر المعتم ... واندفع من جوف المياه رأس سمكة سبح في الهواء دورة ثم عاد ليغطس وسط الموج ساحبا خلفه جسدا طويلا هائلا متناسقا ينتهى بذيل كالتاج ... وصرخنا في صوت واحد :

«الأزرق!»

وكانت قلوبنا تدق بعنف ولون السمكة الأزرق يصبغ في عيوننا كل

شيء!!

ولو أن ملاكا هبط من السماء ليخبرنا أن ماحدث سوف يحدث لما صدقناه ، حتى ولو أقسم وتحولت مياه البحر بقسمه الى ثلوج ... بدا لنا الأمر وكأنه حلم بعيد عن التصديق ... كانت السمكة الزرقاء تقفز من المياه وقد انغرست السنارة في فمها فراحت تجذب السلك في عنف كاد يمزق أعضائنا ، وكانت دماء السمكة تسيل فانتشرت في الجو رائحة الدم الدافئة ... واذا أسراب السمك تندفع نحو الدم الذى غطى سطح البحر من خلفنا ، واختلطت أنفاسنا اللاهثة بصرخات القرش الذى كان يجذب السلك من المقدمة دون أن يبدو عليه التعب ... وبدأت لفات السلك تتكوم خلفنا والسمكة تقترب منا وقواها تزداد عنفا جذبة بعد أخرى ... وفتح لنا الموت فماً شديداً الاتساع عندما تكاثرت أسراب السمك الجائعة وقد هيجتها رائحة الدم المراق في مياه البحر ... نظرة واحدة الى طول السمكة وجسدها الهائل السابح في الهواء حين الغاطس في المياه حيناً كانت كفيلة بيث الرعب في قلوبنا جميعاً ، وكانت زرقها تلمع في الضوء المنصب عليها من بين السحب وكأنها أضيئت من الداخل بآلاف القناديل السحرية .

كانت مياه البحر قد اصطبغت من حولنا بلون الدم القانى عندما ارتطم رأس السمكة بمؤخرة السفينة ، وارتج الحطام بنا فصرخ القرش

بصوت ثاقب :

«البلطة!»

ثم راح يزعق دون أن تغادر عيناه رأس السمكة الهائل وهي تواجهه .

«أول ماتطلع على ظهر المركب كل الرجالة يبعدوا!»
وبدأت قوانا تهن!

«تقفوا كلكم عند السور وتبعدوا لحد ما أربط السلك كويس
ونضمنه!»

وبدأنا جميعا نخور!

«الشدة دلوقت بألف شدة ، والخطوة الأخيرة بالمشوار كله!»
وارتفع ذيل السمكة فى الهواء ، واشتد جذبها حتى كادت أجسادنا
أن تتمزق ...

«ومهما قلت لكم محدش يقرب منى ... الضربة من ديلها تجيب
الأجل!»

وانفلت القرش عدوا حيث لفات السلك فحملها وانطلق نحو
قاعدة الصارى المكسور وبدأ يعمل دون أن يكف عن الحديث الينا .
«ولو جرى لى حاجة محدش يخطى خطوة ... قتيل أحسن من
اتنين!»

ثبت القرش طرف السلك فى قاعدة الصارى ... وبدأت قبضاتنا
تتراخى ، وانبعث من حلق السمكة الدامى خوار مخيف ...

« الرجالة كلهم يرجعواة لورا!»

كان العرق يتصبب من وجوهنا وصدورنا وأذرعتنا ، وكانت أنفاسنا
لاهثة متقطعة ، وتعلقت عيوننا بعينى السمكة ذات النظرات المخيفة ...
وارتد رجل منا الى الخلف وقد أزعجته النظرات فاصطدم بالسياج وهوى رأسه

نحو المياه ودارت ساقاه في الهواء وسقط جسده في البحر ...

«أثبت مكانك يا بحري انت وهو ... أثبت مكانك!»

وأنقضت أسماك القرش عى الجسد الساقط واحتبست صرخة فزعة في جوف الموج ، وهدر صوت القرش فوق رعوسنا :

«عينه ترعب حيتان ، ولونه يخطف القلب!»

ودبت في عروقنا النار فاذا نحن ننقض على السلك في غيظ ، واذا رأس السمكة يتقدم ، واذا جسدها الهائل ينزلق فوق السطح ممددا بطول المؤخرة ، وماتت أيدينا عى السلك حتى شدة القرش من خلفنا الى قاعدة الصارى من جديد ... كان رأس السمكة كله كجبهة عالية تنحدر من أعلى لتصطدم بجدارين من العظم يظللان عيني وحش شديدتى اللمعان ، وهرول البعض لمساعدة القرش وتقهرق الباكون نحو السياج لاهثى الأنفاس ... كان الدم يسيل في خيط غليظ من الفم منحدرًا فوق السطح حتى يصب في المياه وكانت السمكة هادئة شديدة الهدوء عندما تقدم منها القرش وقد تدلت البلطة في يمينه وهو يقول :

«أنا كنت عارف أن يومك جاى ... وكنت عارف أنى حاغلبك

ياللى لحمك كله من جتت الضعيف ... يا جبار!»

كان الضوء ينبثق من بين السحب وقد اتسعت دائرته ... وبدأ وجه القرش مبتسما وعلى شفثيه ابتسامة غريبة ، ومن عينيه كان يشع ذلك البريق الأخاذ ... وكان القرش يحدث السمكة الملقاه تحت قدميه!

«التار بيننا بايت من سنين وسنين ... واللى يصبر عليك يجيب

أجلك!»

وتقهقر القرش خطوة الى الوراء ورفع ذراعه بالبلطة في هدوء وبطء

وقال رجل في صوت متوسل :

«نساعدك يا قرش!»

ولم يحول القرش رأسه عن السمكة وهو يقول :
«مايقدرش عليه غيرى ... مش كل السمك!»
«علمنا!!»

انتفضت السمكة انتفاضة دفعت بالقرش خطوتين الى الوراء ،
وتدلت البلطة في يده وأصبحت كأنها امتداد لذراعه .. وطال الصمت
لثوان قبل أن ينطلق القرش :

«ياما قلت لكم وما صدقتوش!»
وسرعان ما انطلقت أصواتنا في عراك :
«نتعلم دلوقت ياقرش!»
«ما تروحلهاش وحدك ياباشريس!»
«انت بتقول انه غدار!»
«الضربة من ديله تجيب الاجل ... انت قلت كده!»
«والنهشة تطلع بالروح»
«وربحة الدم تهبجه!»
«علمنا ...»

«علمنا ياقرش ... علمنا!!»
وخفتت أصواتنا عندما بدأ القرش يتقدم من السمكة خطوة بعد
أخرى ... ران الصمت تماما وفاحت في الجو رائحة الدماء النازقة ...
وانتفض القرش كالوحش وهوى بالبلطة نحو رأس السمكة صارخا :
«يالئيم ...»

ماكاد الذراع يهوى حتى انتفضت السمكة انتفاضة هائلة وسبح
ذيلها في الهواء في قوس وارتطم جسدها بالقرش فانكفاً على وجهه وهوى
نصل البلطة لينغرس في السطح! ..

وندت الضيحات عنا وصرخنا مذعورين ، غير أن القرش كان قد

أكمل دورة جسده — كالطوق تماما — واختطف البلطة وانتصب واقفا من جديد ... كانت أنفاسه متهدجة وصدره يعلو ويهبط بسرعة ، وبرقت عيناه بريقا عجيبا ... وتقلصت أصابعه فوق ذراع البلطة ... وصرخ القرش، صرخة أخرى وهوت البلطة فوق الرأس تماما ... وإذا الذيل يطير ساحبا خلفه الجسد كله ... وإذا الرأس يعلو في مواجهة القرش بفم هائل ملأه الدم وصبغ به اللحم الأبيض ، وترفع البلطة بصرخة ثالثة ثم تهوى فوق السلك تماما ... وهوت قلوبنا والسمة حرة فوق السطح ، يبرز ساق السنارة من فمها كرمح ، وارتمى الجسد العملاق فوق السطح ثم انتفض نحو القرش من جديد ... والتحم الجسدان ونحارت السمة وازداد تدفق الدم من فمها ، ودارت البلطة في الهواء دورة كاملة ، ثم انغرست في الجبهة بين العينين تماما ... وانفتح فم السمة كالبئر الملىء بالدماء ، وانتفض الجسدان في الهواء ... وصرخ القرش صرخة مروعة ، وصبغت الدماء جسديهما ، والبلطة ترتفع لتهوى ، ثم ترتفع لتهوى ... وإذا الذيل يرتجف ارتجافة شديدة ، ثم يهوى فوق السطح بلا حراك! ...

وكانت البلطة مغروسة في العنق ... تحت الفم تماما!

— ٨ —

اخترق آذاننا صوت نقر منتظم بدأ يشمل الدنيا بأسرها ... وانتبهنا لنجد أنفسنا محلقين في المنظر المروع أمامنا ... وكانت أسماك القرش قد اختفت من البحر ، وخفت الريح وأصبح سطح البحر شديد الصفاء ... وبللت أجسادنا قطرات المطر الذى راح ينهمر في سيل كان يغسل الدماء التى صبغت السطح ... وأنت السفينة تحت دفع الرياح أنين من يتحرك في فراشه بعد مرض طويل ... ورفعنا رءوسنا نحو السماء وفتحنا أفواهنا لنستقبل المطر ... ومالشت الغيوم أن انقشعت ، وتلألأت في السماء شمس شديدة الضياء ... وذاب الأسن في حفيف المياه ، وشهق

أحدنا وهو يصيح :

«الشط ... الأرض بانء!!»

واذا السفينة ترسو بنا على شاطيء لم نره من قبل!

يناير ١٩٦٧

الغضب

— ١ —

هكذا حدث الأمر ...

كل شيء يبدو لي الآن وكأنه حلم أو كابوس ... ولست أدري كيف أبدأ أو من أين ؟ ... فأنا لأذكر شيئا قبل وصولي الى السفينة ، لست أذكر أين كنت ولا من أين جئت ، لأذكر على الاطلاق رغم محاولات العديدة . كل ماأذكره أنى وجدت نفسى على ظهر السفينة ... كنت أعلم أن لايد لي فى الموضوع أو رأى ، كان على أن أذهب ، فذهبت !!

وهكذا وجدت نفسى أتطلع الى السفينة فى سعادة ، فقد بدت لي منذ الوهلة الأولى جميلة رائعة الجمال ، كانت كعروس ستترف بعد لحظات ، الأنوار تغمرها من الخارج ، أنوار زاهية ملونة بهيجة تشرح الصدر ... وغمرتنى السعادة وأنا أسرع نحوها وأتسلق سلمها الأنيق قافزا درجاته فى نشوة وقلبي يركض بين ضلوعى ... هأنذا أخيرا أصل اليها ليستقبلنى عند قمة السلم عملاق شمعى الوجه ، ميت النظرات ، يفر فمه عن ابتسامة باهتة ، ثم انحنى لى الرجل فى احترام وهو يقول فى اقتضاب :

« كنا ننتظرك ! »

مددت يدي لأصافحه ... لكنه ظل منحنيا وكأنه لا يرى يدي
الممدودة ... فقلت وأنا أسحب يدي الى جانبي :

« هل تأخرت؟! »

« كلا ... انك لاتستطيع أن تتأخر ، ولابد أن تأتي في موعدك
تماما ، اننا سنرحل بعد لحظات ، وهذا هو موعدك بالضبط ، ونحن عادة
لانتأخر ولا ننتظر أحدا! »

— ٢ —

أسلمني العملاق إلى عملاق آخر عند باب يؤدي الى الداخل ...
ولم أستطع رغم وجه الرجل الشمعي وبرودة لهجته الا الابتسام عندما انحنى
لى العملاق الآخر بنفس الطريقة ، وابتسم لى نفس الابتسامة ، ووجه الى
نفس النظرات الزجاجية ، ثم قال وهو يشير الى ممر جانبي :

« هذا هو الطريق الى كابينتك! »

تبعته وأنا أغمغم :

« ألن يقابلنى أحد ؟ ... أين القبطان أو ... أو ... أو كبير
الضباط أو ... أو الضابط الأول؟! »

توقفت الكلمات فى حلقى عندما التفت الرجل نحوى بغتة وكأنه
لدغ ، كان واضحا أنه غاضب أو ناثر ، لكن وجهه ظل كما هو ، ونظراته
لم تتغير ... وسمعته يقول بصوت قاطع كحد الموسيقى :

« كلا ... انهم مشغولون جميعا فهذا وقت الرحيل كما تعلم!! »
الحقيقة ، أن سعادتى كانت تفوق كل احساس آخر ، ذلك أنى فى
تلك اللحظات لم ألق بالا إلى لهجة الرجل ، فلم يكن يهمنى من الأمر كله
شئ ... يكفينى أنى جئت ، كل شئ حولى جميل وأنيق ورائع ، الممرات
الخافتة الضوء ، الجدران اللامعة النظيفة ، درجات السلم العريض الفخم ،
الأرض المكسوة بالأبسطة النادرة ... وكابيتى عند طرف ممر قصير ، فتحها

العملاق وهو يدمدم :

« اذا احتجت لشيء فليس عليك الا أن تطلب ! »

دلفت الى الكاينة وأصبحت وحدى ... درت بعيني فيما حولي
فراعني كل شيء ، الفراش الوثير ، الستائر المسدلة ، الأضواء التي تتبع من
الهواء نفسه ، الهدوء و ... وتلك الرائحة الجميلة التي راحت تدغدغ
حواسي جميعا ... رائحة بلا مصدر ، فليس ثمة زهور في المكان أو بخور ،
هي رائحة الجدران والفراش والأثاث ...
وبلغت سعادتي قمتها !

من منكم لايشعر بالسعادة لو كان مكاني ؟!
لقد جئتها أخيرا ... ولابد أنها مليئة بالخير والسعادة !
وتسرب الهدوء من الهواء الى أعصابي فألقيت بنفسى فوق الفراش
ورحت أتمرغ فوقه ، ودفنت رأسى فى الوسائد وملأت صدرى برائححتها
العطرة ... ياله من قبطان رائع عظيم هذا الذى حول سفينته الى جنة ،
لابد أن أذكر له هذا ، سأشكره ، سأصلى له ان أراد فليس هناك أروع مما
أرى ... الخدر يسرى فى جسدى وذهنى ، ولذة مريحة تتسلل الى نفسى ،
وثقلت جفونى ، فتركت نفسى للأحلام ... ونمت !!

— ٣ —

عندما استيقظت كانت السفينة قد أبحرت ... عرفت هذا من
صوت الأمواج فى الخارج ، أمواج كانت ترتطم بجوانبها فى رفق ، والمياه
تحتك بجدرانها فى حفيف منغم ، تضاءبت وأنا أتمطى ، ودرت ببصرى فى
الكاينة وكان كل شيء على ما هو عليه ، حتى الرائحة الجميلة كانت لاتزال
تسبح فى المكان متجددة ، نظرت فى ساعتى ، وقفزت من فراشى فى
فزع .

كيف نمت كل هذا الوقت ؟!

لأدرى ... كانت الساعة تشير الى السابعة مساء ، وهذا هو
« الجانج » فى الخارج يدق معلنا موعد العشاء ... لابد أنهم سألوا عنى ،
لابد أنهم طلبونى ، لكن أحدا بالتأكد لم يوقظنى ... فكيف تركونى نائما
كل هذا الوقت !؟

ودارت الأفكار فى ذهنى سريعة وأنا أستعد للعشاء ، لابد أن
القبطان سيغضب ، ولابد أنه سيتساءل عن سر هذا النوم و ... ولكنى فى
النهاية هزرت كتفى فى لامبالاة وأنا أغادر الكابينة ، جذبت الباب ورأى
وأغلقتة برفق ، بحثت عن المفتاح فى ثقبه فلم أجده ، انتابتنى الحيرة للحظة
لكنى سمعت من خلفى صوتا يقول :

« لابد أنك تبحث عن المفتاح !... »

رأيت فى الممر الخافت الضوء عملاقا آخر ذا وجه لا يقل شمعية عن
وجهى العملاقين الأولين ..

« اذهب ولا تخف ، فان أحدا هنا لا يجرؤ على السرقة ... فهو حازم
جدا !! »

قال الرجل هذا وهو يتسم بشفتيه دون باقى ملامحه ؛ ثم أشار
باصبعه الى أعلى وهو يستطرد :

« لقد حرم السرقة وهدد بعقوبات صارمة لمن تمتد يده الى أشياء
الغير ! »

« تقصد القبطان ... أليس كذلك !؟ »

« نعم ... انه قاس جدا مع من يعصيه ! »

قال الرجل هذا وهو يضحك ضحكة ناعمة جوفاء ، لكنه استمر
فى حديثه :

« أنا المخصص لهذا الجناح من السفينة ، ولقد قالوا له أنك جئت
الينا ... غير أنى لم أرك فقد وجدتك نائما منذ وصولك ... لا بأس ، ان
هذا يحدث عادة لكل قادم جديد ، هل أنت ذاهب للعشاء !؟ »

« نعم ... »

قلتها كالحالم فقد انتابتني في تلك اللحظة أحاسيس ومشاعر غريبة ، غير أن أهم ما أحسست به ، هو شعوري بالغوص في لجة غريبة ... كان هذا مجرد شعور لكنه طغى على كل حواسي ، ووجدت صوت الرجل يأتيني بعد ذلك وكأنه يصدر من بعد آلاف الأميال ، لكن الغريب في الأمر أني كنت أعى كل ما كان يقوله جيدا ...

« عليك أن تدور الى اليمين عند نهاية الممر ، ثم تهبط بعد ذلك السلم الكبير ، وستجد نفسك أمامها ، أنها في طريق كل من يريد أن يأكل ، الطعام عندنا وفير ! »

ثم ارتد الى ادراكي وانتفضت منتزعا ذلك الاحساس الغامض ، حدث هذا في نفس اللحظة التي تركت فيها الرجل ومضيت ... اني لم أعرف اسمه ، لم يقدم لي نفسه ولم أقدم له نفسي ... أليس هذا غريبا؟! ... أليست هذه هي عادة البحارة كلما التقى منهم اثنان على ظهر سفينة لأول مرة؟!!

كان ذهني مشغولا وأنا أهبط السلم العريض الفاخر ... كنت أفكر فيما قاله لي الرجل ، في لهجته الصارمة ، وصوته البارد الثلج ... و ... ومررت في طريقي باثنين عند نهاية السلم ، كان أحدهما مرتكزا على حافة السياج ، بينما تسمر أمامه الآخر وهو يقول كلاما كثيرا لم أفهمه رغم سماعي له :

« انه لن يهبط كالعادة ... ان أحدا منا لن يراه أبدا ! »
وانتبه الرجلان لمروري فانحبس بينهما الحديث ، ألقيت عليهما تحية لمساء فدارت عيونهما في محاجرهما ، ثم استقرت على وجهي ، وتمتمت شفاههما بكلمات لم أسمعها فقد كنت أبتعد بسرعة ، وقد بدأ الجوع معتصر أمعاني الخاوية !

بعد خطوات كنت أقف في مدخل غرفة الطعام ، القاعة هائلة تتوسطها مائدة مستطيلة رصت فوقها الأطباق ، ورائحة الطعام تحتفظ بشذى العطر الذى يفوح من كل شيء فى غرفتى ... وكانوا جميعا جالسين فى أماكنهم ... ليس سوى مكان القبطان — فى صدر المائدة — ومكانى أنا — عند طرفها الأيسر — هما الخالين !!

شدت خطواتى وابتسمت وأنا أمضى نحو مكانى لاجذب مقعدى وأجلس عليه وأقول بصوت مرح النبرات :

« مساء الخير ! »

ونمت عن الجميع همهمات مختلفة ، كانوا منكبين على أطباقهم يأكلون بشراهة غريبة ، لأحد منهم ينظر الى الآخر أو يتحدث . ولم ينظر أحدهم نحوى ... لا كلمة ترحيب ولا ابتسامة مجاملة ، ومن جديد عاودنى ذلك الاحساس بالفوص فى لجة غريبة من الحيرة ، وقد زاد من احساسى هذا أن مال على رجل لأدرى من أين نبت ولا كيف زرع فى مكانه هذا خلفى ... كان يميل على ويهمس فى أذنى بصوت كأنه نجيب :

« ماذا تريد أن تأكل ؟! »

« أى شيء ... أليست لديكم ... »

صاح الضابط الجالس عند الطرف الآخر للمائدة دون أن يرفع رأسه عن طبقه :

« أطلب ماتريد ... هكذا أمره ! »

كنت أعرف أنه الضابط الأول ، فمكانه مجاور للمقعد الشاغر فى صدر المائدة ... نظرت إليه فوجدته مستطيل الوجه ، شاحب الجلد ، أزرق العينين ، ناعم المظهر ... ووجدت نفسى أقول فى حيرة :

« سيدى ... أعتقد أنك ... »

قاطعنى مرة أخرى وقد بدا عليه التأفف الشديد :
« نعم نعم ، أنا الضابط الأول ، وهذا هو الضابط الثانى ،
والطبيب . والضابط الثالث ، والذى بجوارك هو ضابط الطعام .. ثم ، ثم
أظنك تعرف مركزك هنا!!»

« وأين القبطا »

قاطعنى بصوت صارخ :

« هذا هو السؤال المعتاد ، واليك الرد المعتاد ... لقد ترك لى كل
شئ ، أنا هنا أقوم بكل مهامه !»

« و ... ولماذا لا ... لماذا لا يأكل معنا اليوم !؟»

فجأة حدث شئ غريب .

سقطت كل الملاعق ، وكفت الأيدى عن الحركة ، والأفواه عن
المضغ ، وتلاقت العيون بسرعة ثم تحولت كلها نحوى وكأنها تريد أن
تحاصرني ، وتحشرج صوت أحدهم وهو يزجر فى فزع :

« انه يسأل ... انه يسأل !!»

وقال آخر :

« لن ينفعنا هذا الرجل ، لن ينفعنا ... لقد قلت هذا من قبل !»

وناح صوت الضابط الأول مهددا :

« كيف تجرؤ !؟ ... كيف تتفوه بمثل هذا الكلام !؟ »

وغمغم الطبيب وكان يجلس قبالتى :

« انه لايزال صغيرا وحديث العهد بنا ... انه لايعرف شيئا بعد !»

وتوقفت أذناى عند هذا الصوت ، تماما كما توقفت عيناى فى عيني

الطبيب ... ولأول مرة منذ وطئت قدماى هذه السفينة ، رأيت عيني

تكسوها طبقة ندية ، وفى أعماق انسانيهما شئ ... لم يكن جلده

مشدودا ولاتحمل ملامحه تلك القسمات الصخرية ، وعندما ابتم

أحسست بابتسامته تصل الى قلبي ، لم تكن كابتسامات الآخرين الذين كانت شفاههم تتمدد في اتجاهين متضادين لاكثر ولأقل . وتحرك الضابط الأول فقبض على عنق الفوطة ثم مسح شفتيه وهو يتمم :

« حقا ... انه لايعرف شيئا ... انه لم يعرف بعد !»

كانت كلماته كأنها بصقات يلقيها في وجهي ... غزاني الخوف قاهرا ومدمرا ، لكنه كان خوفا مشوبا بالضيق ، بشيء كالغضب دفعني لأن أقول :

« مالذي حدث ؟ ... ماذا فعلت ؟! ... كل ما هناك اني سألت عنه ، أليس هو قبطان هذه السفينة ؟ ... أليس من حقى أن أسأل عن الربان ؟! »

« لا ... »

صرخها الضابط الأول بصوت كأنه فرقة سوط ...

« ليس من حقك الا أن تطيع الأوامر ، أنه قاس جدا مع من يعصيه ... وهذه أوامره ، وعليك أن تعرف كيف نعيش ، وأن تؤمن بكل هذا دون سؤال ... والا ، فلن يكون أمامي سوى تنفيذ تعليماته وأحكامه ، اننى مسئول عنكم أمامه ، وهو لايرى أحدا غيرى ، ولايغادر كايئته مهما حدث ، لانه ليس فى حاجة الى هذا !!»

تبلور خوفى واشتعل فى صدرى وتحول الى غضب جامع ، كان كل مايقوله ذلك الرجل غريبا ، لم يكن يتحدث ، كان يخنقنى بكلماته ويسد على صدرى منافذ الهواء ، ووجدت نفسى أنتفض قائلا :

« ان كان هو لايريدنى فأنا أريده ، ولابد لى أن أراه ... بل ... بل

انى صاعد اليه الآن .. الآن !!»

أزحت مقعدى ونهضت من مكاني ، واصطدمت فى اندفاعى بالجالس على يسارى ، ومضيت الى الخارج وأنا أحس بوقع نظراتهم على

ظهري ، وكان آخر ماسمعته وأنا أغادر القاعة ، هو صوت ناعم بارد زحف ورأى كالشعبان !

« اتركوه فلسوف يندم ! »

اندفعت الى السلم أقفز درجاته ... كنت مهتاجا مغيظا ، ومررت في طريقي بالاثنين اللذين كانا يتحدثان وأنا في طريقي الى قاعة الطعام ... كانا يقفان في نفس المكان ، وبنفس الوضع الذي شاهدتهما عليه منذ دقائق وكأنهما تمثالان من شمع متجمد ... ومالبثت أن انشيت الى ممر جانبي ، واندفعت منه الى ممر معتم شديد الظلام ، والمرئيات لاتكاد تستقر عليها عيناى ... ودهمنى شعور حاد بالانقباض وأنا اتجه نحو سلم ضيق رحى أقفز درجاته مسرعا ، كنت موقنا أن هذا السلم بالذات يؤدي الى كايينة القبطان ، كنت موقنا أشد اليقين ولست أدري لماذا ... غير أنى ماكدت أصعد بضع درجات حتى اصطدمت عيناى بقدمين هائلتين تقفان عند قمة السلم . فتوقفت !

تسقت عيناى الحذاء الضخم ثم الساقين ثم الجسد العملاق حتى وصلت الى الوجه الذى لم أميز من ملامحه شيئا ... كان المكان مصبوغا بالضباب ، ورأس الرجل شاهقة تكاد تختفى فى السقف ، وانتابتنى رجفة شملت جسدى كله ، وخرج صوتى مبجوحا :

« هل تسمع !؟ »

« ماذا تريد !؟ »

جاءنى الصوت من أعلى كالرعد ...

« أريد مقابله ... أريد أن أراه ! »

« ماذا !؟ »

قالها الصوت فى استنكار ساخر ...

« أريد أن أراه ! »

« هل أنت مجنون؟! »

« أليس هذا من حقي؟ ... أنى ... »

« كلا ... »

« أوسع لي الطريق ... انى أمرك فأنا ... »

وأطلق العملاق ضحكة التفت حول عنقي ، وغزاني الخوف من جديد فشل تفكيرى ...

« اذا لم تدعنى أمر فلسوف ، سوف أصرخ ... سوف أناديه ! »

« لن يجيبك ولو صرخت طول عمرك ! »

« ماذا تعنى ... ومن أنت حتى تقول لى ... »

« اذهب ! »

« كيف تحدثنى بهذ اللهجة ، كيف تأمرنى ... »

« قلت لك اذهب ! »

كان هذا آخر ماسمعته فى ذلك الوقت ، صوت كالزئير وحذاء ضخم يرتد الى الخلف ثم يرتفع فى الهواء مرتطما بوجهى ... ولاشئ بعد هذا ... لاشئ على الاطلاق !!

— ٥ —

عندما أفقت كنت أرقد فى الفراش ... ارتدت الحياة الى أطرافى أولا ، ثم الى أذنى ... ودون أن أفتح عيني استطعت أن أميز كل من فى الغرفة ... كانت هناك أصوات عديدة ميزت منها صوت الطيب والضابط الأول ... وعرفت أن الطيب هو الذى كان يمسك رسغى بأصابعه .

« هذا حسن ... سيفيق بعد دقائق ليصبح واحدا منا . ولن

يفتح فمه بعد ذلك ! » .

« انه من النوع العنيد ! » .

« ماذا تقصد؟! »

تهند الطبيب ثم قال :

« لاشيء ... ومن الخير أن نكف عن الكلام حتى لانزعجه ! »
« أتظن أنه سوف يتمرد مرة أخرى ؟! »

ران الصمت ونفذت الرائحة العطرة الى صدرى ... وعاد صوت

الضابط الأول يزحف فى الجو :

« أن فعل فالأوامر صريحة والتعليمات لاتقبل المناقشة ، وما علينا الا

أن ننفذ ما أمرنا به ! » .

« لكنه لن يخضع ! »

« اذن فلسوف نلقى به الى الحيتان ... ان حيتان البحر

جائعة !! »

بعثت الكلمات الرعب فى قلبى ... مالذى سيفعلونه بى ؟

... وما الذى يجب على أن أفعله ؟... وكيف أخضع لهم ؟

... هل أطيع وأفعل مثلهم ؟! ... انى لست مخلدا فى هذه السفينة

ولسوف أغادرها ذات يوم لأعرفه ، هى أيام سوف تمضى على أى حال

فلماذا لأقضيها فى هدوء ؟!

وجاء صوت من آخر الغرفة :

« ترى ما اسمه ؟ »

« ليس مهما أن يكون له الآن اسم ، ليس مهما على الاطلاق »

وقال الطبيب :

« لقد عاد الى حالته الطبيعية ! »

وكأنما كانت جملته هذه ايدانا لى بأن أفتح عينى ، فقد وجدت

نفسى أفتحهما مرة واحدة ... كان الضوء خافتا لأتبين فيه سوى أشباح ،

فصرخت فى جزع :

« أضيئوا الأنوار »

« أن النور مضاء ! »

« أريد مزيدا من الضوء ، مزيدا من النور ! »

« الضوء هنا لايزيد عن هذا ، هذه حدوده التي رسمت له ، هذه

تعليماته ! »

وانتفضت في صدرى من جديد تلك البذرة الغاضبة ، انتفضت
وسط ألوف المشاعر المتضاربة والاحاسيس المتباينة ... كنت أرتجف عندما
وضع الطبيب يده فوق كتفى ليعيدنى الى الفراش فى رفق قائلا :

« لاتجهد نفسك ، لابد أن ترتاح ! » .

« انت الطبيب ، أليس كذلك !؟ »

« نعم ... »

« هل كتبت فى تقريرك حقيقة ماحدث لى !؟ »

« تقريرى ... أى تقرير ؟! »

غمغم الباقون من حولى فصحت فى الطبيب :

« لقد اعتدى على ذلك العملاق الذى »

وجاءنى فحيح الضابط الأول كالسم القاتل :

« ألا تزال عنيدا !؟ »

« سأحاول رؤيته مرة أخرى ... سوف أراه حتما ! »

« لن تراه ... فهو لايرى سوى ولايراه سوى ، لقد خول لى جميع

السلطات ! »

« وماذا يفعل هو اذن !؟ »

صرخ أحد الأشباح من آخر الغرفة :

« اخرس ... اياك أن تفوه بهذا السؤال مرة أخرى ، فهو

لايسأل !! »

ماكدت أفتح فمى حتى امتدت يد الطبيب الى رسغى من

جديد لتضغط أصابعه على الرسغ برفق ... وتحرك الضابط الأول فى

مكانه ، ثم نظر الى وهو يقول :

« خير لك أن ترتاح حتى تشفى ، ولاتسأل كثيرا ، ولسوف تجد ماتريد من طعام أو شراب ، و ... وكل ماتريد ، فقط ... افعل ماتؤمر به ، هذه هي حدودك !! »

واستدار الرجل ومعه الباقون ، ثم غادروا الكابينة فى صمت . وتركونى مع الطبيب ... وما أن أغلق الباب خلفهم ، حتى أستدرت نحوه صارخا :

« مالذى يجرى هنا ؟! »

ضغط على يدي بقوة غريبة حتى خلت أن عظامى ستتحطم ، أو ما نحو الباب وبرت عيناه محذرة وهو يقول بصوت هادىء :

« لاتسئ الظن الى هذا الحد ، ألا يكفيك أن تجد هنا ماتريد ؟! »

وساد بيننا الصمت للحظات كانت عيناه أثناءها لاتفارقان الباب ... ثم قال بنفس النبرات الهادئة :

« انه يفرض نظاما رائعا! »

وهمست بصوت خفيض :

« أريد أن أعرف ... لماذا ... »

« أليس أقصى مايتمناه الانسان أن يجد ماياأكله وما يشربه ؟! »

« لكنى أريد أن ... »

« دع الأمور تجرى كما يحلو له مادامت هذه هي رغبته ، وما دمت

تحصل على ماتريد ! »

« اننى ... »

« هكذا تصبح حياتك رائعة ... وبلا مشاكل ! »

وكان لابد أن أنتظر لحظات صمت أخرى ... التفت الى الطبيب

بعدها ثم ابتسم وهو يقول بنفس الصوت العالى الواضح :

« انه عادل جدا ، لكنه بقدر عدله يصبح قاسيا اذا ما غصيه
أحد ... لقد أمر بالقاء الكثيرين لحيتان البحر الجائعة ، وأنت لست
منهم ... لن تكون منهم أبدا !»

همست وأنا اقترب من أذنه :

« أريد أن أراك ... أريد أن أتحدث اليك ، الى أى أحد !!»

سبحت ملامحه في ابتسامة لم تبين ، وأوماً برأسه موافقا ثم نهض

قائلا :

« سأتركك الآن لترتاح ، وعليك ألا تنام كثيرا فلن يفيدك النوم

بعد الآن !»

— ٦ —

غادرتني سابحا في هواء الكابينة ، وساد السكون ، سكون عميق
كانت تتخلله أصوات الأمواج في الخارج ، وتذكرت البحر ، تذكرت أني لم
أر البحر منذ صعدت الى السفينة ، وتذكرت أني لم أفتح النافذة منذ
جئت الى الكابينة ... تجاملت على نفسي وأنا أنهض من الفراش متجها
نحو النافذة ، كنت أشعر بالاطمئنان لأول مرة منذ جئت ... بدا لي الأمر
كحلم مزعج لا بد أن أفيق منه ، وتذكرت يد الطبيب عندما ضغطت عظام
رسغي محذرة ، كيف تتأني له هذه القوة بالرغم من نحول جسده !؟

زجرت الأمواج في الخارج وبدأت السفينة تترنخ تحت ضرباتها
وبدأت أتمايل في وقتي وسط الكابينة وقد بدأ الغثيان يصيبني ، وامتدت
يدي الى النافذة كي أفتحها فترنخت السفينة مرة أخرى تحت ضربات موجة
تعالى صوتها في الخارج كزئير وحش هائج ، وترنخت وكادت أسقط على
الأرض ... وصفر الهواء وعوت الرياح وهبت العاصفة على غير انتظار ...
أحسست اني اختنق ، كان لا بد لي من هواء نقي ، مددت يدي من
جديد الى النافذة فارتطمت بسطح أملس لآباب له ، بحثت عن القفل

فلم أجده ، حملقت فى الضوء الخافت فاذا النافذة موصدة ، واذا زجاجها كاذب لايشف عما خلفه ... وبدأت قواى تخور من جديد ، وأحسست بجسدى يتهاوى ، تذكرت رجل الصباحت ووقعت عيناى على زر صغير رحى أضغط عليه بكل قواى ، فانفتح الباب وظهر الرجل :

« هل أستطيع أن أقدم لك أى شىء؟! »

« افتح هذه النافذة .. انى فى حاجة الى الهواء ! »

« انها لا تفتح!! »

« ماذا .. لماذا؟! »

« انها لا تفتح! »

« كيف ... أليست نافذة؟ »

« أنها أوامره وتعليماته ... ان فتح النوافذ قد يفرق السفينة! »

« لكنى ... »

« لا مجال للجدل ... انها لا تفتح وهذا هو كل شىء! »

« ان فى الخارج عاصفة! »

« أعلم ذلك! »

« البحر هائج ، والموج عال! »

« أعلم ذلك! »

« وهل تعلم كيف حدث هذا؟ ... لقد غادرنا الميناء منذ ساعات

قليلة وكان البحر ... »

« منذ ساعات؟! »

ضحك الرجل دون أن تختلج فى وجهه عضلة ، أخذ يردد الجملة

وهو يضحك من داخله ، ثم توقف عن الضحك وقال بتأفف وملل :

« لقد غادرنا الميناء منذ أربعة أيام ... اننا الآن فى المحيط! »

« أربعة أيا ... »

« كنت تهذى طوال هذا الوقت ... لقد كنت تهذى! »

«ولكن .. و .. »

«والعاصفة فى المحيط تهب بلا مقدمات ، دون انذار؟! »

«أربعة أيام ؟ ... أربعة أيام؟! »

«وهم جميعا فى الخارج يقاومون العاصفة ... انهم فى الخارج

جميعا! »

وقبل أن أفيق اقتحم الطبيب الغرفة وعلى وجهه ألف انفعال ، وما أن

وقعت عيناه على الرجل حتى ارتدت ملامحه الى الجمود ونظر الى مبتسما

وقال :

«لقد غادرت فراشك اذن!»

نظرة منه الى الرجل تفهقر هذا بعدها منسحبا فى هدوء ثم اغلق

الباب ، واقترب منى الطبيب :

«هل أنت مستعد؟! »

«لا .. »

قلتها بصوت باثر لم أعهده فى نفسى ، كنت مغيظا غاضبا ودمائى

تغلى ، استدرت مشيحا عنه فى عناد ، لكنه اقترب منى وهمس فى أذنى :

«انهم الآن مشغولون بالعاصفة ، هذه فرصتنا! »

التفت نحوه فأحسست وكأن الظلام يكتنف الدنيا كلها .

«لست أريد سوى نسمة هواء!»

«لن تحصل عليها وحدك!»

«هواء السفينة فاسدا!»

«ليس لدينا وقت نضيبه فى الكلام!»

«هل حققتنى بمخدر؟! »

«الهواء يزداد فسادا كلما تأخرنا!»

«هل حقنتني بمخدر؟!»
«لماذا تسأل سؤالاً كهذا؟!»

كدت أبكي من الغيظ فحتى تلك اللحظة لم أكن أستطيع أن أركز
انتباهي على شيء معين ، لم أكن أدري شيئاً أو أعرف شيئاً ، أريد أن
أعرف ... وعدت الى الصراخ من جديد :

«قال لي ذلك الرجل اني ظلت أهذى لأربعة أيام!»
«هذا صحيح!»

«كيف .. كيف يمكن أن يحدث هذا؟!»
«هذا دائماً ما يحدث ، بل لابد أن يحدث!»
«لست أفهمك ... لست أفهم شيئاً!»

احتدت نظرات الطبيب لأول مرة وهو يهمس في صوت غماضب :
«لا وقت عندي لهذا الهراء ، هل تأتي معنا أم لا؟!»
«الى أين؟!»
«اليه!!»

«لن نستطيع!»
«ليس امامنا سوى هذا ، ان الهراء يزداد فسادا لحظة بعد أخرى ،
ولن تمر أيام حتى نختنق جميعاً!»
«سيقاومونا!»

«أعرف ، ان على بابہ حراسا كثيرين!»
«سوف نهزم!»

«لو أردنا أن نتنصر فلسوف نتنصر!»
«وهل أقوى على هذا؟!»

«انك كالثور في قوته!»
«ولكني مريض!»

«لست مريضا».

«انى حائر» .

«انه اليأس» .

«لست أحمل سلاحا».

«عليك اذن أن تغضب ، وهذا يكفى!»

«أنذهب وحدنا؟!»

«الجميع معنا ... كل الغاضبين!»

«لن يأتى أحد منهم!»

«ليس لدى وقت بعد هذا ... أتأتى أم لا؟!»

اندفع الطبيب مغادرا الكابينة فدهمنى خوف قاهر ، ندت عنى صرخة مرتعبة فاندفعت وراءه دون تفكير ، تذكرت كل ماحدث لى وبحثت عن الغضب فى نفسى فلم أجده ، شىء واحد كان يدفعنى خلف الطبيب ... كنت أريد أن أرى الربان !

رحت أتخبط خلف الرجل داخل الممرات التى بدت معتمة ، كانت السفينة تترنح تحت ضربات الموج العاقى ، وكانت قدماى تترنحان فى الهواء بحثا عن أرض ، كانتا تتوهان طويلا ثم تجدان فى النهاية أرضا لا قرار لها ... وعندما دلفنا الى الممر الرئيسى لمحت فى نهايته أشباحا كانت تتزاحم بلا صوت ، اخترق الطبيب جمعهم فاستداروا جميعا اليه ، وجدت نفسى وسطهم ونحن نسبح من ممر الى سلم حتى أصبحنا أمام السلم الموصل الى كابينة الربان ... عرفت السلم فارتجفت أوصالى وعيناي تصعدان درجاته وتصطدمان بالحذاء المروّع ... وزجر رجل فى وسط الجمع :

«هواء .. نحن فى حاجة الى الهواء ... سوف نختنق!»

ورعد العملاق من أعلى السلم بصوت تزلزل له كيانى :

«ماذا تريدون؟!»

وصاح فيه الطبيب بصوت ثابت :

«نريد أن نراه!»

«لن يراه أحدكم!»

«افسح الطريق ولسوف نذهب اليه!»

«من يقترب منكم فمصيره حيتان المحيط الجائعة!»

وصرخ أحد الرجال فجأة وهو يندفع نحو السلم :

«هواء ... نريد هواء!»

دفعنا الرجل بذراعيه وقفز السلم مسرعا ، غير أنه سرعان ما هوى متدحرجا مضرجا في دمائه ، فأقدا وعيه ... سقط بين أقدامنا ساكنا لا يتحرك ، وسقط قلبي بين ضلوعي ، أحسست وكأن جسدي من الخوف قد تحول الى خرق جمعتها يد غير مدربة ، وانتابتنى غيبوبة أيقظتنى منها صرخة أخرى وجسد آخر هوى بين قدمي ساكنا بلا حراك ، وترقرقت في أعماقي دموع لم تنهمر ، حاولت البكاء لكن عيني لم تذرفا دمعة ، أحسست بالغيظ وصوت الطبيب يصل الى أذني ممزقا بالغضب :

«ابتعد عن الطريق فأنا صاعد اليه !!»

قال الطبيب هذا ثم اختفى في ظلام السلم ، هبطت بعيني الى حيث تكومت الجثتان ورحت أنتظر سقوط الجثة الثالثة ، بلا عاطفة ، بلا كراهية ، ولا حب ... انتابني اليأس لكن انتظاري طال فلم يسقط الطبيب ، رفعت عيني الى السلم فرأيت الحذاء الغليظ يرتد الى الخلف ثم يندفع الى الأمام ليرتطم بوجه الطبيب في ضربات قاتلة .. انه نفس الحذاء ، ونفس الطريقة ، الغيظ في أعماقي يفور والدموع تتحجر والطبيب لازال متشبثا بمكانه لا يسقط ، ثم تذكرت ما حدث لي فانتفض للغضب معربدا في صدري ، ودقت في أنحاء السفينة أجراس الخطر ، واختلط رنين الأجراس بالصرخات والصيحات ، والطبيب في مكانه لا يتزحزح ، والدماء

تنزف من وجهه ، والحذاء يرتد لينطلق بجنون ، والصرخات من حولي تلهب
دمائى فاذا بى أصعد السلم كالمجنون ، وأنفذ من جوار الطبيب ، وترتد
القدم الى الخلف وتتايل السفينة ويترخ العملاق ، وألقى بكل جسدى
عليه ، وأصرخ ، أصرخ كالمجنون ... ويسقط العملاق ويندفع من فوق
جسدى عشرات الرجال ، ورأس العملاق بين كفى ، وعيناه مليئتان
بالموت فلا حراك ولاجزع ... وكل شيء يغم ، والأصوات تتداخل ،
والأحداث تجرى بنا ، واذا بى أقف مع الطبيب أمام باب الكابينة المغلق ،
وفوق الباب قرأت كلمة «السيد»!

امتدت يدي لتفتح الباب لكنه لم يفتح ، نظرت للطبيب
مستغيثا فقال :

«لابد من تحطيمه!»

وتوقفت نظراتى فوق وجهه فشهقت وتراجعت الى الخلف ، لم يكن
الوجه مصابا بشيء ، ولم تكن هناك دماء تنزف ، سألتى الطبيب عما بى
فلم انطلق ، رحى أهر رأسى غير مصدق وأنا أشير اليه ونظراتى تتردد
ما بين وجهه وجسد العملاق الممدد على الأرض بلا حراك ... أين الدماء
وأين ضربات الحذاء الغليظ؟! ...

وابتسم الطبيب وكأنه قرأ أفكارى ثم تتم :

«لقد محاما الغضب!»

قالها وهو ينقض على باب الكابينة بكل جسده ، فهوى الباب
تحت ضربته ، واندفعت أزامحه الى الداخل وفي حلقي ألف صيحة ، غير
أنى ماكدت أتوسط الكابينة حتى تسمرت فى مكانى ، واحتبست
الصيحات فى حلقي ... فقد كانت الغرفة خالية!!

رحى أنظر الى الطبيب فوجدت ابتسامته قد ازدادت اتساعا ،
وسمعتة يتمم وكأنه يحدث نفسه :

«كنت متأكدا من ذلك ، كنت موقنا أنه ليس موجودا!!»

ساد الصمت تماما ... ووقفت مع الجميع ساكنين للحظات ، لم يكن أحد هناك ، لاحراس ولا وجوه شمعية ولا عيون زجاجية ... والكابينة خالية تماما .

حتى العاصفة في الخارج كف وهدأت واستقرت السفينة في سيرها ... وتقدم رجل نحو باب السطح ابفتحه ، لكن الباب لم يفتح ... تردد الرجل للحظات ثم صرخ في الجميع من حوله :

«الأبواب هي الأخرى كانت موصدة ... هواء ... هواء ... تريد

هواء !!»

وقال الطبيب وهو يتقدم وفي يده معول :

«لابد من تحطيمها .. لابد»

وانهلنا جميعا نحطم الأبواب والنوافذ ، واندفعت نسمات الهواء تملأ السفينة ، وغمرنا الضوء لأول مرة ، ووقف رجل يغسل جسده في النور وهو يصيح :

«انها الشمس ... اننا في النور !»

واندفعنا جميعا الى الخارج ، كنا نبحث عن ذوى الوجوه الشمعية والعيون الزجاجية ، لكننا لم نجدهم ... كانت العاصفة قد ابتلعتهم جميعا

١٩٦٢

خطاب إلى رجل ميت

— ١ —

لايعنينى أن يصدق أحدكم هذا أو لا يصدقه .. وستقولون حتما أنى
سكران يهذى ... فليكن . غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة
شيئا ، وهذه هي الحقيقة كما حدثت لى ذات مساء فى تلك الجزيرة !
كان المساء قارص البرد ، ولم يكن فى ميناء الجزيرة سوى سفينتنا ،
ورغم هذا بدا الميناء ليلتها مشتتلا بالأضواء والضحكات والصخب ، كان
الرجال قد ذابوا فى الزحام الذى أحاط بنا منذ رفعنا راية الرحيل ، وكان أهل
الجزيرة يصفقون ويغنون ويرقصون ويقدمون لنا كل ما نطلب بلا مقابل ... لم
يكن معنا مال ، ولم يكن لدينا ما نبادل به ، وكان وقت الرحيل يقترب ، ولم
يبق لنا سوى تلك الليلة !

منذ متى رسونا على شاطئ هذه الجزيرة ؟!

لم أكن ليلتها أدرى ، ولست أدرى حتى الآن كم من الزمان مضى
علينا هناك ، أو لماذا ذهبنا ... ومنذ اللحظة الأولى لوصولنا كان كل شيء
يبدو لنا غريبا مثيرا ... كنت اذا وقفت فى غرفة القيادة أو تسلقت صاري
السفينة ، استطعت رؤية الجزيرة بأكملها ، كنت أرى من مكاني هذا
شاطئها الآخر ... كانت صغيرة وحيدة ، تبدو مثل شيء نساه صاحبه فى
فضاء ... وكانت بيوتها صغيرة ، وشوارعها ضيقة ، وحواريها لاتسع أكثر

من شخص يمر ، وأبوابها واطئة ، وساكنوها باهتي الوجوه غريبى اللغة ،
كانوا يبدون وكأنهم يهتمون ولا يتحدثون !!

كانت الجزيرة كمدينة مسحورة ، كل شىء فيها صغير دقيق كأنه
صنع ليصبح لعبة ، وكان الليل اذا انتصف ولعبت الخمر برءوسنا رحنا
نذرع الشوارع والحوارى ، ونصيح ونصافح ساكنى الأدوار العليا
ونحن نسير فى الطريق !

فى تلك الليلة لم يكن أحدنا ليصدق أن وقت الرحيل قد حان ،
كان المحيط غاضبا منذ أيام كثيرة العدد ... ربما منذ أسابيع ، وربما
شهور ، وكانت أمواجه تنهش أطراف الجزيرة ليل نهار ... وكلما اكفهر
الجو وتلبدت السماء بدا المحيط للعين عظيما ، وأصبح اقلعنا فى مثل
تلك الأنواء يعنى الموت ، فرحنا ننتظر ونتنظر ، وجاء علينا يوم أحسنا
فيه أن الجزيرة تصغر ، وأن أهلها يتكاثرون ، وأنها تضيق بنا ... وأصبح
رحيلنا عنها أمنية من الأمنى ، ثم أصبحنا نجلس بالساعات فوق سطح
السفينة نرقب المحيط من بعيد ، ولانفعل شيئا سوى الانتظار .

فى تلك الأيام كنت قد أنفقت كل ما أملك من مال فى ذلك البار
الصغير المواجه للميناء ، وفى البداية كنا نذهب الى البار اذا ما حل
المساء ، وأصبح ذهابنا اليه مع الأيام كأنه عودة الى البيوت
والزوجات ... كان صاحب البار رجلا لايعرف الكلام ، كان يكفيه أن
تطلب منه أى شىء فى الدنيا بأية لغة شئت ، ليفهم ، ويلبى ... وكان
الرجل لايعرف معنى كلمة : «لا!» .

وكانت لى — مثل كل الرجال على السفينة — امرأة ... كانت
صغيرة دقيقة وكأنها خلقت لتصبح تمثالا ... كانت جميلة الوجه ،
حائرة العينين ، هامسة الحركة ... ومنذ الليلة الأولى للقائنا أعطتني كل
مأردت ، كان يكفى أن أفكر فى شىء أو أرغب فيه حتى تلبى دون
كلمة ... وبعد أيام اكتشفت أنى لأعرف اسمها ، وحيرنى الأمر كثيرا ،

حيرنى ليال وأنا أسألها عن أسماها فلا تجيبنى الا بتلك الهمهمة الغريبة التى لم أكن أفهمها ... ثم نسيت الأمر تماما ، نسيته عندما بدت لى تلك المرأة ذات ليلة شربت فيها كثيرا ، وكأنها خلقت من مجموع رغباتى !!
وعلمتنى الأيام أن أهل الجزيرة كلهم كذلك ، ما من شىء طلبه الرجال الا وجدوه ، وعندما نفدت نقودى رحى أسرق من حمولة السفينة وأبيع ، كان ابتعادى عنها يبدو لى كأنه ضرب من المستحيل ، وما يكاد الليل يأتى حتى تشتعل فى جسدى تلك الرغبة المجنونة فى لقاءها ، ويلتهب حلقي بالعطش الرهيب ، وترتجف يداى بحثا عن ذلك الجسد الناعم الدافىء ، الذى مايكاد يدفن نفسه فى أحضانى حتى تتحول الدنيا من حولى الى نغم ، ونفد ثمن ماسرقت ، فسرقت من جديد ، رحى أسرق وأبيع وأسرق وأبيع ثم اكتشفت ذات ليلة أن كل الرجال قد نفدت نقودهم منذ زمن ، وأنهم جميعا يسرقون مثلى ... وسرعان ما أصبحت السرقة قانونا بيننا ... ثم بدأت حمولة السفينة تنفد ، ولم تهدأ أمواج المحيط ، ولم يصف الجو وظلت السماء ملبدة ، والموج ينهش أطراف الجزيرة ، والناس يتكاثرون ... وأصبح لا بد لنا من الاقلاع !!

— ٢ —

كانت الأيام كلما مضت ، شحت نقودنا أكثر ، وازداد أهل الجزيرة صمتا ، ولم يعد صاحب البار يلبي مانطلبه قبل أن يأخذ الثمن ... وكانت امرأتى كلما طلبت شيئا رحى أبحث كالمجنون عن شىء أبيعته ، ثم أصبحت السفينة كالخراب . وبحثت ذات مساء عن امرأتى فلم أجدها ، سألت صاحب البار فهمهم بكلام لم أفهمه ... قطعت الشوارع والحوارى والأزقة بحثا عنها دون جدوى ، كانت وكأنها تبخرت ، وكان الرجال كلهم مثلى ، كنا نلتقى فى الشوارع وكل منا يهيم على وجهه بحثا عن امرأته ، وكان كل منا يوصى صاحبه بالبحث ... ومضت الأيام لكننا لم نياس ،

ظللت ألهث وراء كل امرأة أراها ، وظللت أسأل صاحب البار في كل صباح وكل مساء . وأطرق باب البيت الذي آوانا ليال طوالا ، وأسأل كل من أقابله دون جواب !!

وكان كل الرجال يفعلون مثلى ، ولم يعد صاحب البار يأويننا ، وكان أهل الجزيرة يزدادون عددا وكأنهم يتوالدون كل يوم ، وبدأت كالمجنون أصرخ في كل من أقابله سائلا عن امرأتى دون جدوى ، ونمت ذقنى يوم نمت ذقون الرجال ، واستطال شعرى يوم استطالت شعورهم ... ولم يعد أهل الجزيرة يتسمون فى وجوهنا ، ولم يعودوا يردون علينا التحية ... ونخيل الى ذات يوم أنهم لا يروننا ، وكنا نسير فى الشوارع وسط الزحام كالأشباح المخفية ، ونفد كل مالدينا من طعام ، وأصبحنا لانفعل شيئا سوى الجلوس فوق السطح نرقب الأمواج الثائرة ، وقد يطل قرص الشمس من بين ركام السحب السوداء ، لكنه سرعان ما كان يختفى ليحل محله الظلام والزمهرير وقصف الرعد وزئير الأمواج !

ثم فقدنا عقولنا تماما ، وانتابنا الجنون ذات مساء عندما صاح أحدنا بأنه سيقتل كل أهل الجزيرة ، وأحسست وأنا أعدو وسط الرجال أن شيئا فى دماى يخرق ، واندفعت وسطهم أحمل فى يدى بلطة حادة ، وكانت رغبتى الوحيدة أن أعثر على امرأتى كى أقتلها !

— ٣ —

بعد ساعة كان غضبنا العظيم قد تحول الى يأس ، كنا نعود الى السفينة نجر أذيال الهزيمة كجيش مزقته الأشباح ، وكان كل منا ينظر الى الآخر غير مصدق ، ولم يجسر أحدنا على الحديث أو الكلام ، فعندما داهمنا الجزيرة وجدنا أهلها فى الانتظار ... كانوا يقفون أمامنا فى كل مكان ذهبنا اليه ، ولم يكن أحدهم يحمل فى يده سلاحا ، ولم يقل أحدهم كلمة ... كل ما فعلوه هو تلك النظرات الغريبة الحادة التى كانت تخرق

رعوسنا وتشل أطرافنا وتطفى نار الغضب في صدورنا ..

ظللت أعدو وسط الرجال كالمجنون ، كنت أحس أنى فقدت عقلى
وكنت أعى ذلك وأعرفه وأرحب به ، ولقد كان الجنون عندى أفضل ألف
مرة من الجوع ، وعندما مررنا برجل كان يأكل رفعت بلطتى فى الهواء
وهويت بها فوق رأسه ، وقفز الرجل من مكانه قفزة صغيرة قصيرة ، وهوت
البلطة لتغرس فى الأرض وظل الرجل يأكل ... رفعت البلطة مرة أخرى
وهويت بها فقفز تلك القفزة الصغيرة وانكفأت على وجهى وارتطمت
رأسى بأرض الجزيرة ... رفعت البلطة مرة ثالثة وكانت عيناه تنفذان داخل
عينى فأيقنت أن لافائدة ... وتدللى ذراعى بجوار جسدى ، وسمعت فى
داخلى صوت غضبى ينكسر ، فسالت الدموع من عينى وسألت الرجل
فى توسل :

«ألم ترها؟!»

حملق الرجل فى وحدى ولم يقل كلمة ... بدا أنه لايفهم شيئاً .

«ألم ترها ؟ ... ألم تر امرأتى؟!»

ولم يكن هناك مايمكن أن أقوله ، فلم بيد على الرجل أنه يسمع ، لم
يتحرك ، ولم يتكلم ، وظل يلتهم طعامه فى صمت ... وعدت الى السفينة
دون أن أمسح دمعى المنهر .

— ٤ —

كانت السفينة قد أصبحت كالمهجورة ... وشحبت وجوهنا
واستطالت سحننا وغارت عيوننا وتاهت نظراتنا ... وهجرت فراشى ورحت
أهيم فى أرجاء السفينة ليل نهار ، وكانت ممراتها قد اتسخت ، وأحست
الفيران بالأمان فراحت ترتع فى كل مكان بلا خوف ولا رقيب ، وأصبح
الهبوط الى جوف السفينة كالهبوط الى جوف قبر ... واتخذت لنفسى مكاناً

بجوار السياج ورحت أرقب الأفق في صمت ، كنت جائعا عطشان مثل كل الرجال ... وكانت رؤية قطعة من الخبز كفيلة بأن تسيل لعابي ، وكثيرا ماتشاجر رجلاان من أجل قطعة من الجبن ... ولم أعد أفكر في البحث عن امرأتى ، كان الهبوط الى الجزيرة معناه مزيد من الشقاء ثم جاءت أيام منعنا فيها الحراس من مغادرة الميناء ، وكانت أصوات أهل الجزيرة تصل إلينا في الليل مع سحابة الضوء التي أصبحت تظلل شوارعهم الضيقة ، وفي بعض الأحيان كان يأتيني غناؤهم من بعيد ، وكنت كلما سمعت أصواتهم الثاقبة ازدادت في صدري الرغبة في الرحيل كأن شيئا يطاردنى ... وكانت أمواج الميحت تشتد علوا وزجرة ؛ ثم علت المياه فافتحمت حاجز الأمواج واندفعت تلطم جوانب سفينتنا في وحشية ، ولاتكف الرياح عن الصفير ، وكلما أوغل الليل كلما اشتد بى القلق ، كنت أهيم على وجهى فى السفينة ويرتطم جسدى الهزيل بأجساد الرجال ، ويطاردنى ذلك الشيء اللزج الذى كان يبعث فى نفسى الخوف ... وصرخت ذات مرة ثم أفقت لأجد نفسى محاطا بالرجال وكنت أبكى ... واشتد العذاب بأحد الرجال ذات مساء فحمل بلطته واندفع مغادرا السفينة وراح يضرب كل من يقابله ... لكنه لم يصب أحدا . وعاد إلينا مع أول أضواء الفجر مهدل الجسد يجرجر قدميه وفى عينيه نظرات تائهة .

ثم قررنا ذات ليلة أن نرحل !

بدا لنا الأمر فى البداية مخيفا رهيبا لاطاقة لنا على احتماله ... وبدا لنا المحيط كوحش هائج يفغر فاه فى انتظارنا ... غير أن أحدنا اندفع يرفع فوق الصارى راية الرحيل ، فغمرتنا على الفور فرحة صاخبة ... كنا نعرف أننا سنواجهه ، وكنا نعرف أنه لايزال غاضبا ، وأن أمواجه تزداد توحشا ، وسماؤه تزداد قتامة ، وكانت نظرة واحدة نحو الأفق كفيلة يبعث الرعب فى قلوب أقوى الرجال وأكثرهم صلابة ... ورغم هذا أحسست أن جسدى

أصبح خفيفا ، ولم أعد جائعا ، ودبت في أوصالي فرحة الخلاص ، ورحت أعمل مع الرجال طوال اليوم في حماس ... نظفنا الممرات وطاردنا الفيران ، وتعالت ضحكاتنا وغسلنا السطح وجهزنا الشراع وقسمنا نوبات العمل ... وعندما جاء ذلك المساء كان شديد السواد ، وكانت السفينة مضائة كعروس ، وكان سطحها يشغى بالحركة ... أحسست ساعتها كأن حملا قد اقتلع من داخل صدري ، وضحكت مع الرجال وأنا أحلق ذقنى ، وغسلت جسدى بالمياه ، وبدت لى أمواج المحيط مثل عروس أستعد لزفافها ، وبدا لى الأفق وكأنه غاية ، وكنت كلما سمعت ضحكة رجل أجيب عليها بضحكة أشد صخبا ... كنت أريد أن أضحك ، وأن أغنى ، وأن أرقص إن استطعت !!

— ٥ —

لايعينى أن يصدق أحدكم هذا أو لا يصدقه ... وستقولون حتما أنى سكران يهذى ... فليكن ، غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة شيئا ، وهذه هى الحقيقة كما حدثت لى فى ذلك المساء فى تلك الجزيرة ! فكأنما جذبت ضحكاتنا ومرحنا أهل المدينة ... وماهى الا لحظات حتى شاهدتهم يخرقون الشوارع والحوارى ويتزاحمون عند باب الميناء وكانوا يحملون المشاعل ... وكلما ازدادت ضحكاتنا كلما ازداد تدفقهم ، وكلما رأينا جموعهم داخلنا شعور وحشى بالسعادة ، وصرخت فيهم من فوق السياج :

« كلاب ! »

فابتسبوا ، ثم ضحك أحدهم ، ثم تعالت ضحكاتهم مثل شقشقة طيور برية ، كانوا يبدون أشد سعادة منا ، وأشد حماسا لرحيلنا ... وراحت عيناي تبحثان وسط الجموع عن امرأتى ، خطرت ببالى فخطرت لعينى ، كانت واقفة هى الأخرى وسط الجموع تبسبم ... وبدا لى وجهها الصغير

كقرص سحري لكوكب هوى الى الأرض واستقر فوقها مضيئاً ، واشتعلت في دماي تلك الرغبة المجنونة ، واشتعل ذهني بحثاً عن شيء أبيعهُ ، صحت بها منادياً فلوحت يديها منادية ، وتعالَت الأصوات من حولي ، وصخبَت الضحكات ، وبدأ لي أن كل شيء يبدو معقولاً ، وأن ما حدث كان يمكن أن يحدث ، وأن رغبتى في الغفران تساوى رغبتى في جسد امرأتى المرتجفة وسط الجموع باللهفة ... نظرت نحو الرجال على سطح السفينة فوجدتهم جميعاً يتبادلون النظرات ، وكلما تلاقَت نظراتى بنظرات رجل أغرقت في الضحك أكثر ، كنت أرتجف بسعادة غامضة شديدة الغموض ، استدرت نحو المحيط وراحت عيناى تحاولان اختراق الأفق المظلم ، ملأت صدري بالهواء وأحسست بالرغبة في التحليق ، وصاح رجل بجوارى فى امرأة كانت تغريه بالهبوط :

«ليس معى نقود .. انى مفلس!»

وصاحت به المرأة بصوت كالموسيقى :

«لست أريد شيئاً!»

ارتجف قلبى كززال هزنى بعنف ، ثم صرخت كالمجنون غير

مصدق :

«انهم يتكلمون !!»

وتعالَت الضحكات والنداءات وعادت المرأة تنادى على الرجل :

«لست أريد سواك!»

وعدت أصرخ :

«انها تتحدث ... انها تقول شيئاً»

غير أن أحدا لم يسمعنى ، كان الرجال غارقين فى الضحكات وقد

تجمعوا حول الرجل وراحوا يدفعونه نحو سلم السفينة ... ارتجف قلبى

برعب خفى ، وعدت أصرخ فيهم :

«انها تتحدث ... انها تتكلم ... انها تقول شيئاً!»

ودفعنى أحدهم بعيداً وهو يصيح :

«وماذا فى ذلك؟!»

«انهم لم يتكلموا من قبل!»

«وماذا فى ذلك؟!»

وانزلق الرجل فوق درجات السلم وهوى نحو الرصيف فتلقفته المرأة
بين ذراعيها ثم ذابت معه وسط الظلام .

— ٦ —

أصبح مذاق الخمر عظيماً ... وكنت كلما شربت كأساً
اشتدت رغبتى فى كأس أخرى ... كنت أطلب ، وكان صاحب البار
يلبى ، وامتلاً المكان بسحابات دخان كثيف ، وكان الرجال يضحكون
ويأكلون ويشربون فى نهم ... وبدأ لى الأمر وكأنه حلم من تلك الأحلام
الخيالية ... فقد كان أهل الجزيرة يتحدثون !! .

«تعالى ...»

كانت امرأتى تقف على الرصيف وحدهما ، وكنت أقف فوق
السطح وحدى .

«تعالى ...»

كان الرجال قد اندفعوا يهبطون سلم السفينة فى جنون ، وكانت
صرخاتى تضيع وسط صخبهم وضجيجهم ... كانوا يبدون وكأنهم فقدوا
عقولهم ، وبدت الميناء مشتتة بالأضواء والضحكات والصخب ، وذاب
الرجال فى الزحام ، وتعالى الأنغام وارتجت أرض الجزيرة بالرقصات ... ثم
اختفى الجميع وهم يحملون المشاعل من الميناء ... وظلت امرأتى واقفة فى
مكانها وكأنها تسمرت هناك ...

«تعالى!»

كنت أسمع صوتها كأنه لحن تبعث حلاوته الجنون في دماي ...
«تعالإلى!»

أردت الكلام فخرج صوتي صراخا أو نواحا أو عويلا فقد كان

الخوف يقهرني :

«ليس معي نقود!»

«لست أريد شيئا!»

«لم يعد في السفينة شيء نبيعه!»

«لست أريد سواك!»

«اني جائع!»

«عندي من الطعام مالا يخطر لك ببال!»

«عطشان!»

«سأشترى لك خمرا لم تذقها في حياتك!»

«جسدي مريض!»

«دواؤك في شفتي!»

«قلبي بارد!»

«سيخفق عندما تقبلني ... هل نسيت؟!»

«أنت تتحدثين!»

«كنت أحدثك منذ ولدت!»

«ما أسمك؟!»

«انت تعرف أني لك!»

«هاجمتنا الفيران بالأمس!»

«عندما تعود ستجدها قد اختفت!»

أحسست أني أصبح داخل كرة بلورية قائمة اللون ، كانت
قدماي تهبطان السلم دون ارادة ، كنت أطيع فاذا بجسدي يسبح في

الفضاء اليها ... تلقفتني بين ذراعيها في وجد ... وكانت عيناها الحائرتان
ترددان فوق وجهي ، وعندما احتوانا الدفء في البار سقتني كأسا
فأحسست بأوصالي تتجمد ، وكلما شربت اشتد التهاب حلقي ، وعندما
نهضت تبعتها صاغرا ، وعندما احتوتنا الغرفة المظلمة تصاعدت أنفاسها
فوق عنقي ، أردت عناقها فتصلبت ذراعاي ، وعندما قبلتها كان لشفتيها
طعم الجثث ، وعندما طوقت عنقي بذراعيها ، أحسست بالوحدة تجثم على
صدري كالموت .

— ٧ —

لم يعد باقيا سوى ساعات .
كانت زجرة الأمواج تهز أرض الجزيرة .
كان ضوء الفجر ييزغ من خلف الأفق رمادي اللون .
وكانت محاولاتي كلها قد باءت بالفشل .
لم أعد أريد ..
أزحت المرأة جانبا ، وهزرت رأسي في يأس ، وجاءني صوتها عبر
الظلام :

«لم تعد تريدني!»
واستدرت نحو مصدر الصوت كالمسوع ، كان صوتها كالعزف على
آلة شديدة الرقة عذبة النغم .

«لم أعد أعجبك!»
رحت أبحث بيدي في الهواء عن شيء لأدريه .
«تعالى!»

وأصبح صوتها مثل حية تلتف حول عنقي .
«تعالى الى!»

كنت أصرخ وودق قلبي وظللت أتخبط في الظلام ... كان جسدي

ثقيلا وكأنه امتلأ بالزئبق ، وتحركت المرأة بجوارى ونفث جسدها سحابة من
الدفء شملتني ، ثم لامس جسدها العارى لحم جسدى فارتجفت ، وسمعتها
تقول وهي تغادرني :

«هدك الجوع!»

وانتفضت مغادرا الفراش وأنا أزجر ...

«ليس معى نقود!»

رحت أبحث فى الظلام عن ملابسى .

«لست أريد منك شيئا!»

كنت أتخبط وأدور حول نفسى ...

«لأحب شيئا بلا ثمن!»

وسمعت حفيف جسدها يسبح فى الهواء ...

«لقد أطعمتك!»

«كنت جائعا!»

«وسقيتك!»

«كنت عطشان!»

«لست أريد سواك!»

واندفعت خارج الغرفة هاربا .

— ٨ —

لم يعد باقيا سوى دقائق ، كانت شوارع الجزيرة قد امتلأت
وازدحمت بأهلها ، وكان قرص الشمس يسقط من بين السحب داخل
عينى ، وكانت هى تسير بجوارى نحو السفينة لاتقول شيئا .. دلفت من
باب الميناء فجاءتنى صيحات الرجال من فوق السطح تنادينى ... وكان
الزحام شديدا ، والأصوات متشابكة ، والفرحة تزغرد فى عيون الجميع
وأصواتهم ...

«سوف تعود يوما!»

«لا ... لن أعود!»

«لسوف تعود حتما!»

كان يدها تتسلل الى ذراعى ، وكانت صيحات الرجال من فوق
السطح تدوى فى أذنى كالرعد :
«تأخرنا!»

وتعالت الأصوات ودبت الأقدم وكانت المرأة تبدو شديدة
الشحوب ...

«انت خائف!»

«ماذا تريدین؟!»

«هل تعود؟!»

«ماذا تريدین!»

وامتدت يدها الى صدرها وأخرجت خطابا ... مددت يدي الى
الخطاب فالتصق بها ، وضعته فى جيبى فذاب فيه ..
«لمن؟!»

«عندما تبحر ستقرأ العنوان!»

«عندما أبحر لن أعود!»

هزت رأسها فى ابتسامة ثم ألصقت شفيتها بشفتى ...

وجذبتنى صيحات الرجال الى أعلى ... واشتد زئير الرياح وعندما استدارت
السفينة نحو المحيط ، انقضت علينا الأمواج الشرسة بلا رحمة ، لكن الشراع
كان مفرودا فى الهواء كجناح طائر أسطورى ... وراحت الجزيرة تبتعد ونحن
نوغل فى الفضاء ، يوم ويومان وثلاثة أيام واذا بالشاطئ لا يبدو لعين ...
كانت العاصفة تزداد كلما أوغلنا فى السير ، واختفت الشمس تماما ،
وتذكرت الخطاب ذات ليلة فأخرجته من جيبى ، وقعت عيناي على العنوان
فارتجفت ...

«الى قبطان «الرغبة» ... التى غرقت فى المحيط ذات يوم ولم ينبج
منها أحدا!»

— ٩ —

لم أجرؤ على الحديث مع أحد ... أعدت الخطاب الى جيبي وقد
شملتني سحابة باردة من الفزع ... كان الخطاب الى رجل ميت ، وانذب
فى قلبى ذعر شديد ، وعندما خرجت الى السطح كانت السفينة
تصارع أمواجاً عاتية ، اندفعت مع الرجال أجذب الحبال وأقفز هنا
وهناك ، كان الصوت يلاحقنى فى ذلك الفضاء اللانهائى ...

«لسوف تعود حتما ... لسوف تعود»

وعندما دوت من قلب السفينة صرخة رجل أيقنت أن النهاية قد
جاءت ... كان الموج قد حطم جانب السفينة ... رحنا نتدافع بجنون
لتنزح المياه ، تلبدت السحب أكثر ، وصرخ رجل من فوق الصارى
مذعورا :

«جبال الثلج!»

وكانت جبال الثلج تتهاذى غير بعيدة عنا ، كانت تسبح مع
الموج كالموت ، ودوت فى أرجاء السفينة صرخة أخرى ، وتعالى الصيحات
فقد انفتح جانب السفينة الآخر ... وعندما ارتج السطح تحت
أقدامنا أيقنت أن الهلاك آت لا ريب فيه ... تحولت السفينة الى أشلاء على
سطح الجبل السابح ، وراح الرجال يقفزون الى المياه فى ذعر ...
وتعالى صرخاتنا وسط الأمواج المزججة ، سبحت نحو قطعة طافية وتعلقت
بها ... لست أدرى كم مضى من الزمن ، فعندما أفقت كنت وحدى راقدا
فوق قطعة الخشب السابحة فوق سطح كالزيت ... كانت العاصفة قد
ولت ، واختفت السحب ، وأطل قرص الشمس دافئا فوق المياه التى بدت

لعينى كالبلور ... نظرت حولى فلم أجد سوى فضاء ، تذكرت الخطاب
فمددت يدي الى جيبى فى لهفة ...
لكنى لم أجده!!

١٩٦٤

شئ بلا رائحة

هل رأى أحد منكم ذلك الموت الذى يختطفنا جميعا واحدا وراء الآخر؟!

أنا رأيت ، وشممت رائحته ... وهى ليست رائحة عفنة على أى حال ... انها رائحة لاتشم ، هى ليست عطرة ، وليست منفرة ... انها رائحة بلا رائحة !!

عندما رأيت الموت فى ذلك الضحى وذلك اليوم وتلك الليلة ، لم أكن أنا قد مت بعد ، وكل ما حدث أن السفينة انفجرت فجأة ، واندلعت ألسنة النيران فوق سطح المياه فالتهمت ... وتمزقت جوانبها الصلبة وكأنها جدران لعبة من الورق ، وبجوارى تماما تناثرت أشلاء صديقى حسن ، وطار جسد صبحى فى الهواء ثم هوى الى سطح المياه ككرة قذفت بها قدم حديدية ، ووجدت نفسى بعد ذلك داخل مياه البحر .

لم أكن قد مت بعد فى ذلك الوقت ، لذلك استطعت أن أصعد من جديد الى سطح المياه ... وللحظات قصار خاطفة ، انتابنى رعب هائل ، أين ذراعى ، أين ساقى وقدمى ويداى ورأسى وعينى وأذناى ... ورأت عينى جسد كامل البحار وهو يجرى فوق سطح السفينة والنيران تنهشه ، وسمعت أذناى صرخاته التى طوتها الأمواج الرقيقة ، فقد كان البحر هادئا ، وسطحه كالزيت ... ومن بعيد ، رأيت باقى

الرجال وهم يقفزون من السفينة صارخين صائحين فلم يكن هناك وقت ،
فالسفينة تغرق وتغوص بسرعة في المياه ..

وبعد لحظات أو دقائق وربما كانت ساعات — لست أدري —
كنت قد ابتعدت عن السفينة بقدر كاف .. نعم ، انى أتذكر الآن ...
لقد سبحت ورحت أضرب المياه بذراعى وقدمى كالمجنون ، وعندما ابتعدت
رأيتها ترقد على جانبها فى استسلام ، وكانت مدخنتها ترسل سحباً صغيرة
من الدخان ، سحباً متقطعة كأنها تلفظ آخر أنفاسها ، وكان الزيت
المشتعل يحوطها من كل جانب ، وألسنة النيران تحوى أجسادا كانت
تعوى : لا يمكن ... أبدا ... لا يمكن أن أذكر لمن كانت هذه الصرخات
وهذا العواء ، فالذى لاتعرفونه ، والذى أعرفه أنا عن يقين أننا أمام الموت
نصبح سواء ، صرخاتنا واحدة ، وأصواتنا واحدة : وخوفنا واحد !!

أنا ؟! ... نعم كنت خائفا ، وماذا فى ذلك ؟ ... كنت خائفا
وكنت أبكى أيضا وأنا أذكر أبى وأمى وأخوتى وزوجتى وابنتى فى ثوان
خاطفة ... ثم تلاشوا جميعا وسط اللهب ولم يبق من حقائق حياتى سوى
ابنتى !

نعم . هى التى بقيت فقط فى ذاكرتى ، وذكرها هى التى بعثت
بالدمع الى عيني ، وعيناى كانتا ملتهبتين ، والزيت المشتعل يأكل ذاته
ويختفى ، والشمس فى السماء تنحدر متفرجة ، والسفينة يتلعها البحر ثم
يتجشأ من بعدها نافورات من الهواء راحت تضرب سطح المياه
لدقائق ... ثم وجدت نفسى وحيدا .

لم أكن قد مت وقتها ، كنت لأزال حيا أسبح ، وكانت ابنتى
هى الأخرى قد اختفت من ذاكرتى ، فهناك سؤال وسط كل هذا الذى
قصصته عليكم راح يلح على ذهنى الحاحا متصلا ... كيف حدث
ماحدث ؟!

هذا ما لم أستطع أن أتبينه وسط الضباب الذى كان يغلف عقلى
ويضع بينى وبين العالم حاجزا كثيفا فلم أعد أرى ولم أعد أسمع أو أعى شيئا
فقد كنت أقف عند حافة الموت ولاشك ، وكنت أعرف ذلك عن يقين ،
كنت أعرف أنى سأموت بعد دقائق فلم ينتبنى الذعر أو الخوف ، وحلت
بى سكينه كتلك التى كانت تحل بروحى عندما يحتوينى ذراع أبى فى أحيان
قليلة من عمرى فى تلك البلدة الصغيرة التى خرجت منها الى البحر وكأنى
أخرج من قمقم مغلق الى عالم بلا حدود ..

ولابد أنى فعلا كنت أقف على حافة الموت فى تلك اللحظات لأن
الشمس مالت فجأة وراحت تنحدر نحو الغرب بسرعة وكأنها تنزلق فوق
سطح أملس ، وظلت فى انزلاقها هذا حتى لامس قرصها حافة الأفق
البعيد ... لحظتها توقفت عن الانزلاق وظلت فى مكانها للحظات وكأنها
تريد أن تنير لى الطريق الى شىء بعينه ... ورأيت على البعد شيئا
يسبح ، وحاولت أن اتجه اليه فلم أفلح ، كنت أموت فى تلك
اللحظات بالفعل ، أو بمعنى أدق كنت قد مت حقا ، عدا جزء صغير ،
هو عيناي ... فى تلك اللحظات ، لم أكن أشعر بشىء ، كان جسدى
قد تحول الى شىء ملتصق بذاتى ، اذا انفصل لم يعد الامر مهما ، وأمام
العجز عن الوصول الى الشىء العائم لم أبذل أى مجهود يذكر ، وتحولت
عيناي الى قرص الشمس فوجدته حيث كان ... يلمس حافة الأفق وهو
منتظر ... ثم راح ينزلق فى ببطء حزين حتى اختفى جزء منه وراء الأفق ،
غير أنى رأيته يتوقف عن الانزلاق من جديد ، وخيل الى أنه يتسسم ...
واتجهت عيناي على الفور الى الشىء العائم ، فوجدته يسبح نحوى
ويقتررب منى ... كان قطعة خشب انفصلت عن سفينتى .
ترى ... من أى مكان فى السفينة هذا الجزء !؟

انبثق السؤال فى ذهنى ثم اختفى وذاب وأنا أرى ذراعى تتعلقان به

مع كفين في لون الموت الشاحب ... وهزرت عيني في عجب من أمر هذا الموت ، أنه ليس مخيفا كما كنت أظن ، فلست أشعر بشيء على الإطلاق ، لا ألم ، ولا خوف ، ولا رعب ، ولا ... لاشيء أبدا ... أبدا سوى أن عيني كانتا تريان أطراف قطعة الخشب الممزقة ..

وتذكرت والدي ... ورأيت يكي .

وكانت أُمي في البيت تولول وقد ارتدت السواد ...
ولي أخ لم يعلم بعد بموتي ، كان لاهيا مع خطيبته ...

وفي إحدى غرف البيت كانت زوجتي ذاهلة محطمة وهي تحتضن ابنتي التي كانت تسأل بالحاح : « بتعطى ليه ياماما؟! »

من الذي سيرعاها من بعدى؟!!

وراحت دموعي تسيل من عيني ... ليت الموت يمهلني للحظات حتى أعتذر لها ... لكنها لن تفهم شيئا فهي لاتزال في عمر الحياة ، كانت تلعب دائما معي وتقول : يا عجوز! ... ورغم شبابي كانت تسعدني منها هذه الكلمة ، بل أني كنت ألاعبها لكي أبتز منها هذه الكلمة ... ستسأل يوما ولاشك عني ، وستسأل يوما آخر ثم ستنسى ولن تذكر الا عندما تكبر ..

وحدث في تلك اللحظة شيء غريب ... أحسست بالدمع ساخنا على وجهي .

كنت مستقليا على ظهري — لست أدري كيف فعلت هذا! — فوق قطعة الخشب ... وكان قرص الشمس قد اختفى منذ زمن وحل الظلام دون أن أراه وهو يحل ، ولمعت في السماء نجوم بدت قريبة قريبا شديدا ... أهنالك سوف «أعيش» بعد ذلك؟! ..

أم ترى كل شيء قد انتهى الى الأبد!؟

غاضني احساسى بالدمع فقد دفع الى حلقى بالعطش تدريجيا ...
وانقشع من حول عقلى ضباب الموت فأحسست بجسدى ... كان ظهري
يؤلمنى كأن أطراف أمواس حادة تشققه ومطارق تدق عظامى فتتحرك
أطرافى ... وبدأت فى تلك اللحظات أفقد أعصابى ، فلماذا تعود الحياة
وقد كنت قريبا من حافة الموت!؟

لم أكن قد مت منذ انفجرت السفينة فى الضحى ، ولاند أننا فى
منتصف الليل ، وأنفاسى تعود فتخلل شاربى وتلامس شفتى ساخنة ...
لابد أن ظهري قد احترق فالألم يزداد لحظة بعد لحظة ... والألم ينتشر
بقسوة ، يزحف ليستولى على الجسد كله فيلتحم بذاتى وأشعر به ... أهذا
هو ثمن الحياة!؟

لابد أنها الآن نائمة فى حضنها؟

ابتنى فى أحضان زوجتى ..

لكن الدمع هذه المرة استعصى على وتبدد الضباب تماما وراح عقلى
يعمل فى جنون ... من الذى سيرعاهما من بعدى؟ ... ووجدت أنه من
الأوفق أن أعيش ، ووجدت أنى وحدى وسط البحر كله فأين
الجميع!؟ ... ورأيت أنوارا تسبح فى السماء وصوت طائرة يئز فى
الفضاء ومصباحا ينير سطح البحر ، لكن نوره كان بعيدا ..

وهبيت جالسا وأنا أصرخ ..

حدث هذا مرة واحدة ودون ارادة أو تدبير أو وعى بشيء بعينه ...
وتمايلت قطعة الخشب وسقطت فى المياه لكنى سبحت بجنون وتعلقت بها
من جديد ورحت أصيح وأصرخ لعل من فى الطائرة يسمعونى ... فهل
يسمعون!؟

ومرت الطائرة ورحت — عبثاً — أحاول البحث عن الهدوء فى نفسى
دون جدوى .
عطشان .

كانت هذه هى الحقيقة الأولى فى حياتى فى تلك اللحظات ..
لم تعد تدهشنى كلمة «حياة» ، كما لم تدهشنى من قبل كلمة
موت ..

اختفت الطائرة وزحف الخوف من الألم وسيطر على تماما ..
قتل كثيرون وماتوا وبدأت أرى الماضى بوضوح فركبى الرعب فرمما
كان ذراع أحدهم يسبح الآن بجوارى ... العطش يحرق حلقى وصدرى
ولسانى ، ونسمة رطبة تهب ... وقد ابتعد الموت تماما فأنا أعرفه ووقفت على
حافته وشممت رائحته وعایشته ، ستتزوج ابنتى عندما تكبر وستقول أن
أباها كان جواب آفاق تركها وذهب ولم يعد ... ستقول أحيانا أنى مجرم
فلماذا أتيت بها الى هذه الدنيا ثم رحلت عنها ... ستحزن زوجتى حينما ثم
تهدا ثم تستسلم للحياة ، وقد تتزوج غيرى فالغيظ يأكلنى ولا بد أن
أعيش ..

لست ميتا ، هذا حق فأنا أعرف الموت وهو بلا عذاب ولاغيرة ولا
ألم ..

حولى فضاء يحويه فضاء والفضاء لايسمع ..

من أين غربت الشمس لأحدد الشرق من الغرب والشمال من
الجنوب فالنجوم قد عادت فأبتعدت وظللتها سحب خفيفة كانت تتهادى
فى بطء قاتل . ثم ذهبت الغيوم والسحب وبقيت النجوم مختلطة بعضها
بالبعض تتحرك وتذهب وتروح وتجىء فلا تترك على صفحة السماء علامة
تهدى ... يعود الموت هذه المرة حثيثا ليجذبنى الى حافته لكنى أرفض .
وعلى البعد شبح ... لا ... انه سراب ... بل شبح ... بل

سراب ... بل شبح سفينة وأضواؤها تقترب ... عدت الى القفز من فوق سطح قطعة الخشب واحتوتنى المياه وصرخت لكن يدي لم تترك قطعة الخشب ... تبدو لي الحياة على ظهر السفينة بالرغم من كل شيء جميلة ، وأجمل مافيهما أن الذين فوقها يتنفسون ويسعون .
متى تغرق هذه السفينة !؟

ضوء ينبثق من فوق سطحها ليستلقى فوق المياه فيزداد الألم فأتاوه ولأنادى وأذعر وأرتجف ثم انفجر في صراخ هستيري : أنا هنا فالحقونى ..
الضوء الباحث يدور هنا وهناك ، يرتفع وينخفض ، يسبح يمينا ويسبح يسارا ، وضوء آخر معه وصوت صفارة السفينة يدوى فى فضاء الليل فأرد عليه بصوت مبحوح وصرخة متهالكة وأحسن من جديد بدبيب الموت يلحقنى فأصرخ رافضا .
السفينة تمضى وأطراف الضوء تلامس أطرافى لكنها تبتعد مسرعة وهى تصم عن صرخاتى آذان كل من فيها .
هدنى اليأس فقد ابتعدت ولأمل .
لو أبكى ! ...

أمهلنى الموت لكن الحياة لم تعطنى الفرصة لأعتذر لابنتى ، فهما نقيضان عبثا أن يتفقا ..
أراها نائمة وقد تركت أطرافها ملقاه فى كل جانب كعادتها ... قبله واحدة منها ونظرة لزوجتى ولسوف تفهم وتوقن أن لاذنب لى فيما حدث ..
انفجرت السفينة واشتعلت النيران ووجدت نفسى فى أحضان الموت فلم أقاوم وأعطتني الشمس فرصة للحياة لكن الحياة ترفضنى ..

يذهب العطش ومعهم الألم وتعود عيناي لتحملقا فى السماء وينفصل جسدى من جديد عن ذاتى ويحيط عقلى ضباب كثيف فلا شيء ...

لاسمع ولا احساس ولا ارادة غير ارادة الحياة ، فقد بدا لي الموت وحشا يريد
التهامي ، سالت دموعي لكنني لم أحس بسخونها فوق وجهي وتجمدت
أطرافي وخواها الموت وهبت نسمة فتايلت السماء أمام عيني وأحسست
بالظلام يحوطني ... ظلام ليس كالظلام ... وحافة ليست فيها نيران
والنجوم تقترب وتقترب ... والدنيا ... وأبي يبكي ... وأمي تولول ...
وأخي لاه عنى بحبه ... وابنتي تسأل عنى ..

ولاجواب ..

١٩٦٤

رقصة الصباح الباكر

— ١ —

فتح باب البار وطار منه جسد انسان ..
طار الجسد في الهواء ثم هوى الى الأرض المبللة برذاذ المطر ..
ورغم ازدحام الشارع بالعابرين والواقفين والمتسكعين ، لم يتحرك
أحد من مكانه ، وتحولت كل العيون نحو الرجل الذى كان يتلوى بالألم على
أرض الشارع ، وظل كل شىء كما هو ... الأضواء الباهرة ، الألوان
الزاهية ، والهمسات الغامضة ، والموسيقى الصاخبة ، ورذاذ المطر
الخفيف ..

كان الجسد لبحار صغير السن ، ذقنه لم تنبت بعد ، وجهه الدقيق
التقاطيع يتمرغ فوق البلاط المبتل ... وكان جسده يتلوى فى تشنجات
تتلوها زجرة يفرغ بعدها مافى جوفه ..

وماهى الا ثوان حتى انفتح الباب مرة أخرى ، واندفع منه بحار
آخر ، وكان وراءه ثلاثة رجال ظلوا يدفعونه ويدفعونه حتى سقط فوق
زميله .. ثم استداروا عائدين حتى اختفوا وراء الباب دون أن ينفذ أحدهم
يديه !

وأخرجت امرأة رأسها من صدر صاحبها ، ونظرت الى الشابين وقد
تكوم أحدهما فوق الآخر ... وأطلقت على الفور ضحكة شديدة المجون ،
لم تلفت نظر واحد من الناس ..

كان الجو شديد البرودة ، والموسيقى تصرخ من خلف الأبواب ،
ورائحة الشواء تملأ الأنوف ، والأفواه تلتهم الفطائر الساخنة ، والأسنان
تطحن لحم الأخطبوط في لذة غريبة .. والكل يضحك!

كان الناس يمرون من فوق الشايين الراقدين على الأرض وهما يغنيان
ويتقيآن ويضحكان معا ... ثم تحركت كل العيون نحو بحار طازج الهيئة ،
وجهه أسمر ، سحنته مستطية شديدة القبح ، وكان شعره نحشنا
كأسلاك محترقة وملابسه شديدة الأناقة ، يرتدى معطفا فاخرا ، وتحت أبطه
لفاة ..

توقف البحار فوق رأس الشايين وراح يرقبهما بابتسامة هادئة ، ثم
استدار نحو البار ، وكان واضحا أنه لم يشرب كأسا واحدة!

دفع الرجل القبيح باب البار بكتفه فأحتوته على الفور سحابة
الدخان في الداخل ، وتحركت عيناه في المكان بسرعة وتذبذبت نظراته عند
مائدة يجلس اليها بحار وامرأة ، وقبل أن تستقر عيناه فوقهما تماما ،
انطلقت همسة نخست المرأة في جنبها :

«لولا ... لولا!» ..

واستدارت لولا نحو الباب فرأته ، واطلقت على الفور صيحة التفت

لها الجميع :

«جامبون!»

توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، والتفت أفرادها مع الجميع نحو
الباب ، وكان جامبون لايزال واقفا هناك كملك ، طويل القامة عريض
الكتفين فاخر الهيئة ، ثابت النظرات ... وانحنى له أفراد الفرقة جميعا الا

عازف الكمان ، لكنهم عندما بدأوا في عزف مقطوعة وقورة ترحيبا
بجامبون ، شاركهم في العزف بحماس!..

عندما انتهى اللحن كانت المرأة تمزق اللقافة في فرح غامر ،
ومالبت أن شرعت على الجميع معطفاً من الفرو شهقت له إحدى النسوة ،
وحملت فيه أخرى ، وقلبت ثالثة شفيتها وهي تدير وجهها الى بعيد ...
وقال رجل كان يلوك في فمه سيجاراً :
«دب حقيقى ... حقيقى!» ..

وسرعان ما أعدت مائدة جامبون في ركن خاص ، وغمرت وجه
الرجل القبيح ابتسامة زادته بشاعة ... كان نصف الوجه الأيسر
مشقوقاً ، وكان الجرح القديم قد ترك في صدغه أخدوداً شديداً الاحمرار يمتد
حتى بداية العنق ... وانتابت المكان موجة من الفرح الغامر ، وكانت
المرأة لاتستقر على حال ، كانت تتحدث وتدخن وتضحك وتلمس معطف
الفرو في حنان ، ثم تهمس بين الحين والحين كأنها تحلم أو تصلى أو تغازل
حبيباً ... فيرد جامبون على همساتها بغمغمة يلوى بعدها شفيتها ، ثم
يهمس متمتماً :

«ولاتفكرى!» ..

كان يبدو للجميع شديد الوقار ، لكنه بدا للناس أقل وقاراً عندما
شرب كأسه الثالثة ، وبعد الكأس الرابعة راح يميل على المرأة ضاحكاً
بصوت عال ، وكان يقبلها ، ويهمس في أذنها ، ويعض أصابعها ... وكانت
إذا ضحكت لمداعباته ، وإذا بادلتها القبلات ازداد احمرار الجرح في وجهه ،
وازداد منظره قبحاً وبشاعة ..

— ٤ —

في الخارج كان أحد الشاين قد استطاع أن يتحامل على نفسه
ويجلس مترنحاً ، وبدأ وجهه الوسيم ملطخاً بطين الأرض ، ثم رفع رأسه نحو

السماء وراح يستقبل المطر بوجهه ، وافترت شفتاه عن ابتسامه سعيدة ،
ورفع كفيه في مرح وهو يغسل وجهه بالمطر ... ثم تحولت ابتسامته الى
ضحكة صاخبة ، وصاح بكل صوته مناديا :

«ماما!» ..

وأحس بعدها بشيء ساخن ينسال من عينيه ، فانتابه الفزع ،
وصاح مرة أخرى :

«ماما ..» ..

فتململ صاحبه وكان لايزال ممددا فوق الأرض ، واعتدل في رقدته ،
ووضع كفيه تحت رأسه ، وانثنى جسده حتى أصبحت ركبته في صدره ،
وتتم متسائلا بصوت خفيض :

«ماما؟!» ...

— ٥ —

عندما انتقلت المرأة من مكانها لتجلس فوق ركبتي جامبون كفت
الموسيقى عن العزف ، والتفت جامبون نحو الفرقة وكانت عيناه شديديتي
الإحمرار ، ثم صاح يطلب لكل منهم كأسا ، ويطلب لنفسه لنا ...

وانحنى الجميع في احترام ووقار ، وبدأوا يعزفون لنا هادئا ، وكان
عازف الكمان أشدهم اندماجا ، فقد لمحت عيناه شيئا يخرج من جيب
جامبون ليندس في صدر المرأة ، وتعثر القوس في يده لبرهة ، وجذبت
المرأة شفتيها من بين شفتي جامبون واستدارت نحوه ، والتقت عيونهما في
نظرة عاد بعدها كل شيء الى حاله ...

كانت كثافة الدخان تشتد لحظة بعد أخرى ، وكان الليل قد
انتصف منذ ساعة أو يزيد ، والصخب يزداد ، والضحكات تتعاقب ، وكان
جامبون مفتوح الشهية لكل شيء ... كان يجرع الكأس بعد الكأس ،

ويدخن ويأكل ويقبل المرأة في وقت واحد ... ولقد بدا للجميع سعيدا غاية السعادة ، وبدت المرأة لعينيه أشد منه سعادة !.

— ٦ —

ترنح الشاب الثاني جالسا بجوار صاحبه على أرض الشارع ، وراح يسأله عما حدث في صوت متلعثم ، ثم سأله عن اسمه ، ثم صافحه قائلا ان له صديقا يحمل نفس الاسم ، وتوقفت بجوارهما امرأة كان ثوبها مشقوقا حتى الخصر ، ثم مالت نحوهما وهي تسأل ماضغة شيئا في فمها :
«معك فلوس؟!»..

ولم يبد على أحدهما أنه سمع سؤالها ، فانشنت الى الامام أكثر وأعادت سؤالها بصوت أعلى دون جدوى ... فبدا على وجهها الضيق الشديد ، ومدت يدها الى جيب الأول وراحت تعبت فيه ، ثم خرجت يدها خاوية ، ثم ركعت على الأرض وهي تسب وتلعن وأخذت تفتش جيوبهما جميعا ... وبجوارها وقف رجل أنيق الحذاء ، وعندما رفعت اليه عينها هزت كتفها وقالت وهي تنهض :
«ولاحتى سجائرا!» ..

وما كادت تخطو خطوة حتى جمدت في مكانها ، وترقرقت عيناها بسرعة فوق وجهه كان صاحبه يخوض في زحام الشارع من بعيد ، كان الوجه شديد الوسامة ، والرأس متناسق الملامح ، والشعر مهدل في لا عناية ، والملابس موضوعة فوق الجسد المفتول كيفما اتفق ... وكان القادم بحارا يحمل تحت ذراعه لفافة كبيرة ، وكانت عيناها الزرقاوان تنفثان المرح ، وخطواته نشيطة ..

— ٧ —

توقفت عينا البحار الوسيم فوق وجه جامبون لثوان خاطفة ، واخترقت سحب الدخان همسة نخست المرأة في جنبها :

«لولا ... لولا ..» .

واستدار وجهها نحو الباب في لهفة ، ومالبت كل العيون أن تحولت
مع صيحتها المرحية :

«شارك !!»

كان الجميع يعرفون ان هذا هو الاسم الذى اطلقوه على القادم
الوسيم ... اطلقوا عليه اسم سمك القرش لشراسته الرهيبة في العراك !!

وتوقفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وانحنى أفرادها للقادم الجديد
ماعدًا عزف الكمان ، وبدأوا يعزفون لحنا وقورا تحية له ... وعندما انتهى
اللحن ، كانت المرأة تفض اللفافة الجديدة لتشرع على الجميع رداء كان
يبرق تحت الأضواء الخافتة ، وتعالت صيحة امرأة من ركن في المكان :

«كلاب!!» ..

وهمست أخرى في كأسها :

«مغفلين!!» ..

وصاحت فتاة في بجار كان يقف بجوار البار :

«سيجارة... سيجارة!!» ..

وأصبح جامبون يجلس على المائدة وحده ... وبدأ يعب من
زجاجة الخمر بلا توقف ، وبدأ احمرار الجرح في وجهه يزداد وكأنه ينزف
دما لايسيل ، وجلجلت في المكان ضحكة البحار الوسيم وهو يجذب
«لولا» الى ركبتيه ويلتهم شفيتها في نهم ، ثم أوقفها أمامه ووضع الرداء
حول كتفها وراح يتفرج عليها في فرح ... وعندما احتلت الزجاجة مكانها
فوق المائدة ، قبض على عنقها بكفه ، وراح يفرغها في جوفه !

— ٨ —

حاول أحد الشاينين في الخارج أن ينهض واقفا لكنه لم يستطع ،
وتقلب الآخر فوق ظهره وفتح فمه للسماء يستقبل فيه المطر ، وتعثر فيه

رجل كان يمضى مسرعا ، ثم توقف وراح يمطره بالسباب فابتسم ، ثم مضى الرجل فاستدار نحو صاحبه ومد له كفه وطلب مصافحته مرة أخرى ... وعندما سأله عن سيجارة ، راح كل منهما يبحث في جيوبه عبثا ... وكانت المرأة ذات الثوب المشقوق لازالت تقف بالقرب منهما ، وكانت السيجارة بين شفتيها قد احترق نصفها ، فأخذتها بين أصابعها ، وانحنت على الشاب الراقد ودستها في شفتيه ... ثم بصقت بجواره وهي تبتعد!

— ٩ —

عندما صاح جامبون مناديا ، أيقن الجميع أن شيئا لابد سيحدث ، كانت زجاجته قد فرغت ، وعيناه اشتد احمرارهما ... وعندما همست المرأة في أذن البحار الوسيم ضحك هذا بصوت عال ، ثم التفت نحو جامبون ورفع الزجاجاة في يده صائحا :
«في صحتك»..

ولم يرد جامبون التحية ، فهز شارك كتفيه بلا مبالاه ، ثم رفع الزجاجاة الى شفتيه ، وصفح المرأة فوق مؤخرتها وهو يدفعها نحو جامبون ، وأصبح الآن وحيدا ، لكن ابتسامته لم تختف ، وظلت عيناه الزرقاوان تبرقان بالمرح .

— ١٠ —

نهض الشابان وكل منهما يستند الى الآخر ، ثم ترنحا وهما يعودان الى البار ، وهوى كل منهما على الباب فتلقفتها أذرع رجال كانوا في الانتظار ، وسرعان ما ارتدا الى الشارع مرة أخرى ، ودار جسداهما واصطدما في عنف ، وكادا يسقطان على الأرض ... ثم تمالكا وكل منهما ينظر الى الأرض باسماء ، وتعاليت من خلف الباب نغمة صاخبة ، فتراقصا في مرح ، وانزلت قدم أحدهما فسقط على ركبتيه ، لكنه سرعان مانهض مرة أخرى ... وأخذ يصاحب زميله في الرقص ، وكان باديا أنه في حالة أعياء شديد .

في الداخل كان كل شيء يغلي بالغضب ، وكانت المرأة قد عادت الى البحار الوسيم ، وكانت شفاتها مدفونتين داخل شفتيه ، وكان جامبون يصيح طالبا كأسا جديدة ، رغم أن زجاجته الثانية لم تفرغ ... وتعثر اللحن في يد عازف الكمان ، وكان رواد المكان يتناقصون ، والحديث بين الرجلين أصبح مباشرا ..
«جاااالمبون!»

وعندما التفت جامبون نحو البحار الوسيم اختفى الجرح في الظلام ، وبدا وجهه أقل قبحا بكثير ، ورفع هذا كأسه في يده ، ورفع جامبون زجاجته وقذف بها وجه البحار الوسيم .

رغم أن الزجاجاة أصابت الحائط وتناثرت شظاياها ، فقد توقف العزف ، وتقهر الرجال والنساء على السواء ، وأوسع البعض مكانا للعراك .. والتصقت ظهور الجميع بالحائط ، ونهض البحار الوسيم من مكانه ، ووقف جامبون متحفزا ، وكان يبدو كوحش بحري خرج لتوه من بحيرة خمر قوية!

كان الصخب قد خف في الخارج وانطفأت الأنوار وأصبح الشارع معتما ..

وعند ناصية الشارع كان الشابان يترنحان ... والتفتا ناحية البحر عبر الطريق المنحدر ، ورفع أحدهما رأسه نحو السماء وتساءل عن المطر الذي كف ... وكان واضحا أنهما أفاقا وأن كانا يستعذبان الترنح والضحك ... ثم تنفس أحدهما ملء صدره ، وسرت في بدنه رعدة قدس يديه في جيبي سرواله ... وغمرت وجهه سحابة من كآبة جاءت بلا سبب واضح ، فنظر الى صاحبه وسأله عما به ، فلم يرد ..

وتوقفا تماما عن السير ... ثم نظرا الى البحر الممتد بلا نهاية وكانت
أضواء السفن تنتشر هنا وهناك في حبات متألئة ... وضحك أحدهما
وهو يتمم :

«ماما؟!» ..

وقال الثاني شيئا ، ثم راحا يضربان الأرض بأقدامهما نحو الميناء في
صمت!

— ١٣ —

انقشعت سحابات الدخان ... وكان الرجلان راكعين فوق الأرض
في وسط المكان وقد بلغ العراك ذروته ، وكان الجرح هذه المرة ينزف دما
حقيقيا ... وكانت ملاح البحار قد شوهدت بيقع زرقاء ، وبدا للحظات أن
أحدهما لابد سيقتل الآخر ... وعندما توقفا عن العراك فجأة ، تململ
الواقفون بحذاء الحائط ... وانتهت الفرقة الموسيقية من جمع آلاتها ، وحمل
عازف الكمان آله تحت أبطه وهو يشق الطريق وسط المقاعد نحو المرأة ،
وكانت هي تحمل معطف الفرو وتضع الرداء على كتفها، وعندما تأبطت ذراع
العازف كان البحار الوسيم يهوى بيده من جديد فوق الجرح اللزج ...
وبدا كأن جامبون لم يشعر بشيء على الاطلاق ... كانت عيناه مسمرتين
عند الباب ، ثم صاح في المرأة بصوت كالزئير :

«لولا ... لووولا»...

وازدادت الابتسامة اتساعا فوق وجه البحار الوسيم عندما أرسلت
المرأة لكل منهما قبلة على أطراف أصابعها ، وتحولت الابتسامة الى ضحكة
صاخبة عندما اختفت المرأة خلف الباب ..

وبدأ عمال البار يتهيأون للانصراف وكان البحار الوسيم جالسا على
الأرض وقد تهدلت خصلة من شعره الذهبى ، وظل يضحك ويضحك
حتى ضحك معه جامبون ، وتحول الضحك الى صخب ... ونهض

جامبون نحو المائدة واختطف زجاجة خمر ... ثم عاد الى صاحبه الذى فتح فمه الى أعلى ، وأخذ جامبون يصب الخمر فى الفم المفتوح وهو يضحك ، وفرغت الخمر وبللت وجهيهما وملابسهما ... ووقفا وسط المكان وكل منهما ينظر الى الآخر فى مرح ، وعم الصمت لثوان تحرك بعدها كل مها نحو صاحبه ، وارتفعت أذرعهما فى الهواء ثم هوت فوق أكتافهما ... واستغرقا فى الضحك من جديد!

— ١٤ —

راح الشابان يصعدان سلم السفينة فى ببطء عندما دوت صفارة سفينة أخرى ، وبدت السماء صافية شديدة الصفاء ... وما أن وصلا الى سطح السفينة حتى توقف كل منهما وأخذ ينظر الى الأفق البعيد ، كان الفجر ييزغ ، وكان كل منهما يبحث فى جيوبه عن شىء ما ، وقال أحدهما بصوت خفيض :

« كانت ليلة جميلة! » ..

وغمغم الآخر وهو ينفذ يديه من البحث :

« سيجارة ... سيجارة! » ..

ثم بدا على وجهه الضيق ، وانكشمت ملامحه وبدا كأنه يتألم ... وانحنى فوق السياج ، وتأوه ، وكان يبدو أنه يتقيأ أمعاءه!

— ١٥ —

اكتشف الرجلان فجأة أن الفجر ييزغ ، فانتابتهما نشوة عارمة ، وكانا يقفان عند ناصية الشارع المنحدر نحو الميناء ، وتذكرا المرأة فى وقت واحد ، ونطقا اسمها معا ، ثم انفجر البحار الوسيم ضاحكا :

« الرداء ... الرداء ! »

وصفق جامبون وهو يثنى على نفسه من كثرة الضحك ، وكان

يصيح :

«المعطف ... المعطف!»..

ثم راحا يرقصان فى الشارع بلا أنغام ، ويدقان فوق أرض الطريق

المبتلة ... ويغنيان!

١٩٦٣

لأن لنا قلوباً مثلكم

تقولون جميعاً أننا رجال غلاظ القلوب متحجرو العواطف ، لانفعل شيئاً في الدنيا سوى شرب الخمر واصطياد النساء ومقاومة الأمواج في شجاعة!

سأحكي لكم اذن هذه الحكاية حتى تغيروا أفكاركم قليلاً ... نحن نحب الخمر حقاً ، ولكن ... هل منكم من لا يحبها ويشربها؟ ... ونحن نعشق النساء أيضاً ، فهل منكم من لا يعشقهن؟ ... أما عن مقاومة الأمواج ، فان أى طفل يستطيع هذا اذا عاش في البحر عشرين عاماً كاملة!

سأحكي لكم هذه الحكاية حتى تؤمنوا ان لنا قلوباً مثل كل البشر .

فعندما جاءت ليلة العيد كانت سفينتنا في ميناء بعيد ، أبعد بكثير من أى مكان سافر اليه أحدكم ... فالبعد في حياة البحارة لا يقاس بالمسافة ، لكنه يقاس بالزمن ... كنا قد غادرنا آخر موانئ الوطن منذ شهرين ، وكان أمامنا شهران آخران حتى نعود مرة أخرى ، فمن منكم سافر الى مكان يبعد عن بيته أربعة أشهر في سفر متواصل؟!!

جاءت ليلة العيد اذن ونحن بعيدون ، ولا بد أن كلا منا كان يشعر
بمثل ما يشعر به الآخرون ، فلقد ظللتنا جميعا كآبة شديدة . وكان كل منا
يتجنب النظر في عيني صاحبه ، وساد السفينة نوع غريب من الصمت ،
وكان أحدنا اذا التقى بالآخرين تتم بصوت فاتر : « كل سنة وانت
طيب ! » ... وقد يسمع ردا وقد لا يسمع ، وهو في كلتا الحالتين يمضى في
طريقه ...

وجاء المساء فارتدى البعض ملابسهم وغادروا السفينة فرادى ، وبقي
البعض متناثرين هنا وهناك ، يقتلون الوقت في الصيد أو اجترار
الصمت ... ولم يحاول أحدنا أن يسأل صاحبه الى أين ، ولو كان أحدكم
الها أو نصف اله تعرف أن كلا منا كان يفكر في نفس الشيء ، وربما
بنفس الاسلوب والكلمات ... وكنت أنا واحدا من الذين غادروا
السفينة ، غادرتها على عجل وكأني أهرب من شيء بعينه ، ورحت أضرب
في شوارع الميناء على غير هدى ... ولم أفكر في الخمر ساعتها ، ولم أفكر
في النساء أيضا ، وأعجبنى حذاء كان معروضا في أحد المحلات فاشتريته ،
كان صغيرا دقيقا يبدو كلعبة ، لكنى كنت واثقا — ولأدرى كيف — أنه
سيعجب ابنتى وأنه سيناسب قدمها تماما .

ولا بد أنكم جميعا تسكعتم ذات يوم في شوارع المدينة ، ولا بد أنكم
تعلمون أيضا أن المدينة مهما كبرت فان لها حدودا ونهاية ، ولا بد أن كلا
منكم يعرف مدينته شارعا شارعا ، وزقاقا زقاقا ... فما بالكم برجل يعرف
كل شوارع وأزقة كل موانئ العالم؟!!

بعد ساعات كان التعب يهدنى تماما ... ولم أكن أرغب في العودة
الى السفينة مبكرا ، وكان حذاء ابنتى يثقل ذراعى ويضايقنى رغم صغره
وخفة وزنه ، ولم تعد في الميناء شوارع لم أذرعها ، وبدأ حلقى يجف ،
وبدأت أشعر بوطأة الكآبة تثقل صدرى ، وكان لابد لى من كأس ...

كأس أو كأسان ثم أعود في هدوء!

ولابد أن كلا منكم يعرف تماما ذلك المكان الذى يلائمه اذا كان وحيدا ، أو يرغب فى الاختلاء فيه الى نفسه ... هذا المكان بالنسبة الى يكاد يكون فى كل موانىء العالم نسخة واحدة لا تتغير ، وفى بعض الأحيان كنت أظن اذا ما أفرطت فى الشراب بعض الشيء ، أن هذا المكان واحد فى كل الدنيا ، وأنه يتنقل معنا ويتبعنا من ميناء الى ميناء كالقدر .

هناك — فى هذا المكان الواحد الذى لا يتغير — ستدهمك تلك الرائحة الغريبة التى تفتح شهيتك للطعام وتدفعك الى الرغبة فى التقيؤ فى نفس الوقت ... الشوارع الضيقة الصغيرة التى تتلوى بين الحيطان كثعبان أسود ، الضوء الخافت الذى يزيد من وطأة الظلام على العين ، البيوت الواطئة الصغيرة ، الأبواب الضيقة المداخل ، ضحكات النساء العاريات خلف النوافذ والأبواب ، وغناء السكارى ، وسباب الرجال ذوى المدى الحادة والعيون الغائرة والصدور العارية والسجائر المشتعلة بين الشفاة!

فى هذه الأماكن المتشابهة فى كل موانىء العالم ، تستطيع أن تخلو الى نفسك فى صندوق من تلك الصناديق المعتمة التى تتناثر هنا وهناك ، وتستطيع أن تشرب فيها أقوى أنواع الخمر فى الدنيا وأشدّها رخصا فى الثمن والجودة معا ، وستجد هناك لابد رجلا بدينا ، يضع فوق صدره فوطة قدرة ، والموائد من خشب متهالك ، والمقاعد كانت فى الأصل صناديق لزجاجات فرغت ... ولابد أن يكون للرجل البدين زوجة تساعده فى عمله ، ولابد أن تكون هذه الزوجة نحيلة شاحبة الوجه مشدودة الجلد ، وقد تصادف عند الباب امرأة ، وستراها وأنت قادم شديدة القبح والدمامة ، وستقابل نظرة الاحتقار منك بابتسامة ، فهى تعرف انك بعد كأسك الثالثة ستراها جميلة ، ولسوف تجدهن — نساء هذه الأماكن — طويلات البال ، متسامحات وكريمات ... فالواحدة منهن ستعرض عليك

نفسها في البداية ، ولن تغضب منك اذا رفضتها ، وستطلب منك سيجارة ، واذا قدمت لها كأسا أو كأسين ، تصبح على استعداد لأن تسمعك طوال الليل دون تأفف!!

قادتني قدامى في ليلة العيد هذه الى هذا المكان دون ارادة ... دخلت الصندوق المعتم وطلبت من الرجل البدين كأسا دون أن أنظر الى وجهه ، وصب الرجل لي كأسا ووقف ينتظر حتى شربته في جرعة ، ثم صب لي الكأس الثانية ... ومضى!

ولابد أن شيئا ما يعكس على وجه الانسان مايعتمل في نفسه ، ان هذا الرجل البدين — من دون خلق الله جميعا — يشعر بما نريد من مجرد نظرة ، ونفس هذا الرجل البدين يصبح على استعداد لأن يقدم لك الكأس الأولى ثم يمضي اذا رأى أنك جئت مترويا ... وأنا لم أفكر في شيء كهذا في تلك الليلة ، فعندما أمسكت بكأسي الثانية وضعت الحذاء بجواري في رفق ، وقدمت سيجارة للمرأة التي وقفت أمامي باسمه ، وعندما أشعلتها لها نفثت الدخان بين عيني تماما ثم سألتني في رفق :
«كأس؟!»

هزرت رأسي نفيا فمضت عنى دون كلمة ، ورفعت الكأس الى شفتي فجاءني البدين بكأس جديدة ، ودبت أقدام زوجته فوق الأرض كالماعز ، ثم وضعت أمامي طبقا مليئا بأشياء تؤكل ... ثم ابتسمت .
ورغم أنها لم تفه بكلمة ، الا أني رددت على النظرة والابتسامة بهزة من رأسي ، فتمت بصوت رفيع ثاقب :
«جميلة ... عندي جميلة!»

كانت تعرض خدماتها دون مقابل ، فهزرت لها رأسي رافضا وجرعت الكأس الثالثة ، فجاءني البدين بكأس جديدة ، بدت لي المرأة

عند الباب لا بأس بها!

وقعت عيناي على الحذاء الصغير فرحت أفكر في دعوتها على كأس ... لم أكن قد رأيت وجهها وسط الوجوه التي تناثر أصحابها في الصندوق المعتم من حولي ، بحثت بعيني في المكان عن شيء أراه ، فاصطدمتا بوجه كان يبتسم ... وجه شاحب شديد الاصفرار ، له عينان مستطيلتان ، وشعر فاحم السواد ، وكان صاحبه يحمل في يده كأسا ، وعلى شفثيه ابتسامة واسعة .

لست أدري كيف حدث هذا بالتحديد ، فعندما رفعت كأسى الى شفثى برقت العينان المستطيلتان ، ورفع الرجل كأسه ثم صبها في ابتسامته الواسعة!

وكان طبيعيا هذا الذي حدث بعد ذلك ، فقد طلب لي الرجل كأسا ، فبادلته التحية ، ثم انتقل الى مائدتي - أو انتقلت أنا الى مائدته وهذا أرجح - وطلبنا زجاجة كاملة بعد أن تصافحنا ، وكان كل منا يبدو سعيدا برفقة صاحبه .

من أول وهلة عرفت أنه لا يتحدث لغتي ، كان يابانيا أو صينيا أو أندونيسيا أو مالاويا أو كوريا لكنه لم يكن هنديا ...

ورغم هذا رحنا نتبادل الحديث بالأيدى والأصوات ونحن نشرب ، لم يكن يتحدث لغة افهمها ولم اكن اتحدث لغة يفهمها ورغم هذا اتصل بيننا الحديث بالأيدى والأصوات ونحن نشرب ... وعرفت أنه يعمل على سفينة بضائع ، وأنه متزوج وله بيت ، وعندما أخرج صورة زوجته وجدتها شديدة الجمال فاتنة ، وصافحته واقفا ، وشربنا معا نخب الزوجة البعيدة .

قبل أن يفرغ نصف الزجاجة دب في المكان شاب طويل فارع الطول ، كانت خطواته قوية بحيث التفت اليه كل من في الصندوق المعتم ،

كان نحيفا ، أصفر الشعر ، أزرق العينين ... وقلنا أن هذا الشاب لابد من الشمال ... قد يكون فرنسيا أو هولنديا أو دانماركيا أو نرويجيا أو سويديا وربما يكون ألمانيا ، لكنه ليس انجليزية بحال من الأحوال ، لأنه لم يكن متأنقا ، وكان جلده غير مشدود ، ولم تكن أذناه كبيرتين !

قلت هذا لصديقي وقاله هو لي ونحن نشرب الكأس الأولى من الزجاجاة الثانية ، وحملت الحذاء الصغير ووضعت تحت المائدة ، كان الشاب يجلس بالقرب منا وكان صاحبي سعيدا ، فعندما تلاقى نظراتهما رفع له الكأس في تحية صاخبة ، ورفع الشاب كأسه وصبها في فمه بسهولة ، فقررنا على الفور أنه بحار عظيم ، ودعونا لمشاركتنا المائدة ..

وتأكد لنا على الفور صدق ظننا فيه ، كان يتحدث لغة غليظة الحروف لم نعرف منها حرفاً غير اننا كنا نفهم ما يريد ان يقول ... جاءت المرأة لتطلب سيجارة فأعطاهما كل منا واحدة ... وقال الشاب أن الاسبانيات هن أجمل نساء الأرض على الإطلاق واشهاهن ، ولم يكن فينا من يفهم لغته ذات الكلمات الضخمة ، لكننا لم ننتبه الى ذلك ، فعندما قدمنا له كأسا ثانية طلب من الرجل البدين زجاجة ، وفرد ساقيه أمامه وراح يحكى حكاية ليلته الأخيرة في برشلونة!

وقبل أن يتم صاحبنا الجديد حكايته ، اقتحم الصندوق المعتم رجل يترخ ويصيح بصوت عال ، وتوقف الشاب عن الحديث وهمس باسمه :
«أمريكى!»

عند الباب كان العملاق يقف بملابس زاهية الألوان ، وكانت رأسه لاتكاد تستقر على حال ، كقدميه ، وذراعا طويلا كأنهما لغوريلا هربت من أدغال قريبة ، ولم يكن له شارب ... وعندما ترك جسده لساقيه ارتقى نحونا ، وكاد ينكفيء على الأرض لولا صاحبنا الشاب الذى تلقفه ، وضحك الرجل وتحدث بلسان معوج ، ثم جذب مقعدا وشاركنا مجلسنا ، وعندما قدمنا له كأسا صاح في الرجل البدين أنه سيدفع حسابنا كله!

تذكرت الحذاء وقتها فتاقت نفسي للعودة الى البيت . ومددت يدي تحت المائدة ورفعته الى أعلى في مرح ، رآه الجميع فتصايحوا وهم يسألون عن صاحبه ، ووقف الشاب يشرب نخب ابنتي ثم انحنى وطلب الزواج منها ، قلت لهم أن اليوم يوم عيد فانطلقنا جميعا نغنى في وقت واحد!

وأبرز صاحبي الأول صورة زوجته مرة أخرى ، وتلعثم الأمريكي وهو يطلب منه يد زوجته الجميلة ، فضحكنا جميعا ... ووقف الشاب صائحا : «يحييا الحب!»... وقفز الأمريكي فوق المائدة وراح يرقص ، وانهمرت الكلمات من أفواهنا مختلطة بالضحكات الصاخبة ... ودعونا الرجل البدين على كأس فدقدت أقدام زوجته كالماعز وهي تلبى طلباتنا في سرور ... ولحنا بحارا زنجيا فصفقنا له جميعا في حماس ، واندفع نحوه الأمريكي ودعاه للشرب معنا مؤكدا أنه من أبناء الشمال ، وشرب الزنجي كأسه ثم طلب لكل منا واحدة ، وشربنا نخب أفريقيا ، ورأى الزنجي حذاء ابنتي فقبله ، وجاشت نفسي بحنين طاغ فرحت أغنى ، واكتشفنا أن الأمريكي خفيف الظل ، وأن صوت الزنجي رحيم ، وأن له حبيبة تنتظر عودته من سنين!

وعندما تسلل ضوء الصبح الى الزقاق فتحت احدى النسوة نافذة غرفتها وانهاالت علينا بالسباب وطالبتنا بالسكوت ، فنهرا الرجل البدين وماءت زوجته في وجهها وتبادل الثلاثة السباب ... وانطلقنا جميعا نضحك ، وأرسل كل منا للمرأة قبلة على أطراف أصابعه .. وسرعان مااحتوتنا أزقة المكان وحواريه ، وكنا جميعا سعداء ، كنا نضحك ، ونغنى ، ونصيح ... وكان كل منا يلقي بذراعه على كتف صاحبه ، ونضرب الأرض بأقدامنا في نشوة ، ونطأ مع الفجر فلول الظلام المتبقية .

في صباح اليوم التالي ، اكتشفت اني نسيت الحذاء في الصندوق المعتم ... وكانت السفينة في عرض البحر .

الحب يقتل نعيمه

ذهبت نعيمة ... ماتت!

ولو أن واحدا منا اختطفه الموج لما حزنا عليه مثل هذا الحزن ، ولما حاول أحد الرجال أن يقتل الآخر ، ولما اجتاحت السفينة تلك الثورة التي حسمتها نعيمة نفسها ، فأسلمت الروح ، وتركتنا جميعا في فراغ الحزن القاتم!

لم تكن نعيمة ملكا لواحد منا بالذات ، كنا نملكها جميعا ، ونطعمها جميعا ... وكانت كلما تشاجرت مع حسن أو تشاحنت معه ، أحسنا بالدماء تزغرد في عروقنا بالغضب ورحنا نطارده ... وكان حسن هو الآخر ملك السفينة كلها ، كان صديق الجميع ، ليس له مكان معين يأوى إليه ، ولا فراش معين يبيت فيه ، ولم تكن له مطالب ... كان يأكل ما نأكل منه ، ويشرب ما نشرب منه ، وإذا اختفت نعيمة عن عينيه ليلة أو ساعة تحول الى مجنون ، كان يريد دائما الى جانبه ، وكان هذا هو مطلبه الوحيد!

عندما جاءا الى السفينة لأول مرة ، كان مجيئهما حدثا أهتزت له السفينة ... اشتراها نور من احدى بلاد آسيا البعيدة كانا صغيرين دقيقى الملامح ، لا يتميز أحدهما عن الآخر في اللون أو الشكل ... غير أن

حسن مع الأيام أصبح رجلا بكل ماتحمل الكلمة من معنى ... كبر رأسه ، واستوت أذناه ... وازداد اخضرار عينيه ، وغزر شاربه ... وأصبح جسده جسد أسد ، وكان ذيله مبتورا غليظا يبدو وكأنه عقلة أصبع في نهاية الظهر!

وعلى العكس منه كانت نعيمة ..

منذ جاءت ومواؤها الرقيق يهز مشاعرنا برقته ، كانت اذا جاءت لاتصرخ مثله ومثلنا ، ولاتملاً ممرات السفينة بالصياح ، كان يكفي أن تمسح في أقرب السيقان اليها في رفق ، وأن تقول : «نوو!» مثل ملكة مرهفة الحس ... كانت نعيمة هي أرق الأنث في حياتنا على الاطلاق ... كانت دقيقة الوجه دقيقة الملامح ، أنفها الصغير ينبت وسط وجهها كبرعم لزهرة ستفتح ، عيناها بلا لون محدد ، لكنهما تجمعان كل ألوان الدنيا الجميلة ... وكان جسدها ينسدل في تناسق لين ، واذا سارت راح يتثنى ذات اليمين وذات اليسار بلا فجور ، وكان ذيلها يبدو مثل مؤخرة فستان عروس في ليلة زفافها ..

وأصبح حبهما مضرب الأمثال ... ومبيتهما كل ليلة مبعث شجار بين الرجال ..

وكان على نعيمة أن ترضى الجميع ... فهي ليلة في فراش هذا ، وليلة في أحضان ذاك ، بالدور ... وكان صاحب الدور يبدو سعيدا كأنه عريس ، كان الواحد منا ينظف فراشة ساعة النوم ويجهز فيه مكانا لنعيمة ، وكان سعيد الحظ هو من يستطيع ابعاد حسن عنها ، فاذا انطفأ النور وساد السكون الا من طنين الآلات الدائرة بغير توقف ، استشعر الواحد منا دفء نعيمة في أحضانه ... كانت تتمدد بطول جسدها اللدن الدقيق ، تحوطها ذراع الرجل منا في حنان ، وينبعث صوت تنفسها في

هدوء الليل كالنغم ... غير أننا غالباً ما كنا نفاجأ بحسن وقد تسلل —
لايدري أحد كيف — الى حيث تبیت نعيمة . وقد يصحو الواحد منا على
جسده الضخم وهو رابض فوق الصدر تماماً . وقد تحول صوت تنفسه الى
زجرة ، فاذا ما ازحناه بعيداً ، مآت نعيمة في عتاب ، ثم قفزت وراءه الى
حيث يذهب ... ودائماً ما كانا يَخْتَفِيان في مكان لا يدريه أحد !
نعيمة؟

كانت الأنثى الوحيدة التي أجمع الرجال على حبها ... ولا شيء كان
ينغص علينا حياتنا سوى أنها لم تحمل مرة ، ولم تلد أبداً ... ولقد عذبنا
هذا كثيراً ، وثار بعضنا على حسن ، واتهمه البعض بأنه ليس رجلاً ،
واقترح الباشريس أن نزوجها لقط غيره ... كنا نتوق جميعاً لأن تلد لنا
نعيمة عدداً من الأولاد يملأ علينا حياتنا في السفينة ... غير أن هذه الرغبة
دائماً ما كانت تختفي في الليل ، عندما يتشاجر رجلاان على مبيت نعيمة ،
وتمضي ساعة أو ساعتان فنسمع صراخ صاحب الدور وهو يطرد حسناً ،
ومواء نعيمة وهي تتبع حسن الى ذلك المكان الذي احترنا في العثور
عليه !!

ثم جاء مشمش ومعه فرودس!

ويوم جاء ، حدث في السفينة مالم يحدث فيها من قبل .
كان الباشريس هو الذي اشتراها من احدى دول افريقيا السوداء ،
وكان الرجل يصيح فينا وقد تجمعنا من حوله :

«ماهو لازم عيال يملوا علينا المركب ... لازم عيال ... والبت
نعيمة عقره ، والواد حسن باين عليه خيبة ومش نافع!» ..

كان مشمش وفرودس صغيرين قدرين أسودين يبدوان وكأنهما
متشردان عثر عليهما الباشريس على رصيف الميناء . كانا يبدوان منذ
اللحظة الأولى وكأنهما دخيلان غريبان ... لم يكن لهما مواء كمواء حسن

أو نعيمة ... كانا اذا ماء صدر منهما أنين ضعيف لايلبث أن يتقطع
ويتمزق رعبا أمام زجرة حسن أو صوت نعيمة الرقيق الصافي ..

... في البداية ، شغلنا بمشمش وفردوس يوما أو يومين ، ثم عاد كل
شيء الى حاله ..

عاد حسن ونعيمة يملآن علينا السفينة ، وانزوى مشمش وفردوس في
كابينه الباشريس وكأنهما آمنا منذ اللحظة الأولى أن أحدا لايريدهما هنا ...
كان أحدهما اذا رآهما صرخ فيهما وطاردهما ، حدث هذا مرة ومرة ومرات ..
فلم يعودا يغادران الكابينة أبدا ... واكتفيا بحب الباشريس الذي كان يكم
غيظه ، والذي أصبح لايجد لذة تعادل لذته وهو يحمل نور بالعمل ليل
نهار ..

أيام وأيام كانت تمضي بنا دون جديد ، تشرق الشمس في الصباح
على زرقة المياه الصافية ، وتطل في الظهر على موج صاخب أو مدفون ،
وتغرب في المياه البعيدة كل مساء ... ثم تشرق من جديد في صباح اليوم
التالي ...

أيام وأيام كانت تمضي بنا ... ولكن مشمش كان ينمو بسرعة ،
وكان جسد فردوس يفور ويستوى ويترعرع ويمتلئ ليصبح متناسقا في أنوثة
متفجرة ، وكان وجهها يستدير في حلاوة ، وامتلاء عجزها باللحم ، وأصبح
جسدها يتثنى كلما سارت في فجور لفت أنظار الرجال يوم تشاجر حسن
مع مشمش ، وكاد أحدهما ان يقتل الآخر ..

هكذا انفجر كل شيء فجأة وعلى غير انتظار !!

وهبت على السفينة ريح دافئة يوم قال نور في ثورة عارمة أن فردوس
تهوى حسن ، وأنها تريد أن تخطفه من نعيمة ... كان نور غاضبا شديد
الغضب ، كان نائرا وهو يتحدث ... وكاد ذات ليلة أن يمسك بخناق

الباشريس الذى بدأ غضبه يجتاح السفينة والرجال ، والذى أصبح يهدد بتزويج مشمش لنعيمة نفسها!

وكان كل شىء محتملا الا هذا!

حسن يحب فردوس ...

نعم ...

كان الرجال يرونهما معا ويلحظان اختفاءهما فى متاهات السفينة التى لايعرفها سوى حسن .

ولكن أن يتزوج مشمش من نعيمة ... فهذا مالايطيقه أحد ، ولايقبله رجل من الرجال .

«ومن غير مائسك فى بعضينا ياجدعان ... وهى نعيمة ترضى

بكده؟!»

قال أحدنا هذا وهو يشير نحو نهاية الممر حيث كانت نعيمة تقف وظهرها الى الحائط تصرخ فى مشمش بعصبية وهو يحاول التودد اليها .

واندفع نور يجرى نحوهما وهو يتخبط فى حيطان الممر ، وانقض على مشمش بقدمه فى ركلة هائلة كادت تصيبه لولا أن قفز هذا قفزة بارعة ابتعدت به عن الركلة القاتلة ... وجن جنون الباشريس ، واجتمع الرجال فى المساء فى جلسة صاخبة ، وارتفعت الأصوات ، وكان الجو فى الخارج عاصفا ، واشتد صخب الأمواج ، وصفير الرياح ... وكاد نور أن يقتل الباشريس ليلتها ، ثم اتفقا مع أول خيوط الفجر على حل أرضى الجميع .

لم يكن هناك مفر من هذا ... عزلنا حسن ونعيمة فى طوابق السفينة العليا ... وأبقينا مشمش وفردوس فى الطابق السفلى .. ونام الرجال ليلتها وذقونهم طويلة ، وكل منهم يحدث نفسه بحكاية بدت له غريبة!!

جاء العصر علينا والسفينة تتهادى فوق سطح شديد الهدوء ،
وشاهد الرجال الباشريس في مؤخرة السفينة وهو يضاحك نور ويقدم له
سيجارة دون عتاب ... وكان أحدنا اذا سمع مواء حسن ، ونداء فردوس
استغرق في الضحك ... لكن أنين نعيمة بدأ يغزو القلوب .. كان أنينا
غريبا لم نتعوده منها . وكادت قلوبنا تنخلع يوم صاح نور في الميس الكبير أن
بطن نعيمة منتفخة ... وأنها حامل في ستة أولاد!!

كانت السفينة أيامها قد انحرفت الى المحيط وراحت تخب فيه نحو
الشمال . وكانت ريح الشمال كلما هبت علينا أنعشت فينا ذلك
الاحساس الغامض بالرغبة في الانجاب ... وأصبح همنا جميعا أن نهيب
لنعيمة كل أسباب الراحة ... وكان نور يسأل الباشريس كل ساعة عما
يجب عليه أن يفعله اذا ما حانت لحظة الوضع ... وكان مشمش يبدو في
الأيام الأخيرة شرسا كثير المواء متفردا جواب ممرات وأسطح ... وكان
حسن قد عثر لنفسه على مخارج من الأسطح العليا الى الأسطح
السفلى ... وتعلم مشمش كيف يقفز من فوق السياج الى أعلى ... وكما
يفعل الآباء عادة عندما يستسلمون لطغيان الابناء ، بدأ الرجال يستسلمون
أمام اصرار حسن وفردوس ، ومواء مشمش ، وأنين نعيمة ... وبدأ البعض
منا اذا رأى شيئا هنا أو هناك أخفى هذا عن الآخرين ... وكانت بطن
نعيمة تزداد انتفاخا ، وبدأنا نتراهن على عدد الأطفال ، وبدأ كل منا يتودد
الى نعيمة ويدثرها ويطعمها اذا ما لجأت اليه وامتلات السفينة من حولنا
بالحياة ، ولم يعد المحيط موحشا ، وافتقد البعض منا ذلك الصمت الكئيب
الذى كان يدثرنا اذا ما غابت السفينة في البحر أسابيع ... وتعالى
الضحكات ، وبدأ البعض يفكر في الزواج اذا ما عاد الى الوطن يوما!!

ثم حدث ما حدث في ذلك الصباح الغريب الذى ماتت فيه

نعيمة!

كان باب الممر الايسر مفتوحا على مؤخرة السفينة ، وبدأ المحيط من خلفه مثل كرة لامعة معلقة في فضاء بلا نهاية ... وكان نور يقف قبالة الباشريس وفي يده سكين ، ومن بين شفثيه كان الغضب يتناثر كالرصاص الملتهب ...

«أنا قلت لك يا باشريس ... أنا قلت لك أن ده حا يحصل!»
في البداية — وعندما بدأنا نتجمع من حولهما — لم يكن أحدنا يفهم شيئا مما يدور ... حتى حانت من أجدنا نظرة الى كابينه نور المفتوحة الباب ، فشهق!

كانت نعيمة ممددة فوق الفراش وسط بركة من الدماء .. وكانت عيناها باهتتين تطل منهما نظرة تصرخ بالألم .
«دى بتولد!»

وصرخ الباشريس في وجوه الجميع :
«عقل نسوان ... هي اللي جابته لنفسها!»
«فردوس هي السبب ... هي اللي جرّيت وراه!»
«لم لسانك يا بحرى ... ايه اللي نزل حسن هنا؟! ..»
«حانقتلها!»
«وأنا حانديحك!»

«وعزة الله لو مديت ايدك عليها لنقطعك حتت ونرميك للسّمك في الميه!»

كان الشجار يشتد ، وأنين نعيمة يتردد بلا انقطاع ... ونحن جميعا نقف مكبلين بحيرة شديدة ... كانت دماء نعيمة تنزف بلا توقف ، وكان أنينها يخفت ويخفت ... وتناثرت الحكاية من فم الباشريس ونور ... وكان الباشريس يرى أن المسألة مسألة نسوان ، وكان نور يرى فيها جريمة ... وانه لابد أن يثار ويقتل فردوس!

في الصباح قفز حسن من السطح العلوي ، ثم ماء بعلو صوته وأمام الرجال ، كل الرجال ... وردت عليه فردوس وهي تفر اليه من كابينه الباشريس يتبعها مشمش صامتا ... والتقى العاشقان وسط السطح السفلى وراح كل منهما يتمسح في الآخر ... ولم يكن أحدهما ليأبه بمواء مشمش أو زمجرتة ، غير أن حسن توقف عن الغزل عندما سمع صوت نعيمة تناديه من أعلى ...

نادت نعيمة بصوت واهن : «نووووو!»

وزمجر حسن في غضب : «ناااوو!»

وصاح نور في الرجال من حوله وقد تحجر الدمع في عينيه :

«مارضيش الندل يسأل فيها ... اداها ضهره وراح للبت فردوس

تاني ... نادت عليه نعيمة لما حسها اتبجح ، تعمل ايه؟! ... نطت له من فوق!»

وصرخ الباشريس منتصرا :

«هي النطه دي اللي سقطتها!!»

« اسأل الرجاله اللي كانوا واقفين ياباشريس ... نعيمة نطت زى

الفراشة ... ووقفت قدامه هنا هو ... هنا هو!»

كان المشهد لابد عنيفا . انزوى مشمش بعيدا وهو يرى مخالبا

نعيمة وأنيابها وهي تصرخ في وجه فردوس ... وحاول حسن أن يطردها فلم

تطعه ... رفع يده عليها فصفعته على وجهه وصرخ مشمش وقفز عليه ،

غلا الغضب في عروق حسن فهوى بقبضته فوق رأس نعيمة ، صرخت

فردوس وانشبت أظافرها في جسد مشمش ، وماءت نعيمة وهي تسقط على

الأرض بلا حراك ، وهجم مشمش ليلتحم بحسن في عراك وحشى ،

وانقضت فردوس فوق جسد نعيمة وراحت تضربها بلا رحمة ... وتعالى

الصراخ والمواء والتحمت الأجساد ثم تفجرت الدماء من جسد نعيمة على

غير انتظار .

وقتها فقط كف الجميع عن العراك .
«بتولد .. العيل نازل آهه .. دى بتولد!» .

خفقت قلوبنا جميعا ونحن نندفع نحو الكابينة ، وكان الدمع فى عيني نور قد سال ، وكف الباشريس عن صراخه وزاحمنا جميعا حتى وصل اليها ... كان هو الوحيد فينا الذى يعرف ماذا يجب أن يفعل ، وانحنى فوق نعيمة فى رفق ... وضع كفه الأيسر فوق جسدها ، وامتدت يمناه تجذب الطفل فى حنان ... وساد الصمت تماما ، ثم جاء صوت الباشريس خافتا :

«العيل نازل ميت!»

وهمس نور فى توصل :

«شوف الباقي ياباشريس ... العيال التانيين!»

وانت نعيمة أنينا خافتا ، وبدأنا جميعا ننسحب وفى حلق كل منا غصة ، كان حسن يقف فى آخر الممر وحيدا وهو ينظر نحونا ، وعلى بعد خطوات منه رقدت فردوس فوق الأرض وتمددت فى استرخاء ... وعندما غادر آخر الرجال كابينة نور ، جاءنا صوت الباشريس أشد خفوتا وحرنا :
«لاحول الله ... التانى ميت برضه ياجدعان!»

وصرخ أحدنا فى توصل :

«العيال فى ستين داهية ... المهم هى ... نعيمة يا باشريس ،

أوعى تروح من ايدك!»

لم يستطع أحدنا أن ينظر فى عيني صاحبه ، وعندما صرخت نعيمة كانت صرختها ضعيفة مزقت قلوبنا ... وقال الباشريس أن الطفل الثالث جاء هو الآخر ميتا ، ثم ساد بعدها الصمت تماما ... لم يعد هناك حس ولا صوت ، ولأنين ولاصراخ ، وطالت الدقائق دقيقة بعد دقيقة ، وبدأ

القلق يأكلنا ولم نكد نسأل عن الخبر حتى دهمنا وجه الباشريس وقد استدار
الينا ، كان ملامحه الصخرية قد تحولت الى قطعة عجيب بلا ملاح ، وكانت
عيناه الضيقتان الثابتان شديدي الاحمرار ... وقف الرجل أمام نور وكان
واضحاً انه يقاوم ، غير أن مقاومته انكسرت عندما فرت من عينه دمعة وهو
يقول :

«تعيش انت يا نور ... تعيش انت!!»

كان جسد نعيمة قد سكن تماماً وهو ممدد فوق الفراش وسط بركة
من الدماء اللزجة ... ومن حول الجسد كانت أحلامنا قد ولدت ميتة!
ذهبت نعيمة ... ماتت!

ولقد دفناها كما ندفن كل الرجال الذين يموتون منا ... وكان مشهد
سقوطها الى المياه وهي مدثرة بذلك الرداء الأبيض ، كمشهد عذراء تزف
الى اله مجهول ... وبعض الرجال منا ذرفوا دموعاً ، وبعضهم أغرق أحزانه في
الخمر ... رجل واحد اختفى من السفينة في نفس الليلة دون أن نعثر له
على أثر ... اختفى وظل اختفاؤه حتى الآن سرا لا يعرفه أحد ..
وكان هذا الرجل هو ممش!

«١٩٦٢»

غراميات بحار صغير السن

كان من المستحيل على أى مخلوق فى الدنيا ، أن يفكر فى مثل هذا الجو الراكد الملهب ، ورغم هذا فلقد كان الضابط الصغير مصمما على أن يفعلها ، ويفكر ... ولقد خطرت بباله «ماريا» ، فهمس لنفسه بصوت مسموع :

«اتجوزت!» ..

ثم تسربت الأفكار من ذهنه لبقى عقله شاغرا ، ورغم هذا كان يشعر أنه لابد وأن يفكر فى شىء ما ، فمن المستحيل أن يكف العقل عن الحركة ، كالقلب تماما ... وفى مثل هذا الجو الآسن يصبح التفكير بطيئا ، ملولا ، يتسكع فى ثنايا الذكريات كالسكران ، يبحث لنفسه دائما عن مكان يكن اليه ... وعادت ماريا تلح على ذهنه من جديد ، فتأفف ... وقال لنفسه دون همس :

«اتجوزت ... خلاص اتجوزت!» ..

كان المحيط يبدو ساكنا لامعا كأنه سطح اناء مملوء بالزئبق ... كان واسعا مخيفا يمتد ليشمل الدنيا من كل ناحية ، ويحاصرها ... والسماء صافية شديدة الصفاء ، فى وسطها كان قرص الشمس يصب نيرانه بلا رحمة .. وبدت السفينة وكأنها لعبة ساكنة ، وبدت وكأنها لاتسير ، حتى

نفثات الدخان التي كانت تتصاعد بين الحين والحين من مدخنتها
كفت ... وبدت للعين وكأنها مهجورة!
على السطح ... لم يكن هناك أحد ...

وفي الداخل ... كان صوت الآلات يطن كالأبد ... لا يتوقف
ولا يكن ، كان بدوره قد أصبح صمتا لا يسمع ، وقد استلقى الرجال على
الأسرة والمقاعد وفوق الأرض عرايا الصدور ، نابتي الذقون ، هامدى
الأجساد كأنهم جثث ... ولم يكن هناك واحد منهم يدخن سيجارة!

وشعر الضابط الصغير وكأنه نقطة بيضاء من الظل تتحرك بجوار
دفة القيادة ، ولو كان في الشمس أحياء لبدا لهم الآن كذباية حائرة ...
هو يعرف كل شيء عن نفسه ، عن ذقنه النابتة التي تعمد أن يترك
شعيراتها تستطيل ، وكان يعرف أيضا أنها تبدو كالنشاز حول وجهه الدقيق
التقاطيع ... وكانت ماريا تناديه دائما : «يا طفلي» ، وكان هذا يغيظه
ويسعده في نفس الوقت ... وأثبت لها المرة بعد الأخرى أنه رجل كالرجال ،
ورغم هذا فلم تكف ، رغم أنها تصغره في السن ..

«اتجوزت ... قلنا اتجوزت!» ...

كان قميصه ملتصقا بلحمه تماما بفعل العرق ، فدلف الى الداخل
ونخلعه وجفف به عرقه الغزير ثم القاه في ركن الغرفة ، وتحسس صدره العارى
من الشعر ، ثم نظر الى أصابع قدميه من خلال الحذاء المفتوح فبعث
منظرها القدر السرور في نفسه ... حملق في البوصلة فلم يقرأ شيئا ، تحرك
نحو الدومان وتسلق بعينه جسد البحار الواقف خلفه ، ثم فكر في النوم !
رغم أنه يعلم أن شيئا من هذا لن يحدث ، فقد بدت له الفكرة
محملة ومعقولة ، ولو حدث وتغير الاتجاه وانحرفت السفينة ونام كل من فيها
يوما كاملا ، فلسوف يستيقظون قبل الوصول الى أقرب الشواطئ اليهم
بأيام وأيام ..

«اتجوزت ... قلنا ستين مرة اتجوزت!!»

قالها هذه المرة دون أن تخطر بباله ماريا ، قالها دون أن يعي ،
وتحركت عينا البحار الواقف خلف الدومان وزمجر :
«هى مين اللى اتجوزت يا قبطان؟» ..

غادر غرفة القيادة الى الممشى من جديد ، وحاول أن ينظر فى عين
الشمس فلم يستطع ، وتمنى لو انشق البحر عن سفينة أخرى أو طائر أو
حوت، أو كارثة تبدد هذا الأسن ... ثم تلكأ ذهنه عند كلمة «فراغ»
فبدت له عظمة المعنى ، ثم بدت وكأنها تعنى «لاشئ» فعاد الى الداخل
وراح يحدق فى البوصلة وصمم على أن يقرأ ، ووجد اتجاه السفينة
صحيحا ، ورغم هذا قال :

« ٥ درجات يمين! » ..

ردد البحار من بعده فى آية :

« ٥ درجات يمين! » ..

أخذ يرقب السفينة وهى تنحرف عن طريقها وتغير اتجاهها ثم
اكتشف أن شيئا لن يحدث ، وأنها سوف تظل سائرة فى المحيط دون أن تثير
سمكة صغيرة ، فعاد يقول :

« ٥ درجات شمال! » ..

وبدا البحار كأنه لم يسمع ، غير أنه قال مرددا :

« ٥ درجات شمال! » ..

ظلت عيناه تحمقان فى البوصلة لكنه لم يقرأ شيئا ، ولقد أسعدته
ماريا طوال عام كامل ... الكئوس والعشاء والثلج السابح فى الجو كقطع
القطن المندوف ، ولونه الناصع يكسو التلال والجبال وفروع الأشجار
والمنازل ..

«الأ تريد أن تقبلنى؟!» ..

صفرت الريح فالتهبت أذناه من البرد ، وكان طعم شفيتها دافئا .
وأحس بعد أن قبلها أنه أكل في تلك الليلة أكثر مما ينبغي ، وعاد الى
السفينة وكأنه ينزلق فوق سفح من الثلج الأبيض ، وأقسم ليلتها أنه يكره
حياة البحر ، ولم يذكر تريزا على الإطلاق !
«أتجوزت ... ماريا أتجوزت!» ...

همس بها الى قرص الشمس وهو يعود الى المشى ، وبعد أيام سوف
يصلون الى الشاطئ ، ولسوف يجد أريديكا في انتظاره ، في خطابها الأخير
كتبت له : «مع حبي» ... ولقد كان يعلم أنه سيعود اليها ذات يوم ،
فكتب لها عشرة خطابات من العشرين خطابا التي يملكها ، وهو لم يقبلها
في المرة السابقة ، لكنها بدت له شهية كقطة لحم انضجتها نار هادئة
وضعت يدها فوق ذراعه ، ورفع اليد والصقها بخرده ، ثم قبل أطراف
أصابعها البنية اللون ... وعندما حكى لهم ما حدث ضحكوا جميعا منه ،
وأخرج أحدهم من أنفه صوتا قبيحا ، وقذفه آخر بفرشاة الرأس ، وقالوا
عنه أنه خيبان ... وكانت ماريا تناديه : «يا طفلي» وكان هذا يغيظه
ويسعده ، وطلبت منه أريديكا ليلة الرحيل أن يكتب لها كل يوم ... وهمس
لنفسه :

«بكره تتجوز!» ..

همسها وهو يعود الى الداخل متأففا ، ورفع عينيه الى البحار
وسأله :

«تشرب ليمون؟!» ...

وبلل البحار شفثيه الجافتين بلسانه ، ولم يرد ... فقال الضابط
الصغير :

«بيزود العطش ... كل الواحد مايشرب يعطش زيادة ، كل
مايشرب ، كل مايعط» .

كف فجأة عن الكلام ، وخفق قلبه .
لماذا لا يبدأ الليلة؟!

ولأول مرة تبرق عيناه ، فبعد ثلاثة أشهر على الأكثر سوف يرى
تريزا ... سلمته نفسها من أول لقاء ولم تطالبه بشيء ... وكانت أول جملة
تقولها له :

«ظللت أنتظرِكَ ساعة كاملة!» ..

ولم يشعر بالسعادة في حياته قدر احساسه بالسعادة ليلتها ..
«ظللت أرقبك منذ دخلت مع أصدقائك!» ..

وعندما ضمها الى صدره وهما يرقصان أحس بالبرودة تسرى في
جسده ، واستكانت رأسها فوق صدره ..
«ياأميرى الصغير!»

رغم صغر سنها كانت كلماتها كبيرة ..

«لا تفكر في كثيرا ، فعندما تعود سوف تجدنى في انتظارك !!»
وقرر ذات يوم أن يتزوجها!

«أصلك عبيط ومختوم على قفاك!» ..

كان منعم أشد الساخرين يومها .

«لن تجد من تحبك أكثر منى!»

وعندما احتواها أحس وكأنه يحتوى ذاته!

«مغفل!» ..

ومنذ ثلاثة أعوام وهى تناديه : «ياأميرى!» وذات مرة كاد

يكسر ضلوع ماريا فلم تتألم ، وهمست في أذنه :

«ياطفلى العزيز!» ...

وقالت له أريديكا وهى تضم كفه الى صدرها : «في المرة القادمة

سأريك الجنة!» ، ثم دعتة الى رحلة في الغابة ..

وذات ليلة جلس يكتب حتى الصباح ، وملاً كراسه كاملة بالخطابات ، وكلما رأى تريزا ازداد شوقه اليها ، وكلما ابتعد عنها كلما خفت حدة رغبته فيها ... وكان موقنا أنها ستتزوج ذات يوم ، وكان اذا اقترب من احدى الموانئ فتح الكراسه ونقل خطابا من خطاباتة العشرين ... ثم أرسل لماريا خطابين من الكراسه ، والى أرديكا عشرة ، وكان قد استنفدها جميعا في خطاباتة الى تريزا ... ولذا أصبح عليه أن يكتب خطابا ، وأن يفكر ... فالمناء يقترب ، وهى تعرف موعد وصوله!

بدا المحيط ساعتها وكأنه شىء بلا اسم ، فليس هناك اسم يحتمل هذا الاناء الرهيب ... وعندما أخبرته ماريا أنها تزوجت قالتها فى جملة واحدة : «تزوجت فى الأسبوع الماضى وهو يشبهك الى حد كبير!» ... وكتبت له تريزا فى خطابها الأخير : «ان خطاباتك تثير فى نفسى الحيرة ، كأن الذى كتبها مؤلف قدير!» ... وتفصد جسده بالعرق ، وبدا له المحيط محتملا ، وأطل على المياه وراح يرقب السفينة وهى تسير ... ولسوف يقبل أرديكا هذه المرة حتما ، واستدار نحو الداخل وصاح فى البحار :
«تشرب ليمون؟!» ..

وغمغم البحار بكلام لم يسمعه ، ففتر حماسه على الفور ، وكانت مياه المحيط تبرق بضياء يأخذ البصر ... فتشاءب ، ثم خطر له الخاطر مرة أخرى ... فلماذا لا يبدأ الآن؟!!

واندفع نحو الداخل بخطوات سريعة ، ودق قلبه بعنف . وعندما أستند الى حافة النافذة كان الورق تحت يده ، والقلم بين أسنانه ، وكان يرقب البخار المتصاعد من المياه فى سحابات متموجة ، وكان قرص الشمس يزداد التهاوبا ، عندما لمعت فى عينيه نظرة شديدة المرح ، ثم انثنى يكتب فجأة :

«حييتى ... أكتب اليك وضوء الفجر ييزغ من خلف الأفق ،
ظللت صاحيا طوال الليل أفكر فيك ، وحملنى نسيم الصبح على جناحيه
لأررف بروحى فوقك ... ولازالت نجمتنا تطل على من أعلى وتحكى لى
عنك كثيرا ، هل رأيتها بالأمس؟ ..».

استغرق الضابط الصغير فى الكتابة ، ولم يسمع صوت البحار وهو
يسأله بلسان جاف :

«تشرى ليمون ياقبطان؟!» .

«١٩٦٢»

حادثة في عرض البحر

— ١ —

كان الصالون الكبير يموج بالحركة ، الضباط والركاب والضحكات والضحكات والموسيقى الصاخبة ... وكان القبطان يبدو شديد الوسامة وهو يراقص سيدة عجوزا لاتكف لحظة عن الحديث ... وفي ركن من الصالون تهامس اثنان من الضباط وكان أحدهما يبدو صغير السن الى حد لا يصدق ، وهما ينظران الى القبطان ، ثم ضحكا معا وقد بدا أن الخمر لعبت برأسيهما قليلا ، واقتحمت عليهما خلوتهما فتاة كان الحب يطل من عينيها دون مواربة ، وصاحت في الضابط الصغير :

«ألا تريد أن تحيط خصرى بذراعك؟!»

وانحنى صاحبنا انحناءة كبيرة ، وابتسم لصاحبه ثم غمز له بعينه ، واندفع يحيط خصر الفتاة بذراعه وهو يهمس :

«قلت لك أنك صغيرة السن ، ولاتصلحين حبيبة لمن هو مثلي!»

ومن الطرف الآخر للصالون ، صاح رجل أسمر الوجه ، كان واضحا أشد الوضوح أنه مثقف هندي ، وهو يوجه حديثه للقبطان ضاحكا :

«هل أنت متأكد من أن السفينة تسير في الاتجاه الصحيح

يا كابتن؟!»

وتوقف رجل قصير القامة عن الرقص ، ودس يده في جيبه وأخرج رزمة من الأوراق المالية الخضراء ، ورفع يده في الهواء ملوحا بالنقود صائحا بلسان متلعثم :

«أنا رجل أمريكي ، وكرجل أمريكي أراهن بمائة دولار أن السفينة تعود بنا الى مصر ، وأن هؤلاء المصريين يستعدون لوليمة يأكلونها فيها ... من يراهن ؟ ! »

ولم يبد على أحد أنه سمع الرجل الأمريكي ، ولم يتوقف أحد عن الرقص ، ولم تكف الموسيقى عن الصخب بطبيعة الحال ... ولم يلتفت القبطان ، وابتسم للسيدة العجوز قائلا :

«أرجو أن تستمر الرحلة على مايرام مسز تورمي!» .

«أنت وسيم جدا ... يافرعوني الصغير!»

كان لسانها متلعثما تترخ الكلمات فوق طرفه ، وحانت من القبطان نظرة نحو باب الصالون ، فلمح طالبا بحريا يقف في فانلته السوداء ، وقبعته المتسخة ... وكان يبدو على الطالب البحري أنه متردد ، فأوماً القبطان برأسه ... واندفع الشاب يخرق جموع الركاب مسرعا ..

وعندما غادر الطالب صالون السفينة كان كل شيء كما هو ، الركاب والضباط والرجل الأمريكي والفتاة الصغيرة ، وكانت الموسيقى تعزف لحنا حالما فهدأت حركة الراقصين ، وتأبطت العجوز ذراع القبطان وهما يعودان الى المائدة ، ولم تر تلك النظرة السريعة التي قذفها القبطان في وجه أحد الضباط ... وسرعان ما تبادل الضابط نظرة أخرى مع الضابط الصغير وهو ينسحب نحو الباب مسرعا ... وكان القبطان وقتها ينحني على مسز تورمي وهو يهمس :

«هل تسمح سيدتي!»

«أنت رقيق!»

وغاصت الابتسامة في وجه القبطان فتحجرت ملامحه ، واستدار
مبتعداً لايلوى على شيء ...

— ٢ —

في الخارج كانت مياه البحر تبدو شديدة الصفاء ، وكان
القمر بدرا يطل من أعلى في كبرياء فضية اللون ، وكانت السفينة تتمايل يمنة
ويسرة في خفة ورقة ، وكان السكون شاملاً ، والصمت عميقاً لدرجة كانت
تحبس أنفاس الرجال الذين بدت أشباحهم هنا وهناك ... أما غرفة القيادة
فكانت مظلمة ، وكان الضباط قد تناثروا فيها صامتين ، وبدا البحار
الواقف خلف الدومان كجذع صارى ثبت في مكانه ، وأشعل القبطان
سيجارة توهجت في الظلام لفترة ، وسأل وهو يحمق في المياه الممتدة
أمامه :

«العمق كام يا عادل؟!»

«٦٩ يا قبطان ...»

لم يكن هناك سوى شعاع مصباح أحمر صغير ، ودلف الضابط
الأول — وكان قد خلع ملابسه وارتدى معطفاً ثقيلاً أسود اللون — من
الشرفة اليمنى على عجل ، وقال للظلام الأحمر في لهجة سريعة حاسمة :

«فيه فنار باين قريب ... المسافة كام يافاخر!»

واندفع الضابط الصغير نحو الرادار ، ودس وجهه في فتحة ، وحرك
يميناه زراً ، ومضت لحظة صمت قال بعدها :

«١٠ ميل!»

وأتى صوت القبطان متسائلاً في هدوء :

«ألسطة المخطاف؟!»

فرد الضابط الأول :

«كله ألسطة!»

قالها وهو يندفع مغادرا الغرفة على عجل .
كانت السفينة واقفة في عرض البحر ، وكان واضحا أن هدوء البحر
هذا ليس سوى كذبة كبرى ، فالأمواج المدفونة كانت تدفع السفينة الواقفة
في عرض البحر نحو الجزيرة القريبة ... وعم الصمت هذه المرة طويلا وكأنه
لن ينتهى ... وكان الرجال واقفين وكأنهم تماثيل من الظلال ، ثم جاء صوت
القبطان بعد أن توهجت السيجارة ذات مرة :

«العمق كام يا عادل؟!»

«٦١ يا قبطان!»

«الجزيرة نوعها ايه؟»

«صخرية ...»

«المسافة؟!»

وصاح الضابط الصغير :

«٨ ميل يا قبطان!»

ولم يدم الصمت طويلا هذه المرة ، فقد صدر الأمر حاسما :

«ألسطة المخطاف!»

ورفع أحد الرجال سماعة التليفون ثم قال :

«ألسطة المخطاف!»

«اسأل الماكينات!»

«آلو ... يامكنات ... فاضل لكم قد ايه؟!»

ثم وضع البحار السماعة والتفت نحو القبطان وقال :

«قدامهم عشر دقائق!»

دب النشاط فجأة في أجساد الرجال عند المقدمة ، كان ضوء القمر يظهر كل شيء بوضوح كامل ، وكان الضابط الأول يقف وهو يصوب مصباحه نحو الونش الصغير ، وهوت يد الباشريس فوق السلسلة الضخمة فتحركت حركة واحدة دوت في السكون ... وهمس الضابط الأول :

«فوندا واحدة واحدة!»

وارتفعت يد الباشريس مرة أخرى في ضوء القمر ، وهوت بمطرقة فوق قفل حديدى ضخم ، فانفجر القفل مفتوحا وبدأت السلسلة تتحرك في ضجيج بدد سكون القمر ، وتعلق الضابط الأول بسياج السفينة ، وتدلى جسده نحو المياه ، وصوب مصباحه نحو المخطاف الهائل الذى كان يتدلى ببطء نحو المياه حتى لامسها ... فصاح الضابط الأول :

«اييها!»

وتوقف الونش وهو يئن بثقل المخطاف ، وساد الصمت تماما ، وخطا الضابط الأول نحو تليفون صغير ، ورفع سماعته ثم قال :

«أسطة المخطاف!»

كان الجو شديد البرودة ، وبدأت أيدي الرجال تتجمد ، وتجمدت أجسادهم وقد تعلق بصر كل منهم ببقعة لا معلومة من الكون الصافى من حولهم كالبلور ، كانت الدنيا تبدو في تلك اللحظات غريبة ، كانت تبدو شديدة الوداعة ، رقيقة ، حاملة ... كأنها فتاة في الرابعة عشرة .

غير أن السكون بدأ يتبدد تحت وقع خطوات ثقيلة راحت تدب فوق السطح نحو الرجال ... والتفتت كل الرؤوس نحو الشبح الذى كان يقترب ... ورغم أن كل واحد منهم كان يعرف صاحب هذه الخطوات ، ورغم أن كلا منهم كان متأكدا من أن ظنه صحيح ، إلا أنهم ظلوا

يحملقون في الجسد المترنخ الآتى من الداخل ، كأنهم جميعا قد اتفقوا على
ألا يصدق أحد منهم نفسه ... لكنه كان عم حسنين .
«ايه اللي حصل؟!»

قطع صوته الشك يقين لايقبل الجدل ... وصاح الضابط الأول
غاضبا :

«انت سبت سريك ليه يا عجوز؟»

«ايه اللي حصل؟!»

وقال رجل كان يقف في نهاية مقدمة السفينة فوق البحر تماما :

«ياراجل انت عيان ، روح نام الا تموت باذن الله كده!»

«ماتقولوا يا اولاد ايه اللي حصل ... المركب واقف ليه؟!»

«وحانرميك للسّمك ياكلك!»

وصاح عم حسنين فجأة في وجوه الجميع :

«المركب واقف في عرض بحر ... أسبيكم لوحدكم ازاي؟!»

ولم يستطع أحدهم أن يرد عليه!

— ٤ —

لثوان خاطفة بدا الجو في صالون السفينة يكفهر ، توقفت
الموسيقى وترنخ الرجل الأمريكى أمام العجوز صائحا :

«مسز تورمى ... أنا رجل أمريكى ، وكرجل أمريكى اراهن انك

حزينة لغياب القبطان!»

واشتد احمرار وجه مسز تورمى ، وتلفتت حولها باحثة عن

لأحد ... وتقدم المثقف الهندى من الرجل الأمريكى وقال :

«عزيزى دافيد ... أنا رجل هندى ، وأنت رجل أمريكى ...

وكرجل هندى لرجل أمريكى أراهنك انك شربت كثيرا هذه الليلة!»

ومد الأمريكى يده مصافحا وهو يقول :

«قبلت الرهان!»

فصاحت مسر تورمى :

«سوف تخسر!»

وصاح الأمريكى مصدقا :

«اذن سأدفع ... موهامد ... موهامد ... زجاجة ويسكى!»
وانفجر الجميع فى الضحك ... وصفق كل من فى الصالون ،
ماعدًا الفتاة الصغيرة ... كان شعرها الأصفر مهدلا فوق وجهها ، وكانت
تقف بجوار احدى النوافذ وهى تطل على البحر ، وبدا عيها أنها تعاني من
احساس غامض ، لكنها يقينا كانت تفكر فى الضابط الصغير السن الى
حد لا يصدق !

— ٥ —

دق جرس التليفون فى صراخ حاد ... وكانت غرفة الآلات تشغى
بالرجال والضجيج ، وصاح المهندس الأول من بين قضبان الآلة :

«قول لهم عشر دقائق!»

ورفع الوقاد سماعة التليفون وقال قبل أن يسمع شيئاً :

«عشر دقائق!»

تم وضع السماعة وخطا نحو الامام خطوة ، ثم قذف بجسده فى
الهواء وقد تعلقت يدها بسياج الممر الحديدى ، ودثرتة على الفور سحابة من
الهواء الساخن المتصاعد من الآلة ، وكان المهندس الأول راقدًا وقد تدلت
رأسه فى فجوة فى أرضيه الغرفة ، وراحت يدها تعملان بسرعة ، وكان العرق
يتساقط من كل مسام جسده ، وهدير الآلات المتوقفة يسد على الأذان
كل منفذ ، وبدأ المهندس الأول يخرج رأسه من الفجوة ، ثم قفز ناهضا
وهو يصيح بكل صوته فى اذن مهندس آخر :

«افتحوا البلوف وشوفوا الزيت علشان نجرب!»

وهز المهندس الآخر رأسه وانصرف ، واستدار المهندس الأول نحو الآلة وهو يمسح يديه من آثار الزيت والشحم ، ثم تجشأ ، وابتسم ، وهمس لنفسه متحدثا الى الآلة بصوت عال :

«عارفة يابت لو مشيتي ، تبقى حبيبتى صحيح! ...»

وعلا صوت صغير حاد من آخر الغرفة فاعتدل في وقفته ، وعاد المهندس الآخر مسرعا ثم راح يفتح أحد الصمامات في بطن ، وتركزت كل الأنظار على ذراع الآلة اللامع ، وزجر البخار في الداخل فزجرت الآلة وهي تتحرك في بطن ، وازدادت ابتسامة المهندس الأول اتساعا ، وتحرك الذراع منتفضا في قوة ، ثم هدرت الآلة وهي تتحرك مسرعة ، وقفزت السعادة من عيني المهندس الأول وهو يصيح :

«أهو كده تبقى حبيبتى صحيح!»

وقبل أن يكمل جملته ، تجشأت الآلة كمية هائلة من البخار في وجهه ، ثم همدت حركتها دفعة واحدة ، وسكنت تماما .

— ٦ —

قال القبطان بصوت هادىء :

«فوندا المخطاف!»

وسمع الرجال في غرفة القيادة صوت الباشريس في مقدمة السفينة

وهو يصيح :

«فوندا!!!»

وانفجر صوت السلسلة وهي تهوى بالمخطاف نحو المياه في جمجمة

بددت السكون لثوان ، وكان صوت السلسلة وقرقتها تخفت

تدرجيا ، ودق جرس في المقدمة دقة واحدة ، وظلت السلسلة تهبط بهبط ،

ثم دق الجرس دقتين ، وساد السكون تماما .

وتهدات السفينة فوق موجة لاتظهر للعين ، وبدأ البحر فى ضوء القمر كأنه نوع من الأبدية ، كأن الشمس لن تشرق أبدا ... ثم هبت ریح خفيفة ، وأشعل القبطان سيجارة جديدة ، وجاء صوت الضابط الصغير شديد الثبات :

« الفئار قرب على سته ميل ! »

واشتد هبوب الريح فجأة ، وتمايلت السفينة أكثر ، وقال الضابط الآخر :

«العمق ٥٧!»

فقال القبطان :

«أسطة مخطاف جنب شمال!»

وقفز الضابط الصغير من مكانه نحو الممشى الأيسر ، تقدم من السياج يبصره نحو الرجال عند المقدمة ، كانوا يبدون له كظلال يعرفها جيدا ، وتصاعدت اليه مع نسمة هواء أنغام موسيقى الصالون الصاخبة ، وتذكرها ، فمال بعينه نحو الإسطح اللامع بضوء شديد النقاء ، وتساءل بينه وبين نفسه ... هل من الممكن أن يعرف الانسان الظلال!؟

وبدا له السؤال غريبا وبلا معنى ... وألقى يبصره نحو المياه فرأى حركة السفينة مع الريح ، بلل أصبعه ثم شرعه فى الهواء ، وهمس وهو يعود :

«ريح شمالي ... الدنيا برد!»

وأطفأ القبطان سيجارته وقال :

«فوندا مخطاف شمال!»

وتعالى ضجيج السلسلة الأخرى وهى تهوى بالمخفاف نحو المياه ، وتعكر السطح من حول السفينة ، واستدار القبطان لأول مرة نحو

الداخل ... فأضاء مصباح في وسط الغرفة ، وبدأ وجه القبطان غريبا ،
وتحرك الرجال بسرعة ، وبعد ثوان كان النور يغمر السفينة كلها ، وبدأت في
ذلك الليل وكأنها كرة من الضياء تاهت وسط الكون!

«حضروا قوارب النجاة!»

قالها القبطان وهو يخرج الى الممشى الأيمن ، دون أن يختلج صوته في
حرف مما قاله .

— ٧ —

همس أحد الرجال وهو يدس كفيه تحت ابطيه ويعطى ظهره للريخ :

«الريخ شدت ، النوة نازلة»

ورفع زميله رأسه نحو السماء ، ورأى ركاما من سحب سوداء
ترحف من الشمال وتخفى النجوم وتحجب القمر ... وأشعل الضابط الأول
سيجارة وهو يحملق في الظلام المحيط بهم ، وألقى بصره نحو جسد تكوم
بجوار لفة هائلة من الحبال ...

كان الرجال يبدون جميعا وكأنهم تجمدوا ، كانت أجسادهم ثابتة
ساكنة تماما ، ثم صاح أحدهم في الجسد المكوم بجوار الحبال :

«حاتموت وحية المرسى أبو العباس ، وحانرميك للسك ياكلك!»

ولوح العجوز بذراعه منذرا :

«اسكت يا جدع أحسن ربنا يسخطك!»

وقال الضابط الأول :

«مين اللي قالك تقوم من السرير!»

«ما كينة الدومان تحت ودنى ، وعمود الرفاص ساعة ما يقف لازم

نصحى من أحلاها نومة!»

«ياراجل انت عيان ، وقدامنا كتير على مانوصل ، والدكتور

قالك»

«أنا ما أحبش الدكاترة!»

«والنبي حاتموت!»

«عمود الرفاص وقف صحيت من النوم ... تبقى المركب واقفه في

عرض بحر وجنبا صخر واسيبكم لوحكم ازاي؟!»

عوت الرياح فأدار الرجال وجوههم بعيدا عنها ، وانحنى كل منهم

على نفسه وهو يدس يديه تحت ابطيه ، وتلاعبت الأمواج بالسفينة فتمايلت

أجسادهم فوق سطحها في ثبات ، وسعل العجوز طويلا ، سعل وسعل

وسعل ثم نهض الى السياج وبصق في وجه البحر !

كان واضحا أن المرض يشتد عليه ، لكن أحدا من الرجال لم يقل

شيئا ... وعندما دق جرس التليفون المعلق بجوار الآلة ، استدارت نحوه كل

الرعوس ، واستمع الرجل الى ما قيل ثم أعاد السماعه وهو يقفز من مكانه

كالمسوع :

«فوندا كل المخطاف ياقبطان ... الريح شادة والجزيرة قريبة والعمق

يقبل!»

وقفز عم حسنين من مكانه مرة واحدة ... ودبت أقدام الرجال فوق

السطح ، وكانت أشباحهم تبدو من غرفة القيادة ، وكأنها لوحة رائعة

لمصور عبرى!

— ٨ —

«موهاميد ... موهاميد ... أين كل الضباط ... هل حدث

شيء؟!»

كانت العجوز تترنخ في جلستها وقد انتابها القلق ، وكان الرجل

الأمريكي يقف عند البار وهو يقول :

«موهاميد ... أنا رجل أمريكي ، وكرجل أمريكي أستطيع أن أراهن
بعشرين دولارا أنى لم أشرب كفايتى هذه الليلة ، هل لديك مزيد من
الويسكى؟»

وسار المثقف الهندى نحو النافذة ، ووقف بجوار الفتاة الصغيرة وراح
يطل معها على المياه فى الخارج ، ومالبت أن أشعل غليونه ونفث الدخان
بعيدا ثم تتمم :

«ليلة جميلة يامارى!»

وهزت ماري رأسها دون كلمة ...

«السفينة لاتتحرك!»

وهزت ماري رأسها مرة أخرى ، ولم تنطق!

«لابد أن شيئا حدث ... انهم جميعا فوق!»

وأشعلت ماري سيجارة من صندوق كان فى يدها ...

«انت تدخين كثيرا!»

«انى أحب التدخين!»

«انك لازلت صغيرة!»

والتفتت ماري نحوه بحدة ، وبدت عيناها الزرقاوان لامعتين كعيني

قطعة تستعد للوثوب ...

«مستر بهادر ... لست أدري مارأيكم فى الشرق فى هؤلاء الذين

يقعون فى الحب ، ولكن ... ألم تقع فى الحب مرة فى حياتك!»

هز المثقف الهندى رأسه وقلب شفته السفلى وقال :

«اننى عجوز يا صديقتى ... اننى فى الأربعين!»

«ألم تقع فى الحب وأنت شاب!»

«ولكنى لازلت شابا ...»

«ألم تقع فى الحب مرة؟!»

«ان رجال البحر يضعون قلوبهم فى ثلاجات تجمدها!»

«صدقنى ... اننى أحبه!»

«سوف تنسينه بعد بضعة أشهر!»

«اننى فى الرابعة والعشرين!»

«عندما رأيتك لأول مرة ظننت أنك فى الرابعة عشرة!»

«ان الشبان يهربون منى من أجل هذا ، غير أن هروبهم لم يكن

يعينى فى كثير أو قليل!»

«والضابط الصغير ... ان وجهه صغير الى حد لا يصدق!»

«ليس الأمر كما تظن ، ليس نزوة مستر بهادر!»

«لقد وقعت مسز تورمى فى حب القبطان وهى فى الستين!»

«انها تقع فى حب أول رجل تراه بعد الكأس الأولى!»

«هل تظنين أن شيئاً حدث فى الخارج!»

«نعم ... ان صوت الآلات كف عن الدوى ... السفينة واقفة فى

عرض بحر الآن ، ولقد سمعت سلسلة المخطاف وهى تهوى الى المياه!»

«لكنها سرعان ماترتفع من جديد ... ولسوف تمضى السفينة

حتماً .. فليس للسفن بيوت تأوى اليها!»

تهدت الفتاة الصغيرة ، ثم قذفت بالسيجارة فى الظلام ، وقالت :

«لسوف تمضى حتماً ... أو تغوص الى القاع!»

مضت الفتاة وحدها وسط سحب الدخان الكثيف فى الصالون ،

وبقى المثقف الهندى ينفث دخان غليونة وهو يتبعها بعينه ، ثم مالبت أن

أزاح خصلة شعره الشديد السواد عن جبينه ، واستدار من جديد نحو

النافذة ، وراح يحمق فى المياه المظلمة فى الخارج ... ولم يكن يفكر فى

شئ على الإطلاق!!

أغلق الرجال أبواب السفينة تماما ... وبدأت أشباحهم فوق السطح
كبقع تتحرك وسط هالة من الضياء ... كانت الريح تشتد لحظة بعد
أخرى ، وارتفع صفيها في أرجاء السفينة كالعواء ... ورغم الضوء الذى
اشتعل فوق ظهر السفينة ، الا أن الدنيا بدت شديدة الظلام ، وكان لون
المياه أسود ...

في المقدمة كان كل الرجال قد تكوروا في أماكنهم ... وكان سعال
عم حسنين يزداد حدة ، ورفع أحد الرجال رأسه اليه وصاح :

«ياراجل قوم انزل سريك ... انت عيان!»

وقبل أن يفتح العجوز فمه انفجر في الجو صوت اهتزت له قلوب
الرجال ... قفزوا جميعا في وقت واحد وكأنهم لدغوا ، وصرخ عم حسنين
وهو يلقي بنفسه فوق ذراع الونش :

«السلسلة حاتنقطع ... بلغ القبطان ياجدع وهات لى ثلاث اقفال

لجنب شمال وزبهم لجنب يمينا!»

كان كل مايقوله عم حسنين ينفذ دون كلمة ... وكانت احدى
حلقات سلسلة المخطاف الأيسر مفتوحة وكأنها قطعة عجيب ، وأيقن
الجميع أن سلامة السفينة أصبحت على كف الريح تماما ... واندفع
الضابط الأول يهبط الدرج ويقفز الممرات ويخترق الأبواب كالجتون ... ولحته
الفتاة الصغيرة وهو يمضى بجوار الصالون فصاحت به :

«كابتن!»

غير أنه لم يرد عليها ، واندفع الى الخارج وراح يعدو في الممر الأيمن
ولم يكن يشعر بلسع الريح أو قرص البرد لوجهه ... بعد ثوان كان يقف
بجوار الرجال ثم يذوب جسده وسط أجسادهم وقد انحنوا جميعا فوق الحلقة

المفتوحة ... وعرف من أول نظرة أن السلسلة من الممكن أن تقطع ، وأن المخطاف من الممكن أن يضيع في المياه ، ولن يكفي مخطاف واحد لحمل السفينة في وجه هذه الرياح ، وليس بينهم وبين الصخور سوى أمتار ، وتفصد العرق في جبينه وهو يلقي بنفسه فوق القفل الحديدي ويضغط ، لكن الحلقة المفتوحة كانت تتحرك ، فصرخ بكل صوته :
«واحد يساعده العجوز ويمسك ذراع الونش!..»

واندفع رجل نحو ذراع الونش ووقف حائرا ، كان جسد العجوز منتصبا كالوتد ، وكانت يده تقبض على ذراع الونش وقد برزت عروق رجهه وجحظت عيناه ...

«أيدي معاك ياعجوز!»

«ساعد القبطان ... أنا هنا كويس!»

وصرخ الضابط الأول :

«ياراجل انت عيان!»

وتمم الباشريس :

«حاتموت ومقام المرسي!»

وصرخ عم حسنين بكل صوته في الفضاء :

«يامرسي يابو العباس .. يامرسي!»

وتوقفت السلسلة المفتوحة عن الحركة ، وثبت الضابط الأول القفل في مكانه ، ثم نهض وقد علت وجهه ابتسامة عريضة ... وما كاد يفتح فمه ، حتى تجمدت الكلمات على شفثيه ، وجحظت عيناه وتسمر في مكانه مشدوها!

— ١٥ —

صعد المهندس الأول من تلك الفجوة في أرضية غرفة الآلات وكان منظره يبعث على الضحك ، كان يبدو كأنه استحم في زيت قدر ، وكانت

عيناه تبدوان حائرتين ، ودق جرس التليفون فصاح :

«قول لهم ألسطة!»

لم يكن واثقا مما يقول ... مسح العرق عن جبينه ثم نظر الى الآلة

في شغف ..

«كده برضه تكسفيني؟!»

ثم تقدم منها خطوة وتحسس ذراعها اللامع في حنان ...

«أنا عارف انك محتاجة لحاجات كثير ... لكن أعمل ايه ، مش

بايدى!»

واستدار بعينه نحو المهندس الآخر وقال :

«الزيت مضبوط؟!»

«مضبوط ياباشمهندس!»

«افتح البلوف واحدة واحدة ..»

وما أن مضى المهندس الآخر حتى التفت المهندس الأول نحو الآلة

من جديد :

«المركب حاتروح مننا وانتي السبب!»

وعلا الصغير الحاد من آخر الغرفة فمسح على ذراعها اللامع من

جديد :

«حاتدورى المره دى على طول . كلها ثلاث أيام وأجيب لك طقم

جديد!..»

ووضع يده فوق الصمام وعيناه مثبتتان بالذراع ... وتحركت يده في

بط شديد واحتبست أنفاس الرجال وظلت الذراع ساكنة ... تحركت يده

تفتح الصمام اكثر ، وعلا صغير البخار في أذنيه ، وزامت الآلة ، ثم

تثاءبت في حركة بطيئة طويلة ... وهمس المهندس الأول متوسلا :

«علشان خاطرى!»

واندفع الذراع اللامع مترددا في حركة سريعة صاخبة ... ثم انتظمت الحركة تدريجيا ، ورفع المهندس يده من فوق الصمام وراح يرقب الآلة في اعجاب ... والتفت نحو المهندس الآخر والقي اليه بنظرة ، فقفز هذا الى التليفون ، ورفع السماعة وصاح :
«كله تمام ... الماكينات ألسطة!»

— ١١ —

اطلت مسز تورمى من النافذة اليمنى للصالون وراحت تحملق في الفضاء ... وطلب الرجل الأمريكى لحنا صاخبا جديدا ، ووضع المثقف الهندى غليونه في جيبه واستعد لمغادرة المكان ، وكانت الفتاة الصغيرة تجلس وحدها في ركن الصالون ، كانت تدخن بشراهة ، ثم انتفضت على صراخ مسز تورمى :

«اننا نغرق ... اين القبطان ... اننا نغرق!»

انتاب الجميع وجوم مفاجيء وهم يرون العجوز وهى تندفع كالمجنونة :

«صدقونى ... انهم ينزلون قوارب النجاة!»

وصاح الأمريكى :

«أنى أرحب بالموت .. لأنى لن اتزوج بعده!»

«مارى ... كابتن ... موهاميد ... اننا نغرق!»

ودلف الضابط الصغير من باب الصالون ، فاندفع الجميع نحوه ...

«لماذا تنزلون قوارب النجاة؟!»

«لقد كانت السفينة واقفة!»

«هل نحن في خطر؟..»

وتقدمت مارى من الضابط حتى كادت تلتصق به ، ثم رفعت

عينها الى عينيه وعضت شفتها :

«فاخر ... هل حدث مكروه؟!»

وابتسم الضابط ابتسامة باهتة وهو ينحنى نحو مسر تورمي :

«أنها مجرد مناورات مسز تورمي!»

«لقد انزلتم قوارب النجاة!»

«هذا روتين لابد منه!»

«اسمع يا ضابط ... أنا رجل أمريكي ، وكرجل أمريكي اراهن ...

«...»

«لقد كسبت الرهان مستر داقيد ... هل تقبل دعوتي على

كأس؟!»

وتفرق الجميع ضاحكين ... وكانت ماري تنظر في عيني الضابط .

«ان عينيك حمراوان!»

«كأت الريح شديدة!»

«كأنك كنت تبكي منذ لحظات!»

«ألم أقل أنك لازلت صغيرة السن؟!»

«ماذا حدث؟!»

«تعطلت احدى الآلات وكنا بجوار جزيرة صخرية!»

«هل كنا في خطر؟!»

«نعم ...»

«فلماذا كنت تبكي اذن؟!»

— ١٢ —

كان الجسد مسجى فوق الفراش ، وبدا الوجه المجعد شديد
الاصفرار ، وكانت الشفة السفلى مقلوبة في اشمزاز ... وظل القبطان ينظر
الى الوجه الساكن طويلا ، وكانت عيون الرجال جافة جاحظة ، وبدا
بعضها مبلا بدمع خفى ، وعندما تحركت عينا القبطان خفض الضابط

الأول عينيه وهمس :

«محدث قدر يرجعه السرير ، كانت السلسلة حاتنقطع وهو اللي شال حمل الدراع كله ، قلت لواحد من الرجاله يقف معاه ويساعده ، هو اللي مرضيش ، حطينا القفل واطمنا على المخطاف ... بصيت لقيته يشهق ... هي شهقة واحدة سقط بعدها!»

«ماقالش حاجة؟!»

«ابدا ... شفايفه اتحركت!»

«كان عاوز يقول ايه؟»

«كان عايز يتف!»

ونظر القبطان الى الوجه الجامد مرة أخرى ... ثم تتم متسائلا :
«مفيش فايده يادكتور؟!»

كان يبدو غير مصدق ، وأطلت الحيرة من عينيه وهو ينظر الى الطبيب الكدى ارتكن الى الحائط منكس الرأس ... ولم يقل الطبيب شيئا في البداية ، هز رأسه نفياً ثم توقفت هزات الرأس كمن تذكر شيئا فجأة وصاح :

«أنا قلت له ماينزلش من السرير ...»

كان صوت الطبيب عاليا كأنه صراخ ... وانفجر رجل كان يقف خارج الغرفة فى بكاء مكتوم ... وترقرقت الدموع فى عينى القبطان فهز رأسه عجباً ونظر الى الوجه الجامد وتتم :

«كده تعملها برضه ياعجوز؟!»

وتمايلت السفينة مترنحة تحت ضربات الموج الذى كان يعلو لحظة بعد لحظة ... وكانت الأنوار على السطح قد أطفئت كلها ، ولم يكن هناك قمر ... فازداد ظلام الليل سواداً ، كان الظلام يبدو كقبة مخيفة لاملايح

ففيها الا لنجوم باهتة بدت من وراء ذيول السحب السوداء وهي تمضي
مسرعة ..

وكان الصالون مظلمًا خاليًا ... وبين الحين والحين كانت تتوهج في
ظلامه سيجارة ، وكان الوهج يكسو وجهها صغيرًا جميلًا لفتاة تبدو في
الرابعة عشرة ، في عينيها الزرقاوين ، أثار دموع .

اللهب

كان سطح المياه يكاد يلتهب تحت قرص الشمس الذي بدا كجمرة رهيبة معلقة في الفضاء الصامت الآسن ... وماتكاد العين أن تلتقي بالسطح المتفوق اللامع حتى تجفل مذعوة ، وترتد الى ظل خانق كتيب ... ثم تجذب جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة .

كانت السفينة تنزلق على السطح بثاقل شديد ، وصوت الآلات يطن في الداخل ، ومع طنينه الرتيب كانت تبعث من الآلات حرارة تنتشر في الممرات وتختلط بحرارة الجو فتزيد من شدة الاحتناق .

الممرات كهيبة مظلمة ، والمراوح تعمل بلا انقطاع منذ يومين ، ثم أصبحت هي الأخرى تنفث هواء ساخناً ملتها ، فامتدت اليها الأصابع وأسكتت حركتها وأخمدت دورانها ... ومالبت أن ران جمود رهيب على كل شيء ... حتى على نفوس الرجال وأجسادهم العارية المستلقية فوق سطح السفينة في استرخاء وكسل .

كانت ثمة مجموعات متناثرة ، وهناك في الطرف الأيمن ، كانت مجموعة من أربعة رجال منهمكة في لعب الورق ، قد ظللتهم قطعة سمكة من القماش ، بانت وقتها كأنها كابوس يكتم الأنفاس ... كان الرجال عراة لا يستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة ، والعرق يتصبب من جباههم ،

ويسيل على وجوههم وأعناقهم ويتخلل شعيرات صدورهم ، وأصابعهم تمسك بالأوراق والأقراص الملونة وهم غارقون في اللعب ... متأفقون منه في ذات الوقت .

وكانت المجموعات الأخرى المتناثرة تمارس أشياء مختلفة ... فمن حديث كسول ملول ، الى شراب بارد تحول في لحظة الى شراب يغلى .. وفي نهاية المؤخرة كان ثمة شاب يافع ناعم الوجه مستلق وحده ، شاخص بعينه الى المظلة السميقة ... بينما في وسط المكان كان عملاق ضخيم الجثة قد تمدد وراح في نوم عميق .

صرخ أحد اللاعبين وسب الأوراق وسب زملاءه وسب الحر والبحر والدنيا بأجمعها اثر خسارته لمبلغ كبير ، ثم تساءل وهو يهرش لحيته النابتة عن موعد وصول السفينة ... فرد عليه آخر بانته على وجهه العريض — الذى يتوسطه أنف أفطس كبير — امارات قلق وضيق :
« ان شاء الله ماوصلت ، هي جهنم حاتبقى أكثر من كدة ؟ ،
علشان تتمرن من دلوقت على الشوى » .

كان الشاب المستلقى في نهاية المكان لايزال يحملق في المظلة المعلقة فوق رأسه ، وصدرة العارى الخالى من الشعر يعلو ويهبط في سرعة وضيق ، وعيناه قد احمرتا ... وشفثاه جفتا وأصبحتا كقطعتين من الصخر .

أما العملاق النائم في الوسط ، فكان شخيره قد ملأ المكان ، فصرخ فيه أحد اللاعبين ، ولكنه كان غارقاً تماماً في النوم ، وشخيره المنتظم يتصاعد من أنفه وفمه المفتوح ... وانطلقت ضحكات ملولة ، سرعان ما ماتت عندما أصابت العملاق النائم فردة خذاه خلعتة من نومه خلعا ... فهض مذعوراً ، وتلقفته سبة بذية أطلقتها أحدهم ، اصطدمت بأذنيه ، ولكنه بدا وكأنه لم يسمع شيئاً ، فأمسك فردة الخذاء

بكف غليظة هائلة ، وأطاح بها في الهواء فطارت ثم استقرت على سطح المياه ، ثم غاصت في جوفها ببطء ، ومالبت أن عاد إلى مكانه من جديد مسنداً رأسه إلى ذراعه المثني .

وعلت في الجو صرخة مهددة .:

« والله لا تشتري لي غيرها .. انت حر ، ياكده يأخرب بيتك » .
تصاعدت الضحكة الملولة ، وسرعان ما ماتت من جديد في صدر صاحبها ... وصرخ أحد اللاعبين متهما زميلا له بالغش ، ورد زميله عليه بصرخة مماثلة ، وهدده بإلقائه في المياه ... وهمد الأمر بعد لحظات ، وعاد السكون والهدوء إلى المكان . وعلا حفيف المياه المحتكة بجوانب السفينة ، وتصاعد في الجو بخار خائق رطب ، وصبت الشمس شواظها بلا رحمة وبإصرار قاتل ... وهتف رجل :

« هوا .. شوية هوا .. »

وران الصمت من جديد ... عميقاً . عميقاً .
وظهر في أعلى سلم صغير رجل أخذ يهبط الدرج في ببطء وتثاقل ، كان بادياً عليه أنه يملك الأمر والنهي ، كان القائد ... وتحولت إليه الرؤوس لفترة ، وشملته العيون بنظرة ، ثم استدارت في محاجرها وعادت إلى أماكنها غير مبالية .

علت شفتي الرجل ابتسامة واهنة مرهقة وهو يوميء برأسه إلى الشاب المستلقى في المؤخرة ... ثم سأله في صوت أجش خافت :

« مالك !؟ »

أدار الشاب بصره دون أن يرد عليه ، ثم انقلب بجسده كله الى الناحية الأخرى ، بينما صدره يعلو ويهبط في انفعال وسرعة . كان الشاب نحيلاً أسمر الوجه ضئيل الجسم ، وجهه الصغير الناعم يثير تساؤلاً بين

لوجوه الخشنة الرهيبة ... وقال القائد في اقتضاب وهو يمضى وكأن الأمر لايعنيه :

« انت تعبت من أول سفرية؟! »

ولم يتلق جواباً ... وكأنه كان يعرف ذلك ، فقد دس بين شفثيه سيجارة اشعلها ، وجذب منها نفساً سرعان ماطرده في الهواء وألقى بالسيجارة إلى المياه ، ثم استدار وعاد من حيث أتى .

علا شخير النائم مرة أخرى ، فزأر العملاق ذو الذقن النامية ، وامتدت يده إلى فردة الحذاء الأخرى وطوحها تجاه الرجل النائم ، فارتطمت بوجهه في شدة ، وهب الرجل غاضباً مزجراً ، واطبقت يده على فردة الحذاء وطوحها بكل قواه فأصابت الرأس ذات الأنف الأفطس العريض الذى كان مائلا فوق جسد ضخم كانت ذراعاه منمكتين في اللعب . وبدأ العراك .

كان واضحاً في البداية أن كليهما يريد أن يحطم الآخر ، وقد هم بعض الرجال أن يفرقوا بينهما ، ولكنهم عادوا باسترخائهم إلى أماكنهم وقد بدت السعادة على وجوههم ... ومع صوت اللكمات ، اشعلت السجائر ، وانتشرت الابتسامات على الوجوه ، بينما كان الرجلان يتقاتلان ويثنان من وقع ضرباتهما .

قال رجل من بعيد :

« كفاية يا محسن .. »

ودوى في المكان صوت لكمة ، ودار أحد الرجلين وهو يهجم كالوحش على زميله ... وعم السكون تماماً إلا من صوت الضربات المتلاحقة في البداية ، والتي أخذت بمرور اللحظات تتباعد وتتباعد ، واسترخت الأجساد المشدودة بعدما بدا أن الرجلين قد نالهما التعب تماماً . وأن أذرعهما قد وهنت ، وأصبح واضحاً أنهما سفترقان بعد لحظات ...

ولكن هذه اللحظات لم تطل ، إذ علا في الجو صوت غريب ... غريب جداً .

كان نحيباً متصلاً ، وبكاء حارقاً ... وكان الشاب الصغير الراقد في مؤخرة السفينة قد دفن رأسه بين ذراعيه ، وأخذ جسده ينقبض وينفرد في حركات تشنجية ... كان يبكي بحرقه .

وتوقف الرجلان فجأة ... واسترخت أذرعهما ، وهما يحملقان في الجسد الممدد الذي انصبت فوقه كل العيون ... وهمس أحدهما بصوت مسموع :

« الولد بيعيط ! »

وقهقه الآخر وهو يمسح بظهر كفه دماء كانت تسيل من جانب فمه ، وهو يقول في سخرية :

« نجيب له بزازة !؟ » .

كانت دهشة الجميع شديدة عندما التوى جسد الشاب ، والتفت برأسه الصغير نحو الرجل القائم وسط المكان ، هائلاً عملاقاً كأحد ملوك البحر الطغاة ، وصرخ الشاب بكل صوته :

« اخرس ... »

ضحك العملاق وهو يقول :

« حاتسكت وإلا أحطك في اللفة !؟ » .

« اخرس يا كلب .. » .

كان المنظر فريداً ، فتراخى جسد العملاق الآخر ، واستلقى فوق الأرض . بينما كان الشاب قائماً على ركبتيه وذراعيه متحفزاً كقطة متوحشة أمام أسد ضخم مفترس ... وعاد الشاب إلى الصراخ بكل صوته المختنق ، ودموعه تسيل من عينيه فتختلط بقطرات العرق النابتة فوق وجهه :

« وحوش . وحوش . كلاب » .

قهقهه العملاق وقد بدا له الأمر مسلياً تماماً .. وقال في برود :

« تحب أجيب لك شخشيخة ياابني ؟ »

وقفزت القطة في سرعة وأنشبت أظافرها في عنق الأسد ، والتحم الجسدان التحاماً غير متكافئ .. وتصلبت عضلات الرجال وتوترت أعصابهم وهم يرون جسد الشاب يهوى مرتطماً بالأرض في قسوة ... وصاح أحدهم من نهاية المكان :

« بالراحة عليه يا محسن » .

قفز الشاب من جديد ، وارتفعت يده وهوت في صفة هائلة فوق وجه محسن ، ورد محسن بصفة أكثر قسوة ، وجرت الدماء من فم الشاب وأنفه ولطخت وجهه ... كانت الدموع قد جفت تماماً ... وعيناه قد اختفى احمرارهما ، والعرق ازداد تصيباً فوق وجهه وجسده ، وأنفاسه قد انتظمت ، بينما الآخرون قد استلقوا في أماكنهم تماماً في استرخاء لذيذ . لذيذ ! . والعرق السائل من مسام جلدوهم ينزلق في بطء ... ونسمة من هواء — لايدرون من أين — هبت فشملت أرواحهم . وتباعدت أصوات الضربات ، وتباعدت وتباعدت ، ووضح أن المتعاركين قد وهنت قواهما ، وسرعان ما توقفت أصوات الضربات وران سكون ، قطعة صوت قدمي العملاق وهما تزحفان فوق أرض المكان ... ثم هوى جالساً في مكانه من الجماعة ... وقال في صوت لاهث مستريح :

« فرق الورق ، وبلاش سرقة ! »

وفجأة ...

توقفت ساقان بجوار جسده ، وهوى الشاب جالساً إلى جانبه ، ثم

قال وفي عينيه نظرة ارتياح ، وبقايا الدماء تلتطخ وجهه :

« وسع لي مكان .. عاوز أعب معاكم .. »

وعادت الشمس ترسل شواظها إلى سطح المياه الذي كان يضوى
ملتهباً ، وما تكاد العين أن تلتقى به حتى تجفل مذعورة ، وترتد إلى ظل
خانق كئيب ... ثم تجذب فوقها جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة ،
والسفينة تنزلق فوق سطح الماء بشاقل ... والأجساد ممددة ... ممددة ممددة
في استرخاء ... والجو خانق .

. ١٩٥٧

الخوف

كبر جابر ، ونخط شاربه ، واخضرت ذقنه ، وتعدى الخامسة عشرة ، ورغم هذا لم يستطع أن يقود القارب ! ..

كبر جابر ، أصبح شاباً ، ولكنه وسط الشباب طفل ، والاسم الذى يحمله سيضيع ، وياليت ما كان ، وياليت اليوم الأسود الذى ولد فيه ما وجد ..

كبر جابر ورآه أبوه يدخن ويقهقه كالحشاشين فى المقهى ، ولكنه مازال جباناً يخاف المياه ، ويخاف الرياح ، ويخاف البحر ! ..

كبر جابر الذى سيقول الناس عنه أنه ابن الحديدى ، وياوكسبة الاسم ، وياعرة العائلة بجابر آخر سلالتها ..

لايدرى المعلم محمد الحديدى كيف أصبح ابنه هكذا ، لقد رباه فى البحر ، فوق سطح المياه ، ومنذ أن عرف كيف يخطو فوق الأرض وهو يصحبه معه فى غدواته وروحاته ، يضعه فى القارب ، ويتوكل على الله ، يجوب الميناء يحمل هذا ، ويوصل ذاك ، ويأتى الصيف ، ويقل الكثيرين الى كل مكان ، والولد معه ، لم يتركه لحظة .

فى البداية كان يحايله ويلاعبه ويوعده بالكرامة والعسلية عله يمسك الدفة أو يجلس الى المجداف... دون جدوى ، ثم أخذ يتوعده ويسبه ويشتمه

وقد يزغده عله يخاف أو يقدم ... دون جدوى أيضاً . ثم ضربه . ضربه بالعصا ، وضربه بكفوفه ، وضربه بكل ماوصلت إليه يده ، ثم خلع ذراعه الدقة الغليظة وأخذ ينهال به على جسده حتى ازرق لحمه وطفح منه الدم ... ولم يفلح جابر ، لم يمسك بدفة ، ولم يجذب حبلا ، ولم يقبض على مجداف .

والعيال أصبحوا رجالا ، حنفى ، وسيد ، وعبده ، ورومه ، كثيرون كثيرون ملأوا الميناء ، وبلعطوا فى المياه ، وجابوا بالقوارب كل رصيف ، وجاوروا كل سفينة ، واقتلعوا الرزق من أنياب الأمواج ، وزوجهم آبؤهم وفرحوا بهم وقالوا للحديدي « عقبال جابر » ، ولكن جابر لم يبلعظ فى المياه ، ولم يكسب قرشا ، ولم يفكر فى الزواج .

ليت الأمر وقف عند هذا ، ولت جابر أفلح فى صنعة أخرى ، انه لايفلح إلا فى التدخين والجلوس على المقهى والذهاب إلى السينما ... والابتسام للناس ببلاهة وعبط عندما يقولون له « ياخرع » !!

يومها كانت الشمس غائبة وراء السحب السوداء ، والأرض مبللة بالمطر الذى ظل يهطل ساعات وساعات ، وسطح المياه يتلوى كظهور التماسيح ، ثم يجرى فى سلسلة طويلة من الأمواج تضرب الرصيف بعنف وتزجر ، ويتناثر رذاذها على حافته المتآكلة وكأنه أصابع كثيرة تريد اقتلاع الأرض من مكانها ، والدنيا برد ، والريخ تصفر ، والقوارب ملطوعة بجوار الرصيف كالجثث ، لاهية فيها ولاحركة ، والرجال قبعوا بجوار المقهى ، بعضهم قرفص على الأرض ، والآخرون يشربون الشاي ... والولد جابر جالس فى الطرف ، عاطل ، ضائع ، لاشغلة له ولاشغلانه . ولايدرى المعلم محمد ماذا حدث ولكنه سمع سيد البوهى يقول لابنه « ياخرع » ... وضحك جابر ، ابتسم فى بلاهة ولم يرد ..

وكل الجالسين في المقهى ساعتها لم يفهموا شيئاً سوى أن الحديدى
يضرب ابنه ...

كانت الصفعات والركلات تنهال عليه بلا حساب ، والغل القديم
والجديد يسرى في كفى الأب وقدميه أيضاً لينصب على جسد ولده بلا
رحمة ، وهاج الرجال ، « وعيب يامعلم ، مايصحش ! » ، وآخرون
يقولون : « معلش .. ماكلهم شباب زى بعض » .

هدأ الحديدى وكله نار تغلى ... وعوت الريح مزججة بصوتها
الثاقب ، وسرت في الأبدان رعشات ، واصطكت أسنان ، وبكت السماء
أمطاراً مجمدة أخذت تضرب الأرض وسطح المياه بقطع البرد التي كانت
تفتت وتذوب ، ثم تجرى نحو البحر الهائج ذي اللون الغامق الكئيب ،
وكأنه يقتلع أعماقه ، ويتقياً أحشائه .

لايدرى المعلم الحديدى لم حدث ماحدث بعدها ... ولايدرى
كيف فكر ولاكيف تصرف ... كان قد رمى طوبة جابر منذ مدة ، ولم
يعد يعنيه أن يجدف أو يقود القارب ، أو يفرد الشراع ، سلم مجهوده الذى
ضاع وهو يعلمه ، وسلم أمره أيضاً لله ، وسلم كل مافعله يوم كان
يصحبه في الصيف ، والبحر رائق والسماء صافية ، ويجلس أمامه يحادثه
وينخته ..

« ياجابر امسك الدفة كده ، ياجابر حل البارومه كده ، ياجابر
القماش لازم تملاه الريح ، واذا كان الريح شرقى خليك بوجى ، واذا كان
غربى اضرب بلط يمين وشمال لحد ماتوصل » .

كلام كثير ، وعرق ، ويلهث المعلم وهو يجدف ويفرد الشراع ويعود
فيطويه ثم يعود فيفرده ، ويتساقط العرق ، وتلمع بشرته ، وجابر جالس
أمامه كالشوال الفارغ ، ملقى في اهمال وبلاهة وكأنه ليس هنا .

كانت القوارب وقتها تتناثر على صفحة المياه داخل الميناء ، تروح وتجيء وتميل الى اليمين ، وتدور حول نفسها ثم تميل الى اليسار . والعيال يقودونها ، وآباؤهم بجانبهم ، يشجعون ويصفقون ويقولون بمرح « صلى على النبي يا جدع » ، وتلوى أصواتهم في فضاء الميناء الواسع ، ويردها الصدى عندما تضطدم بجوانب السفن الهائلة العالية الجدران ... وهو جالس في قاربه ، ابنه يقبع كابن الموظفين ، جبان خائف ، يرتجف ... وهو محروم من أن يقول ككل الآباء « صلى على النبي » ، أو يقول : « حصوة في عين اللى مايصلى على النبي »!

ويتمنى ، يتمنى أن يقولها مرة من أعماق قلبه ، وينتظر الوقت الذى سيطلقها فيه ، ويحل الليل ، وينغمها بطريقة ملفتة ، ويقولها فى سره مرات ومرات وعشرات المرات ، ويضيف اليها دعوات ونداءات : « الورد كان شوك من عرق النبي فتح » وغيرها وغيرها ... يحفظ ويحضر ويتمنى ويضطرب قلبه .!

الأيام تروح وتجيء ، والسنين تروح والسنين الأخرى تضاف إلى عمر جابر ، والحسرة فى قلب المعلم لاحد لها ... أصبح بلا ولد ، ذراعه اليمنى مشلولة ، وذراعه اليسرى بنت لن تجلس فى قارب أو تقود فلوكة ... بنت سيزوجها لرجل ، رجل غريب ، ربما أصبح ذات يوم مالكاً لقارب الحديدى ، وتراث عائلة الحديدى .

ولايدرى المعلم لم كان يرتجف كل هذا الارتجاف وهو جالس ، لم كان يرتجف وكان زمهير القطب قد لف جسده . الرجال من حوله صامتون ، وهو صامت يغلى ، ودمه يفور ، وعيناه تدمعان فى غيظ ، لا يستطيع أن يصنع شيئاً ، تدور عيناه مغلفة بالدموع وتجرى فوق وجوه كثيرة جلست صامته تنظر إليه باشفاق ، رجال من سنة ، وعيال من عمر ابنه ، كلها اذرعهم مفتولة ، أكلت المياه من بطون كفوفهم ثم حجرتها فأصبحت

كالحديد ... ولم يكن كالحديد في الميناء كلها سوى جده المعلم صابر
الحديدي .

نهه جابر في صوت مكتوم ، وصفرت الريح وعوت ، وتمايلت
القوارب وأز خشبها وهي تحتك ببعضها ، وترنحت الصواري ، ودفعت الريح
مقعداً وقلبته ، وخف هطول المطر ، واندفعت الأمواج نحو الرصيف تلطمه
بوحشية ، وتخرج منها آلاف الأصابع كأنها تريد اقتلاع حجارتها !

قال رجل شيئاً وهو ينفخ في كفيه ، وغمغم آخر ، ورفع المعلم
حديدي عينيه إلى السماء ، وراقب الأفق ، وهبت ريح باردة ، ثم قال :
« محدش يطلع النهارده يارجاله ، دي نوة العجوزة نزلت آهيه ،
والبوره نازله من الشرق » .

أمن الحاج حسن على حديثه وهو يرقب الأفق بدوره ويدفيء كفيه
في كوب الشاي الساخن ، وهز المعلم أبو شادي رأسه وقال أن هذه النوة
الملعونة عدوة القوارب والبحارة ، وأن أحداً لم يستطع أن يخرج في البحر
أثناءها اطلاقاً ... ثم صمت ورفع عينيه الى الحديدي وابتسم وقال :

« الا اتنين من عيلة الحديدي ، الله يرحمه المعلم صابر ، ويديله
طوله العمر المعلم محمد » .

لم يدر المعلم أبو شادي وهو يقول تلك الجملة أنه كان يغرس
خنجرأ في أحشاء المعلم محمد ، كان الرجل يعلم جيداً أن أحداً في الميناء لم
يستطع أن يقاوم هذه العاصفة ، سواء هو وجده ، وهمهم بصوت خفيض
وكانه يتابع تفكيره :

« أبويا الله يرحمه مات فيها ! »
وجاءت الأصوات من كل ناحية :
« ألف رحمة تنزل عليه ، الفاتحة له »

وتابع المعلم الحديدي أفكاره بصوت مسموع :
« كان عندي سنتها عشر سنين ، وكان جايب لي الفلوكه الصغيرة
الخضرة ، ويومها النوة نزلت علي وأنا وسط الميه ، رحت رابط علي رصيف
الفحم ، وقعدت أستنى ، ومات أبويا قدامي ، رأسه جت فوق حجر
الرصيف ، وصرخت عليه ، ومديت له ايديه ، لكن الدم بس هو اللي
استنى علي الرصيف .. و .. »

وساد الصمت فجأة ، توقف الرجل عن الحديث ونكس رأسه ،
كان ثمة خاطر رهيب قد انبثق في ذهنه ، وراه الرجال ساعتها وقد اكتسى
وجهه بصفرة شديدة ، وسأله أحدهم عما به ، ولكنه ظل صامتاً ، وطلب
الجوزة ، وأخذ يجذب منها أنفاساً شرهة وعيناه قد غامتا واكتستا بلون أسود
غريب ، كانتا تجولان في الوجوه ثم تقفان عند وجه ولده ، وتضطربان ،
ويسأله الرجال :

« انت عيان يامعلم محمد؟! .. »

« مالك يامعلم؟! .. »

« قوم رَوِّح وارتاح .. »

« ياشيخ وحد الله .. البركة فيك انت .. »

كانوا يتحدثون ويثرثرون ويتكلمون ، ولكن أحداً منهم لايدري أن
كبه كان يحترق ، لم يذكر أحدهم اسم جابر ، ولم يقولوا عنه كلمة ...
وهو حزين ، ولكن حزنه يتحول الى ثورة ، وثورته تتحول الى أفكار
مجنونة !!

لذلك اصفر وجهه حتى أصبح كالمريض بدوار البحر .
كان ثائراً ، وكان مشفقاً ، وكان حائراً وأصبح يتعذب !!
شملت عيناه وجه جابر ثم ارتدتا عنه في ذعر ، والفكرة تكبر
وتكبر ، والأمل ؟ ... ليس هناك أمل ، ولكن ... ولكن الأفكار عادة

ماتأتيه هكذا ، مثل أول مرة خرج فيها في نوة العجوزة هذه ، تلك العاصفة المجنونة التي لا ترحم ، والتي تبتلع كل من يتحداها وتطوية في جوفها المزجر الرهيب ، وتطوى معه كل ماتستطيع أن تبتلعه من سفن وقوارب ، ثم تهدأ وتلفظه جثة مهزومة ، لتعود في العام التالي ، وفي نفس الموعد ، مجنونة شرسة لا ترحم .

« يامعلم محمد ماتوحد الله .. »

« لا إله إلا الله .. »

قالها بحزن وكأنه يترحم على عزيز فقده ، فقد كانت الفكرة الرهيبة قد تقلصت كالمرض في رأسه ، ثم انفجرت وتوهجت وأصبح لامفر .. « قوموا يارجاله نلم الفلايك في الكن » .

قالها بهدوء وكأنه لا ينوي سوى أن يسحب قاربه الى مكان هادئ في ركن الرصيف ، ونهض الرجال معه ، وخطا هو خطوة ، ثم التفت الى ولده ، وهوى قلبه بين ضلوعه ، وبردت أنفاسه وتهدجت ثم ناداه : « قوم يا جابر معايا .. أنا تعبان حبتين » .

ومضى الركب الكبير نحو طرف الرصيف ، كان الموج ينقض عليه وكأنه قبضة هائلة فردت عشرات الأصابع فجأة ، وتناثر الرجال وهم يقفزون كالقروود فوق الرصيف ، يتعلقون بالصواري . وأخذ كل منهم يعمل ويقاوم الريح ، ويجذب قاربه نحو « الكن » ، وينظر الحديدي الى ولده ، كان يقف مرتجفاً من البرد ، ذراعاها متدللتان على جانبيه في بلاهة ، وأحس وقتها بالدنيا تدور من حوله ..

ثم ...

لايدري .. لايدري كيف تم الامر ، كيف طاووعه قلبه ، لايدري الى

اليوم .

أمر جابر أن يقفز الى القارب ليحمل المجاديف الى الداخل ،
ويسوى الأرض ويخلع الدفة ... وقفز جابر إلى القارب فترنح به ، وترنح هو
معه ، وانحنى المعلم محمد على الحبل الذى يربط القارب بالرصيف ، وكان
ولده لايزال يتعثر ، وفجأة ، أحس المعلم بعينه تغيمان ، وجز على أسنانه ،
وأغمض عينيه بشدة ، ورفع يده بطرف الحبل ، وتردد لحظة ... ولكنها
كانت مجرد لحظة قصيرة ، قصيرة جداً ، انحنى بعدها إلى الامام ، ودفع
القارب بكل قوته ... وترك الحبل يهوى فى المياه . وهوى مع الحبل قلبه الى
قدميه .

ومضت دقيقة ..

مجرد دقيقة كان جابر وقتها لايزال يتعثر ، ولكنها كانت كافية لأن
تقذف بالقارب الى وسط المياه والريخ والعاصفة والمطر الذى عاد ينهمر من
جديد . وتنبه الرجال الى صرخة خالوها تصدر من أعماق ألف رجل :
« ياترجع انت والقارب ، يامترجعوش انتوا الاتنين ... فاهم ؟! »
وصرخ جابر فى توسل وقد شله الرعب :
« فى عرضك يابا .. »

وران سكون عميق ، وشلت الألسنة ، وحتى القلوب كادت
تتوقف وتقفز فى اضطراب من الحلوق التى كانت مغفورة فى ذعر .
ورغم أن أحدا من الرجال لم يستطع أن يقترب من المعلم محمد
الحديدى ، الا أن كلا منهم وقف ينظر الى القارب الذى كانت الريخ
تحمله الى بعيد فوق سطح مزجر متلاطم ، وانطلقت صرخات جابر
وتوسلاته ، وحملتها الريخ إلى أذنى والده ، وخفق قلب العجوز وكاد يبكى ،
بل انه أحس بالدمع يغزو عينيه ، وتقدم نحو أحد القوارب خطوات ،
ولكنه تراجع مرة أخرى ، وقلبه ينفطر وهو يرى الأمواج الصغيرة تتكسر

وتجربى نحو القارب كأنها أسنان وحش سيفترس ولده ... أفاق للحظة ،
وتقدم نحو قارب ... لكن الوقت كان قد فات !.

كانت هناك همهمات ودمدمات :

« الراجل اتجنن .. »

« الولد حايوت .. »

« يا حول الله .. »

« وده اسمه كلام برضه !؟ »

« خليه يتعلم .. »

« والعلام يبقى بالشكل ده !؟ »

« ولو جرى للولد حاجة ، حايعمل ايه !؟ ».

* * *

كان جابر وقتها يبكى بلا دموع ، كان يعلم تماما أنه لن يستطيع
شيئا ، لم يدر مم كان يخاف ، ولم كان الذعر يلم به كلما رأى ذراع الدفة
الطويلة الغليظة ... ترنخ به القارب ، مال الى اليمين ، ومال الى اليسار ،
وتسربت إليه المياه ، واقتلع الذعر قلبه ونفضه نفضات رهيبة ، وجرى نحو
الدفة ، وأمسك بالذراع فى يده ، وانحرف القارب ، وعاد يترنخ ويدور حول
نفسه ، واضطرب جابر ، ونهض فجأة من مكانه ، كان الذعر قد شل
عقله تماما ، والقارب يبتعد عن الرصيف ، وراح ينهه فى ذعر ، وهبت ريح
قوية دفعت بالقارب فمال بشدة ، وترنخ جابر ، وتمائل جسده النحيل ...
ثم هوى إلى المياه !!

عندما دوت صرخات الحناجر الكثيرة فوق الرصيف ، كانت ذراعا
جابر تتشبثان بحافة القارب ، وقد غرق جسده فى المياه الباردة كالثلج ،
وارتفع رأسه فوق اللجة ، ورأت عيناه السماء سوداء مقبضة ، وتحولت

قبضتاه الى قبضتين من الصخر ، وثمة شيء يجذبه نحو الأعماق ، ويشد جسده كله ، ويميل معه القارب . .

وصرخ !!

واندفع جسده فجأة إلى أعلى ، كان يحس رعباً غريباً ، رعب تبخر تماماً عندما أحس بساقيه في الهواء ، وشعر بصلافة قاع القارب ، فاستدار ناحية الرصيف بسرعة وكأنه يصد وحشاً يريد التهامه ، وكان ثمة قارب يشق المياه ، وأيقن أنه أبوه .

وعندما نظر الى الخلف ، وجد قاربا يندفع بشراعه نحو رصيف الفحم ، حيث آثار دم جده ، ولم يكن هناك مفر ، وجد نفسه يعمل دون وعى ، يداه تعملان ، ورأسه يعمل ، وساقاه تقفزان هنا وهناك ، وغاب تماماً ، كل ما يذكره أنه كان يقفز في القارب ويمسك بالحبال ويوجه الدفة ويفرد القماش ، وكأنه صنع ذلك آلاف المرات من قبل ، لم يكن هناك خوف ، أبداً ، وأحس بنار غريبة تندفع في صدره . . . وهمس بصوت مرتجف مرتعب :

« مش عاوز أموت ، مش عاوز أموت » .

وعندما رفع رأسه ، كان أبوه يقف كالعملاق في القارب الآخر ، يدور به ويندفع مسافات بعيدة ، ثم يدور ويتجه نحوه من جديد . ولكنه في لحظة كان قد نسيه تماماً . . . نسي أباه ونسى كل شيء عدا الشراع الذى انفرد في فرقة مدوية ، وصفق القماش ، وأصبح هائلا كبيراً كجناح طائر ضخم .

قبض على ذراع الدفة بيسراه ، ثم مال الى الخلف وهو يجذب حبل الشراع بكل قواه . . . وتوقف القارب عن الزحف وترنح ، ثم مال بشدة . . . ثم استقام وبدأ يندفع إلى الأمام .

لم يصدق جابر نفسه ، ولم يصدق المعلم الحديدي عينيه ، ولم يصدق الرجال الذين كانوا على الرصيف مارأوه !

أحس الحديدي وقتها كأن الدنيا كلها لاتسعه ، ووقف برهة يحملق في قارب ابنه الذي كان يشق طريقه في سرعة ، وقد امتلأ الشراع بالهواء ، وجابر هناك ، بجوار الدفة ، متحفز ، نصف قائم ونصف جالس ، واضطرب قلب الرجل ، وجاش صدره بكل مافيه من حب وأمل ... وانطلق صوته هائلا مدوياً :

« صلي على النبي يا جده .. صلي على النبي .. ترضى النبي .. حصوة في عينك ياللي ماتصليش .. على النبي !! » .

وتردد الصدى وحملته الرياح الى كل مكان ، ثم ارتد اليه مدوياً حلواً كأحلى ماسمع من أنغام .

استدار بقاربه نحو الرصيف ، وانثنى الشراع ثم مال ، ثم امتلأ بالهواء وكأنه يشير الى ولده أن يتبعه ، ودار قارب جابر ، وانثنى الشراع ، ثم مال ، ثم امتلأ بالهواء . وكأنه يقول « حاضر » !! .

والرجال على الرصيف يهللون ، والقاريان يعودان ، والريخ تعوى وتزجر وتصفر في غضب كأنها وحش قيدته سلاسل ، والقاريان يشقان الطريق وينزلقان فوق السطح المربد بسهولة وقوة .. و .. وكبر جابر ..

١٩٥٨

قاع البحيرة السوداء

تجمع الرجال حول القوارب ، وتمددت أجسادهم السمرء اللامعة في استرخاء ... ووراءهم وأمامهم وفوقهم وعلى جوانبهم ، كانت الشباك ملقاة ومعلقة في تهدل واستسلام ، كأنها هي الأخرى تستريح من عناء اليوم ... وسبح كل شيء في ضوء القمر .

ورغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ، إلا أن آثار الشمس كانت لاتزال عالقة بكل شيء ، ولم تفلح النسمات الرطبة الندية في تخفيف تلك الحرارة ، وذلك الصهد الذى كان يتصاعد من الرمال ومن سطح مياه البحر .

والتقت النسوة في حلقات حلقات ... أغلبن قد ألقمن أطفالهن أئداءهن ، وضممنهم إلى صدورهن ، وأخذن يثرثن ويعبثن بأصابعهن فى رمال الشاطئ .

وخلف أحد القوارب المنتصبة على الرمال فوق قوائم بدت وكأنها أرجل قصيرة غليظة ... كانت امرأة عجوز قد استسلمت للصبية والفتيات الملتفين حولها وقد تعلقت عيونهم بها ، وقد همت أن تقص عليهم القصة للمرة المائة أو المائتين ، وربما كانت المرة الألف ... فهي لاتدرى ، ولاتمل من حكايتها ، كما لايميل الصغار سماعها .

صاح أحد الرجال ينادى على ولده ... فتلملم الطفل في مكانه ،
وتعلقت عيناه بوجه العجوز دون أن ينطق كلمة ... بينا ابتسمت هي
وقالت :

« شوف أبوك داكر عايز ايه .. مش حاحكى إلا لما تيجى ! »
قفز الصغير بسرعة وانطلق يعدو فوق الرمال ... بينا عينا العجوز
تبعانه في وله وشغف ، وبدا لها شبحة في ضوء القمر طويلا ... أطول من
سنه بكثير ... كان الطفل في الثامنة من عمره ، بينا كانت قامنه قامه
صبي في الثانية عشرة ، وكان جسده عريضا وذراعا مفتولتان ، فتعلق نظر
العجوز به لفترة ، ثم قالت بصوت خافت :

« اهو أنا وعيت عليه كان في طول سيد تمام .. بس كان أصغر
منه بستين ! »

وسرعان ما انتصب بجوار الصبي رجل عملاق الجثة ، وضع يده
على كتفه ومضى به بين القوارب ... فارتجف قلبها ... وقالت إحدى
الفتيات :

« هو عمى داكر رايح فين ؟ .. »

وساد الصمت برهة . صمت مزقه صوت امرأة تنادى على
ولدها ... فتلملم الصبي وسط الحلقة ... وابتسمت العجوز وهي
تقول :

« بلاش النهارده ياولاد ، بلاش ... أنا تعبانه »

زام البعض ... وهم البعض بالاحتجاج ، ولكنها كانت قد
أطرت ، فأيقنوا أنها لن تحكى ... ثم أخذوا ينهضون في تناقل وينفضون من
حولها ... وفي لحظة ، كانت قد أصبحت وحيدة .

امتدت يدها فغرفت من الرمال الدافئة حفنة ... وامتدت عيناها

فتعلقنا بقرص القمر ... ثم انزلقتا إلى سطح المياه ... وسبحتا بعد ذلك فوق السطح في رحلة طويلة عبرت بها مدخل الخليج الضيق ثم سرح خيالها فقفز بها فوق القمة السوداء الشائخة ... ووراء القمة حدث كل شيء .

وقد مضى زمان طويل ... زمان لم تعده بالسنين وإن كانت قد عدته بدقات قلبها .

كانت أيامها عروس .

لم يكن قد مضى على زفافها أكثر من قمرين اثنين ... وكانت الحياة في الخليج شاقة ، والأسماك قد شحت وقلت ، وتعرض الرجال للأمواج الصاخبة خارج الخليج حيث كان جوف البحر يتلعمهم مع قواربهم وشباكهم . ولا يلفظ منهم شيئاً . فانكملت رحلاتهم ، وشح رزقهم ، وجاءت عليهم أيام سوداء ... أيام كانت الشباك تخرج من المياه كما تلقى إليها فارغة . فلا هم قادرون على الخروج إلى البحر بقواربهم الهزيلة الصغيرة ، ولا أحدهم بقادر على الاقتراب من البحيرة السوداء .

كم تناقش الرجال وتحدثوا وحكوا الحكايات عن جيوش السمك التي كانت تملأ البحيرة ، ولم سمعتهم أيامها يصفون أنواع السمك الكبير والصغير ، الغالي والرخيص ، جيوش وجيوش كانت تقفز أمامهم في مرح فوق سطح البحيرة ... ولكن أحدهم لم يستطع أن يقربها .

حتى عندما تسلقوا الصخرة الكبيرة الشائخة ، وهبطوا إلى شاطئ البحيرة ثم ألقوا بشباكهم إلى مياهها ، وما يكادون يجذبونها حتى يجدها مهلهلة ممزقة ... فحاولوا وحاولوا ، أيام وأيام ، في الليل والنهار ... ثم أيقنوا بعدها أن كل ما سمعوه كان صحيحاً ، وأن البحيرة لا بد مسكونة بجنية

شرهة !!

ثم قرر رجالان أن يدخلوا البحيرة ، فدخلاها ، ولكنهما لم يعودا . لم يعد منهما شيء . سوء أشلاء القوارب ، وبقع دماء طففت على سطح المياه ... ثم ذاب لونها الأحمر في لون مياه البحيرة السوداء .

ومرت شهور قاحلة ، لارزق فيها ولاعمل ... يلقي الرجال بشباكهم لتخرج فارغة . وتنظر عيونهم إلى البحيرة في حسرة . ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب منها .

ثم قرر الرجال أن يقتلوا تلك الجنية . لا يذكر أحد من الذى قال هذا ... ولكن الذى حدث أن الشاطيء تحول في يوم وليلة إلى جيش . الرجال والعيال والنساء والفتيات . حمل الرجال الحراب والسكاكين والفؤوس والأسلحة والعصى . وحملت النسوة المشاغل . وتجمع العيال بالحصى والحجارة والطوب . وتسلق الجميع قمة الصخرة الشاهقة وهبطوا واحداً وراء واحد إلى الشاطيء ، ثم أحاطوا بالبحيرة من كل جانب ... حتى مدخلها الصخري الضحل ، وقف فيه عدة رجال ، غمرت المياه سيقانهم حتى منتصفها ، وعلى أكتافهم وفي أيديهم أسلحتهم . وسدوا الطريق إلى البحر . ومرت ليلة ، ثم ليال سبع وهم ينتظرون دون جدوى . سبع ليال طويلة لم ينم فيها أحد ... ولكن الجنية لم تظهر !! .

كانت ليال غريبة . الشاطيء يخلو . والجميع يسهرون . وفي النهار يعملون . ولحظات النوم تمضي كالريح . والأكواخ شح فيها الطعام .

كم من ليال مرت عليها لم تكن تجد ماتقدمه له من طعام ، ولكنه كان دائماً مشرق الوجه ... تقاطيعه لم تنسها رغم الأعوام الطويلة ، كم أحببت تلك التقاطيع ، وم سحرتها وفتنتها . كانت سعيدة أيامها ، وكان يقول لها :

« انتى حلوة يانرجس .. حلوة زى القمر .. »

ولم تكن تخجل من غزله ، بل كانت دائماً تستزيد منه وتقول له :
« زى القمر بس ؟ ! »
فينطلق ضاحكا ويعابثها قائلاً :
« انتى يابت مش بتكسفى أبداً ... انتى مش وليه ؟! »
كم أحبته ... وكم بكت عليه .

* * *

غنى رجل ، فسبح صوته فى ضوء القمر وهو يغمر الشاطيء ،
ولمعت أطراف المياة وهى تلتقى بأطراف الرمال لتضع معها خطا متعرجاً
كعلامات الطريق . فألقت بحفنة الرمال من يدها وأسندت رأسها إلى
يسراها . وامتدت أصابع يمينها تعبت فى الرمال من جديد .

* * *

كيف فعل ما فعل ؟

إنه لم يذكر لأحد شيئاً . ولقد كانت يومها سعيدة ، كانت فرحة
تكاد تطير من الفرح . وكانت تبحث عنه . خرج فى الصباح ولم يعد .
سألت عنه فقالوا لها : « فى الميه » .

وغربت الشمس وسألت عنه فقالوا لها : « مع الرجال » .

كان ذلك فى الليلة الثامنة ... وكان اليأس قد أخذ بتلايب
الرجال ، بعضهم كان يعد العدة للرحيل ، فلم يعد فى المياى سمك ، ومياى
الأرض واسعة . وبعضهم تشبث بالشاطيء . وكان هو أكثر المتشبهين به .
لقد سمعته ليلتها يتحدث بحدة ... كان الرجال يتناقشون ، وكان يتناقش
معهم ، ولم يظهر عليه شىء ، ولم يحدث أحداً عما كان ينوى أن يفعله .

سمعته ليلتها يقول للرجال بصوته الثابت القوى :

« نسيب الشط لمن ؟ .. داحنا اتولدنا عليه ، وعشنا فيه ...

جنيّه ايه يارجاله ، مفيش جنيّه ، لازم فيه حاجة ... حاجة ! » .
فصاحوا فيه : « حاجة ايه !؟ »

وصمت ...

كان هذا مايدهشها منه ... سألته ذات ليلة نفس السؤال ،
فصمت ، وطال صمته ، ثم قال :

« يعنى الجن مالقوش غير البحيرة اللي حيلتنا ؟ ... أبهاتنا ماكانوا

بيصطادوا فيها .. »

« ماهى انسكنت بعدها »

« ياويله اعقلى ... بقى لها قد ايه مسكونه !؟ »

وكان يعرف كما كانت تعرف ... كان يعرف أن الجنيّة جاءت مع

تلك العاصفة المشئومة ، عاصفة هوجاء لم ير الشاطيء لها مثيلاً ...
أطاحت بالتوارب والأكواخ ، وابتلعت ناس وألقت إليهم بجثث ناس
آخرين ... ناس من أرض بعيدة .

ورغم هذا ، كان دائماً يقول : « مفيش جنيّه ! » .

وقد قال ذلك للرجال فى تلك الليلة ... واحتدم الحديث بينهم ...

كانوا جميعاً فى كوم ، وهو وحده مع اثنين آخرين فى كوم . ثم تحول النقاش
إلى صياح ... ثم سمعته يقسم ألا يبيت معهم حول البحيرة . فذهب
الجميع ليلتها إلا هو .

لو كانت تعرف مأسوف يحدث لما غادرتة ، ولكنه صامتاً كقلب

الرمال الباردة . ثم اختفى ولا تدزى أين ... فذهبت ليلتها مع الذاهبين إلى
شاطيء البحيرة ، كم تمت أن تلقاه ولو للحظة .

حملت مشعلها فى يدها وأخذت تحملق فى سطح المياه الساكنة

الذى كان ينشق بين الحين والحين عن أسراب وأسراب من الأسماك العابثة

اللاهية . وكانت الحسرة تاكل قلبها كما كانت تأكل قلوب الجميع .
وفجأة ... انعصر قلبها حتى كاد يتوقف .

فعلى اليسار ، هبطت العيون إلى أسفل حيث مدخل البحيرة .
ورأى الجميع قارباً صغيراً يسبح فى ببطء وسكون ، يضرب مجدافيه سطح
المياه ، وتشق مقدمته أمواجه الرقيقة فى قوة واصرار ... وصاح أحد
الواقفين عند المدخل :

« مين هناك؟! »

وعلت المهمة هنا وهناك ... وتحول شاطئء البحيرة إلى خلية من
الأجساد المتحركة القلقة ... والرؤوس قد استدارت كلها إلى حيث
القارب ، بينما العيون تجاهد فى ضوء القمر الشاحب أن تلمح صاحبه .
والقارب يقترب ويقترب ، والصياح يعلو فيشق الفضاء :

« مين فى القارب؟! »

وأضاء أحدهم مشعله . فأضاءت امرأة مشعلها . ومرت لحظات
غمر الشاطئء بعدها ضوء محشرات المشاعل ، وانعكس على سطح البحيرة
وترقرق . وذاب ضوء القمر تماماً . وجاء بعدها صوته :

« أنا ذاكر .. »

وشهقت . ثم جمدت ولم تدر ماذا تفعل أو تقول . كان القارب
لايزال يقترب من البحيرة ويقترب ، والأصوات قد علت وعلت . ثم صاح
أحد الرجال :

« أرجع ياداكر .. ارجع حرام عليك شبابك » .

وتوقف المجدافان ، ثم وقف ذاكر بقامته المديدة الفارهة فى وسط
القارب ، وصاح فى الرجال الواقفين عند المدخل :

« اللى عايز يبجى معايا يبجى .. واللى مش عايز .. »

وقاطعه صوت أبيه من فوق الشاطئ البعيد :
« ارجع يا بنى .. ارجع حرام عليك .. كفاية اللي راحوا في
جوفها .. كفاية اللي بلغتهم » .

وقد عاد الى المجدافين ... وأخذ يضرب بهما سطح البحيرة في
قوة ... والقارب يسبح ويسبح ويسرع في إنزلاقه ... ولم يستطع أحد من
الرجال أن يعترض طريقه ... بينما ضوء المشاعل يغمر سطح البحيرة ...
والقارب يتوغل ويتوغل ... وصوت يدوى في الفضاء :

« حاتعمل إيه ياداكر ؟ » .

ولايرد داكر ، بل يوغل ويوغل ، حتى توسط القارب البحيرة تماماً ،
ونفض من مكانه ، وجمد للحظة . ولكنها كانت لحظة مرت كلمعة
البرق . ثم أخذ يخلع ملابسه . فانطلقت الصيحات تغمر الفضاء . كانوا
يعلمون كما كانت تعلم أن البحيرة عميقة عميقة . وكان الكبار منهم يقولون
إنها بلا قرار . فلم تستطع أن تكتم صوتها ، فصرخت . صرخت ملتاعة
حتى أخرس صراخها كل الأصوات ... وأخذت تقترب من الشاطئ ،
وخطت في المياه خطوة ، في يدها المشعل يضيء وجهها المفزوع ، ثم
خطت خطوة أخرى ... وامتدت أكثر من يد تمنعها ، ولكن الأيدي لم تمنع
صوتها :

« ارجع يادااااكر .. ارجع .. »

فاستدار بوجهه ناحيتها ... ورغم بعده الشديد ، فقد خيل إليها أنه
يبتسم . وكانت تعلم أنه لن يرد ، ولكنها عادت إلى الصياح بصوت
مختنق :

« ارجع .. يادااااكر .. أنا بطنى مليانه .. أنا حبلى ياداااكر ..

حبلى .. » .

« اضربوا يارجاله على طول ! »

« اوعى تفلت منكم »

في لحظة ... نسيه الجميع إلا هي . وعيناها الجاحظتان تحملقان فوق السطح الثائر الرهيب بحثاً عنه . بينما الجميع في تحفز منتظرين الجنيه . ومن وسط سحب الرذاذ الذي امتلأ به سطح البحيرة ، سمعت صياحه . وسمعه الجميع . ولكن أحداً لم يره وقتها . كان يصيح بأعلى صوته :

« ده حو .. و .. ت . حو و و و و ت . حو و و ت محبو ..

و .. وس .. حو .. و .. »

وضاع صوته المرتعب . كانت صرخاته مذعورة مذعورة . ولم تعرف صوته ... وردد الجميع في ذهول وتساؤل : « حوت !!؟ » ... بينما كان صراخها يشق الفضاء :

« داااا اكر .. داااا اكر .. »

وصاح من ورائها صوت مفزوع :

« آهو .. داكر آهو .. جنب القارب .. »

وتحولت العيون كلها إلى القارب ، كان داكر يتشبث بحافته في استماته ، وكان وجهه يبدو من خلال سحابة الرذاذ باهتاً ، ورأته . رأت كفاه وذراعاها وهما يجاهدان ويتشبثان بخشب القارب . ويجاهد . وصرخت . ويعافر . وصرخت . كان كمن يقاوم شيئاً يجذبه إلى القاع . ولكنه أفلح . وصعد إلى القارب . وصرخت بصوت كان يحمل كل أحشاءها ... كان بلا ساقين !! .

شق صوته الفضاء في وهن :

« حووت .. حووت .. حووت .. حو .. »

وانشقت المياه عن رأس شيطان هائل ، رأس كبيرة كبيرة .

عينها واسعتان هائلتان . وسرعان ما دفعت الرأس جسد القارب دفعة
انقلب بعدها ... وغاص في المياه ... وغاصت الرأس وراءه .

ولم تر منه شيئاً . لم سوى بقع دماء طفت على سطح البحيرة ، ثم
ذاب لونها الأحمر في لون مياه البحيرة السوداء .

همهمت العجوز بصوت خافت ، وأصابها لاتزال مغروسة في
جوف الرمال . وعيناها معلقتان بالذرات الصفراء الرطبة ... وكان صوتها
ضعيفاً متهدجاً :

« وبعدها ياولاد ... قتلوا الحوت . جابوا الحكومة موته ... كان
ييجى قد الجبل . قالوا إنه جه مع النوة الكبيرة اللي ماخلت ولاسابت .
وإنه انحبس في البحيرة . حاكم مدخلها واطى . الميه فيه تيجى شبرين .
و .. ولدت عمكم داكم بعد تسع شهور تمام . هو راح فين ؟! .. قولوا
له ييجى ياخذنى العشه .. الله .. انت رحتم فين ؟ . مشيتم ؟! . نتم ؟ .
ن .. نهايته . كان السمك إالى في البحيرة يغطى عين الشمس . والأشياء
بعدها بقت معدن . ولا اتجوزتش بعده راجل . مملاش عيني راجل غيره ...
وكان محدش من الرجاله طلبنى ياولاد .. الله يرحمه .. »

وسقطت من عينها دمعة ، لمعت في ضوء القمر .

. ١٩٥٧

قصة رجلين

وأخيراً ... وبعد كل هذه السنوات ، أصبح على مدكور قبطان أن يقود السفينة . ثلاثون عاماً كاملة عاشها فوق الأمواج ، وطاف فيها حول الدنيا ، وخبر فيها مياه العالم شبراً شبراً ، ونحور العالم ومحيطاته موجة موجة ، وصارع العواصف عاصفة عاصفة ... ورغم هذا ، فهو لم يك قائداً لسفينة قط .

ثم يقولون له اليوم ، وبعد هذا العمر الطويل ، تسلم السفينة وأقلع بها ... فأنت القائد ، انت القبطان !

وأصبح عليه أن يتسلم السفينة ، وأن يقلع بها ... فهو القائد . ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يشرب الخمر بلا حساب ، يجرع الكأس كأنه قطرة ، ويجرع الزجاجاة كأنها كأس ، يشرب ليلاً ، ويشرب نهاراً ، ولا يكف عن الشراب ، ولا يفترق ، ولا يغيب مرة عن الوعي .

ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يعمل كما يشرب ، يعمل في الصباح ، ويعمل في المساء ، يعمل في النهار ، ويعمل في الليل ، لا يكف عن العمل ولا يكف عن الحركة ... يُصادق الناس ، ويصادق الرياح ، ويحدث الأمواج ، ويضحك للقمر عندما يطل عليه من السماء ، ويعبس في وجه السحب عندما تخفيه عنه ... يضحك هذا ، ويعابث ذاك ،

ويجلس مع البحارة كما يجلس مع القباطنة ، ويشرب مع الضباط كما يشرب مع الوقادين ... الكل أصدقاؤه ، يحب الجميع ، ويحبه الجميع ، ويشهدون له بأنه بحار من الطراز الأول ... ورغم هذا ، فهو لم يتسلم في حياته سفينة ، ولم يك في حياته قبطاناً لمركب .

وتساءل الناس كثيراً عن السبب ، وثرثر البحارة في جلساتهم وهم يحكون عنه الحكايات ، ويقولون أنه سكير ، ولذلك لم يقدر سفينة ، وأنه لايفيق ، ولهذا فهو لا يستطيع أن يتحمل مسئولية !.

على أن مذكور قبطان لم يفكر في هذا مع الناس ، وإن كان قد فكر فيه مع نفسه . ولم يتحدث في هذا مع أحد ، وإن كان قد تحدث فيه مع عبد الباسط .

وعبد الباسط عجوز خفيف الدم ... قال الجميع عنه إنه ومذكور قبطان كأنهما فولة انقسمت إلى نصفين ، أحدهما مذكور ، والنصف الآخر عبد الباسط .

وعبد الباسط بحار مخضرم ، عمل في الآلات وقاداً سنوات وسنوات ، وعمل على السطح نوتياً سنوات وسنوات ، وأمسك الدومان دومنجيا سنوات أخرى وسنوات ... وجذب الحبال والأشعة مرات ومرات ، وآلاف المرات ، ولايزال يعيث طول النهار في السفينة ، ويعمل في كل شيء ، ولايطلب منه أحد أن يعمل شيئاً .

وهو الآن سفرجى .

يقول للناس ساعة انبساط ، أو ساعة غضب ، أنه وعى فوجد نفسه يركب مركبا ، وأنه خبر كل شيء في السفن ، وعرف مخابئها واسرار قيادتها ، وأنه لو كان في هذا البلد انصاف ، لأصبح اليوم قبطانا يشار إليه بالبنان ... لولا العمر ، ولولا السنوات التي حطت فوق رأسه فأشعلته

بالشيب ، وفوق جلده فجعدته وهدلته ، وفوق عينيه فأضعفت نظره . وأنه لو كان قد وعى لنفسه كما يفعل الرجال ، لكان اليوم يعيش في قصر وينفق ببذخ ، ويكتنز من الأموال الوف الجنيهات وعشرات الألوف ... لولا الخيابة وصغر العقل ، ولولا الكأس المعلونة التي جعلته يبعثر باليمين ماكسبه باليساز ، ويقطع حياته عن أهله ، ويعمل بعد طول حياة صاحبة سفرجيا على سفينة .

ورغم هذا فإن عبد الباسط ليس سفرجيا إلا بالإسم فقط ، فكل القباطنة ابناؤه ، وكل هؤلاء الضباط تخرجوا من تحت يديه ، كلهم يحبونه وهو يحبهم ، لايفضل أحدهم على الآخر ، لايخدم أحداً ، ولايحمل طبقاً أو صينية ... اللهم سوى زجاجة مذكور قبطان والثلج ، ولوازم القعدة في الليل ... عندما يهدأ العجوز مذكور من دورانه وعبثه وعمله ، ويحط جسده السمين العريض فوق فراشه الصغير ، وينادى على عبد الباسط ، وتصبح الحياة وقتها حلوة . يتهامس ساعتها العجوزان . وتميل رأس إحداهما على الآخر . ويحكى كل منهما للآخر . ولاتقرع الكؤوس ببعضها ، بل تقرع بالشفاه ، وتفرغ زجاجة ، واثنان ، وأحياناً ثلاثة ، وفي بعض الاحيان يطلع عليهما النهار ومذكور يقول لعبد الباسط : « أنا مايهمنيش يا عبد الباسط ياخويا ، أنا مش عاوز ابقى كومنندان ، إنما العدل ، مفيش عدل ، والانصاف ، مفيش انصاف » .

وقد تكون الزجاجات قد كثر عددها ... وليلتها ربما تدمع عينا مذكور قبطان من الألم ، وربما دمعت مع عينيه عينا عبد الباسط وهو يواسيه ، ويسب الظلم ويقسم أنها لا بد أن تتعدل ذات يوم ... وأنه لا بد وأن يصبح قائداً لسفينة .

وعبد الباسط مؤمن أشد الايمان أن القبطان مذكور أحسن قبطان في الدنيا ... وأنه قادر على أن يقود أكبر سفن العالم ، وأنه لولا البخت ،

وفي الحقيقة ، لولا الكأس ، هذه الملعونة التي كانت سبباً في بلوآهما ، لتغيرت الحال وأصبحت غير الحال ، ولكنه الحظ الأسود والبخت النكد .

وعلى كل ، فلن يأخذ أحدهما من الدنيا شيئاً ، فلن يعيشا قدر ما عاشا ، والآتيات أصبحن أقل من الرائحات ، وليشربا في صحة مذكور قبطان ، وفي صحة عبد الباسط ، وليقرعا الكؤوس هذه المرة ، ولتتحف على شفاههما ابتسامات واهنة مرة ، وليقل كل منهما للآخر أن الصداقة هي كل شيء في الدنيا ، وأن الصديق أحسن من الأخ ، وأحسن من الأب ، وأحسن من الزوجة ... وليتقارب قلباهما ، ويقسم كل منهما أنه مستعد أن يضحي بحياته في سبيل صاحبه ، ولتتسع الابتسامات الواهنة وتصبح ابتسامات كبيرة تشمل الوجهين والعيون الأربعة ... وسيمضي الوقت ساعة وراء ساعة ، ويمضي معه العمر الذي مضى أغلبه .

ورغم هذا ، فلقد كان الرجلان أول الداهشين لهذا الأمر ، وأكثر الناس عجباً ، ولكن الدهشة مهما بلغت ، فإن الحقيقة دائماً هي الحقيقة ...

وكان على مذكور قبطان أن يقود السفينة .

قال عبد الباسط يومها : « ألف نهار أبيض ... والف مبروك » ، ومضى في السفينة فرحاً مسروراً يصفق كطفل صغير ، يداعب هذا ويعابث ذاك ، ويقدم للرجال السجائر والكاسات ، ومضى يضحك ويضحك ولايكف عن الفرحة أو الضحك ، فالיום هو يومه ، والدنيا أصبحت عال ، وكل شيء قد تعدل ... وأصبح مذكور قبطان قائداً للسفينة .

ولكن مذكور قبطان لم يضحك ، ولم يفرح ، ولم يترك كايئته منذ ساعات ، ولم يحدث أحداً ، ولم يضحك أحداً ، وهز للرجال الذين هناؤه رأسه ... وقال هؤلاء عنه أنه كان شاحب الوجه . صامتا لايتكلم ؛ وأنه

ليس كعادته .. و .. و .. وثار عليهم عبد الباسط ، وقال انهم كذابون ،
وأنه ليس شاحب الوجه ، وليس صامتا ... ثم لعن الناس والسنة الناس
وحديث الناس .

حقاً أن مذكور قبطان لم يغادر كايئته منذ أن علم بالأمر ، ومنذ أن
عرف أن عليه أن يقلع اليوم . ولكن ليس معنى هذا أنه شاحب ... وحقاً
أن وجهه مصفر قليلاً ، ولكن ذلك من أثر سهرة الأمس التي شربا فيها
كثيراً ... وحقاً أنه لم يكلم أحداً على غير عادته ، ولكنه ليس صامتا .

صحيح أيضاً أن عبد الباسط دهش من هذا في البداية ، ولكنه
قال أن ذلك من أثر الفرحه ، وصحيح أنه حاول أن يجعله يتكلم ، لكنه
كان مقتضب الحديث ، وصحيح أن دهشة عبد الباسط كانت شديدة
للغاية . وأنه ساءل نفسه عما اعترى الرجل ... ولكن دهشة الرجال كانت
أشد عندما سمعوا مذكور قبطان يصرخ في وجه عبد الباسط ، بل ويطرده
من الكاينة ويقول له بأعلا صوته : « اطلع بره » .

وخرج عبد الباسط من الكاينة مذهولاً ، وقبع فوق فراشه
لايرحه ، وحاول الرجال أن يكلموه فلم يتكلم ، وحاولوا أن يضحكوه فلم
يضحك ، فقدموا له كأساً وسألوه عما حدث ، فقال لهم أنه لم يحدث
شيء ... فقدموا له كأساً أخرى وسألوه عما حدث فقال لهم :
« مصارين البطن بتتعارك » ... وقدموا له كأساً ثالثة وسألوه أيضاً عما
حدث فسهم وقال شيئاً لم يسمعه ... وأخرج أحدهم زجاجة ووضعها
أمامه فعب منها ... ثم حكى لهم عن هذا الذي حدث .

والذي حدث شيء غريب ... سأل عبد الباسط مذكور قبطان عما
به . فقال هذا : « ولا حاجة » ، ... وضحك عبد الباسط وقال له :
« ولا حاجة ازاي ... انت مش زى عوايدك » ... فرد مذكور قبطان :
« سيبنى في حالى » ... وقدم له عبد الباسط كأساً وهو يقول في مرح :

« يحيا العدل ... والنبي انت سيد القباطين » ... وزجر مذكور في جفاف : « قلت لك اسكت يا عبد الباسط » . وألح عبد الباسط في عشم : « والنبي مانا ساكت الا لما تضحك وتفرفش وترقص كان » ... ولكنه لم يضحك ولم يفرفش ولم يرقص ، بل صرخ فيه وسبه وقال له : « احترم نفسك » ... ثم قال : « اطلع بره !! » .

واقلعت السفينة ... وتهادت كالعروس وسط الميناء ، ثم انطلقت بكل سرعتها إلى عرض المحيط ... وخبث في المياه ، وشقت طريقها ... وسبحت في الوعاء البللورى الأزرق ، وتنسم الرجال الهواء البارد ملء صدورهم ، ونظروا إلى المياه الزرقاء العميقة الزرقة ، وإلى السماء الصافية المرصعة بنتف السحاب فوق صفحتها اللامعة الرائقة ... وتضاحك البعض ، وثرثر البعض ، وشرب البعض الآخر ... ولكن مذكور قبطان لم يتغير ، ولم يخرج عن صمته ، بل هو لم يترك حجرة القيادة الزجاجية الحوائط ولادقيقة ... ومضت ساعة وساعات ، وغربت الشمس ... ولما جاء الليل دلف إلى حجرتة في صمت ، ولم يطلب عبد الباسط ، ولم يسأل عنه ، ولم يجالسه ، ولم يحادثه .

فحادث عبد الباسط نفسه ، وحادث الزجاجة ، وحادث الرجال ، وقال أهذه هي نتيجة صداقة العمر ... تستطيعون أن تقولوا عشر سنوات ، أو عشرين ، وهو لا يذكر فرما كانت خمسة وعشرين سنة وأكثر ... ثم بعد هذا يقول له : « اطلع بره » .

وابتسم الرجال وهم ينظرون خلسة إلى بعضهم البعض ، وقال له رجل : « معلىش ... الدنيا مافياش أمان » ، وهز عبد الباسط رأسه مصدقا ... وتركهم ومضى ، مضى إلى السطح ، وتمسح في كايينة مذكور ، واقترب من الباب ، وسعل بصوت عال عليه يسمعه أو يناديه ، ولكن الباب ظل مغلقاً ، ولم يسمعه مذكور أو يناديه ... فهم بأن يقرع الباب ،

ولكنه عاد من حيث أتى ، ووجهه المغضن محتقنا ... وعقله لا يكاد يصدق .

وفي آخر الليل ... بكى ، وهطلت الدموع من عينيه كثيرة ؛ وأقسم ألا يحدث مذكور بعد ذلك ، وألا يحمل له الزجاجاة والكأس ، وألا يستمع اليه ... وأن يتركه وحيداً كما تركه هو وحيداً . وأخذ بعد ذلك يشنج كطفل صغير ، وانكفاً على المنضدة ، وظل يبكي في صمت ... ثم نام في مكانه .

وفي اليوم التالي ، نسي الرجال حكاية عبد الباسط ، بل انهم نسوا عبد الباسط نفسه .

وفي اليوم التالي ، نسي عبد الباسط حكايته ، ونسى هو الآخر نفسه .

ذلك أنه في اليوم التالي ... كانت العاصفة الرهيبية قد هبت ! . ولأحد يدري كيف هبت تلك العاصفة ، كانوا يعلمون أنها ستهب بعد ذلك بأسبوع ، وكانوا يعلمون أنهم سيجتازون الخليج الرهيب بعد ذلك بساعات ، وكانوا أيضاً يعلمون أن الاقتراب منه ، وفي تلك العاصفة اللعينة ... أمر غير معقول .

وحدث الرجال أنفسهم ، وحدث بعضهم البعض ، وتساءلوا في دهشة كيف هبت العاصفة ، وكيف سيعبرون الخليج ... ثم مضوا يعملون وهم يفكرون ويتساءلون ، والسفينة تترنح وتترنح ، واستيقظ النائمون ، وتحفز المستيقظون ، ووقفوا يرقبون البحر والسماء والأمواج ، وينتظرون بقلوب واجفة وصولهم الى الخليج ... الخليج الذي يتلع له في كل عام سفينة أو سفينتين ، والذي يحكى الرجال عنه الأساطير ، ويقول العجائز منهم إنه مسكون بالشياطين .

لم يكن أحدهم قد فكر في العاصفة ، وإن كان مذكور قبطان قد أمضى يومه وليله بحسب حسابها ، ولافكرة في رأسه إلاها .

... كان واقفاً ساعتها في مكانه من كابينه القيادة ، صامتاً لايتكلم ، السيجارة مدلاة من بين شفثيه ، والكأس تتمايل بين أصابعه ، وشعره الأبيض مهدلاً فوق جبينه ، وعيناه لاتبرحان الأفق .

وساعة أن رأى بوارد العاصفة من بعيد ، أيقن أنه كان على صواب .. وأيقن أنه كان على حق عندما هم ألا يقلع بالسفينة وقت أن قالوا له أنت القائد ، وعليك أن تقلع بها ... وأن يقول لهم أن العاصفة وشيكة الهبوب ، وأن اجتياز الخليج أثناءها أمر رهيب . وتردد كثيراً ، وساءل نفسه كثيراً وهو ينظر إلى العمود الفضي الذي كان يهبط في مجراه الطويل .نكمشاً من البرد ... وساءل نفسه كثيراً وهو يرقب المؤشر الذي كان ينوء بحمل الهواء الرهيب القادم من بعيد ... ساءل نفسه كثيراً ... أيقن أم لا ؟ ... وساءل نفسه هل يستطيع أن يجتاز العاصفة ، ثم ساءل نفسه عن مصير الرجال ، وساءل أيضاً نفسه عما سيقولونه عنه لو أنه تردد في الإقلاع بالسفينة !... ووقتها ، سأله عبد الباسط عما به ، فصمت ، وألح عبد الباسط عليه ، فكاد أن يخبره بالأمر ، ولكنه خجل ، وضاحكه عبد الباسط عندما كانت الحيرة تمزق عقله ... فصرخ فيه وسبه وقال له : « احترم نفسك » .. ثم قال : « اطلع بره » .

ومضى النهار وهو يسائل نفسه ، وحنان الوقت ... وأقلع . وما أن سبحت السفينة في عرض المحيط ، حتى نسي كل شيء عدا تلك الفكرة المجنونة التي كانت تنهش عقله وصدرة ، نسي نفسه ، ونسي طعامه ، ونسي حتى شرابه ، ونسي عبد الباسط ، ولم تذق عيناه طعم النوم ... وبقي متحفزاً يأكله القلق ، ويأكل هو قلقه ، وتمر الدقيقة وراء الدقيقة ، وتحمل له الدقائق الخوف ، وتحمل له الساعات نذر العاصفة .

... ثم هبت العاصفة .

كانت السحب السوداء تزحف من الأفق في جحافل لانهاية لها ،
جحافل ثقيلة باردة ، تسبقها تلك الطلائع الوحشية من الرياح ... وتحملها
على ظهرها متقدمة نحو السفينة في سرعة رهيبة ، ومالت الرياح إلى سطح
المحيط ، واقتلعت منه أمواجاً كانت تعلو في الهواء كالجبال ، وتصنع قممها
زبدًا أبيض في لون الثلج ، وتتقوس سفوحها وتتقوس ، ثم تطبق على السفينة
في عنف ، وتتفتت رذاذاً يتناثر فيملاً الجو ، وترتج السفينة وتمايل تحت قوة
الضربات المتلاحقة التي كانت تنهال عليها من كل جانب ... والرجال قد
تناثروا فوق ظهرها وفي داخلها ينتظرون ، والرجل الواقف إلى عجلة الدومان
قد بدأت قدماه في الانزلاق مع تمايل السفينة الشديد ... ومدكور قبطان
لايكف عن العمل ، ولايكف عن الانثناء فوق الخريطة ... ثم الحملقة في
الأفق واصدار الأوامر !!

ومع جحافل السحاب المحملة بالأمطار والثلوج ، هبت من الأفق
جحافل الظلام تغزو معها الخليج الثائر ... وارتفعت السفينة إلى أعلا فوق
قمة موجة حملتها وهي تزجر وتزحف فوق السطح المربد الثائر ، وسرعان
ما انحسرت الموجة وأسرعت تذوب في الخضم الهائل ، وهوت السفينة بكل
ثقلها إلى أسفل ، وهوت معها قلوب الرجال واضطربت ، وانزلقت قدم
الرجل الواقف أمام عجلة الدومان ، ومالت ذراعاه ، ومالت العجلة ،
وانحرفت السفينة وهي تهوى . . ثم ارتطمت بالسطح الرهيب ، وفي نفس
اللحظة انقضت عليها موجة غضبي ، وأطبقت عليها كأنها تريد افتراسها ،
واهترت السفينة اهتزازاً شديداً ، وأنت جدرانها ...

ودوت في داخلها صرخة !...

وتصلبت الرؤوس ، وجحظت العيون وهي تتجه كلها نحو مصدر

الصرخة ، وارهفت الآذان ، وجاء الصوت من الداخل رهيباً فرعاً :
« المركب انفتحت ... »

وتنبه وقتها عبد الباسط ... وضرب جبهته بكفه ، وارتجف قلبه .
ورأت عيناه الجسد السمين القصير ، والرأس الأشيب ذو الشعر المهدل
فوق الجبهة العريضة وهو يهرول نحو مكان العطب ... وأيقن كل شيء ...
وتلاشى الحزن من نفسه في لحظة ، واحتضنت نظراته جسد صديقه ،
وارتجفت جفون عينيه كأنها تربت على كتفه ، ثم هز رأسه في اشفاق
ونحجل كأنه يقول لصديقه : « ححك على ، أنا فهمت .. »

ساعتها ، كان مذكور ينظر إلى الجرح الطويل في جانب السفينة ،
وهو ينز مياهها كانت تتدفق بسرعة ، وفكر في أن يعود بالسفينة من حيث
أقلعت ، واضطرب قلبه ، وعوت في رأسه أفكاره السوداء ، أيعود من
حيث أتى ويترك وراءه الأعوام الثلاثين التي قضاه في الانتظار ... وليقولوا
عنه مايقولون ، وليحرموه بعد ذلك ، أو يبنذوه ، أو حتى يشنقوه ...
وانفرجت شفتاه في تردد ، وكاد أن يصدر أمره ، وكاد أن يرجع بالسفينة ،
واستدار مهرولا ، ورفع عينيه إلى أعلا ، فالتقتا بعيون الرجال الكثيرة المحيطة
به ... فتوقف ، ونكس رأسه ، وجز على أسنانه في غيظ وألم ... وقرر ألا
يعود .

وتحدث رجل ، وهمس آخر ... وصرخ ثالث وهو يغلق باباً ضخماً
كاد أن يتر ذراعه ، وهرول رجال كثيرون إلى هنا وإلى هناك ، وجاءوا
بجبال وأشربة ، ومراتب ، ومضت الدقائق ، وظلت المياه تتدفق من جانب
السفينة الممزق المفغور كضم وحش يتقيأ حمما سائله ... ومالت السفينة
إلى اليمين ، وانحسرت المياه عن أرض العنبر الصغير ، وانزلت قدم رجل ،
فسقط على الأرض ، وارتفعت موجة عاتية ، ثم هوت في صفة حادة فوق
الجرح الطويل فازداد طولاً واتساعاً ، ومالت إلى اليسار ، وتدفقت المياه

كالسيل من الفتحة الرهيبة ... وحملت معها جسد الرجل الملقى فوق الأرض ، وقذفت به إلى الحائط الصلد في وحشية ... وارتطم الجسد كله بالحائط ، ثم هوى فوق الأرض بلا حراك .

وهرول إلى الجسد رجل ورجلان ... وهرول عبد الباسط نحو صديقه ، زاحم هذا ، ودفع ذاك ، وانحشر بين الاجساد ، ثم أصبح وراءه تماماً ... وكاد أن يلتصق به ، وكاد أن يربت عليه ، ثم سمعه يصدر أمراً ... واندفع بلا وعى ينفذ أمره .

وعلت المياه داخل العنبر ؛ وغاصت فيها الاقدام ، والسيقان . وأخذت تعلو وتعلو ، وأخذ الرجال يحاولون ويحاولون ، وازت في جوف السفينة أصوات المضخات الهائلة تمتص المياه من العنبر ، وزارت الأمواج وهي تلقى إليه أفواجا أخرى من المياه وأفواجا .

ومضت الدقائق ... ودوت في السفينة صرخة أخرى . . كانت الأمواج قد مزقت مكاناً آخر ، وتدفقت جيوش المياه إلى السفينة دون عائق ، وأخذت تسبح وتتسلل إلى كل مكان فيها ، كانت تتسرب من الأبواب والفتحات والشقوق ، وأخذت تغمر كل شيء ، وأغلق الرجال أبواباً وأبواباً ، ثم أغلقوا كل الأبواب ... دون جدوى !

كانت السفينة تترنح وتتمايل في شدة ، وكانت الأمواج العاتية تزداد عتواً وتجبراً ، والرياح تهب سريعة مجنونة ، والسحب أخذت هي الأخرى تعتصر نفسها في غيظ وتلقى إلى المحيط بأفواج تلو أفواج من الأمطار وحببات البرد التي أخذت تقفز هنا وهناك وتتطاير في الجو ، وتذوب في المياه ، والسفينة وسط كل هذا تنهال عليها الضربات من كل جانب ، فتأرجح وتميل إلى الامام ، وتغوص مقدمتها في المياه ، وتنقض عليها الأمواج ، موجة تلو موجة ... وتزحف لتغطي السطح ، ثم لتضرب حوائط الحجرة الزجاجية بلا شفقة ...

كانت العاصفة مجنونة !
وكان الرجال أكثر جنوناً ...
وكانت المياه تتسرب إلى الداخل ...
وكانت السفينة تغوص في اليم ...
ومضت ساعة ... ساعة واحدة .

والعاصفة تزداد عنفاً ، والسفينة تزداد ضعفاً ، ومدكور يزداد يقظة ،
عيناه تنفذان إلى كل مكان ، وعقله يعمل ، ويداه تعملان ... يهرول إلى
داخل السفينة تارة ، ويحكم اغلاق الأبواب بنفسه ، ويدير المضخات
بأقصى سرعتها ، ويتوسل إليها في همس أن تمتص المياه وتمتصها ، ثم يهرول
إلى السطح تارة ، ويرقب العاصفة في ألم وتحذ ، ويهرول إلى كابينه القيادة
تارة ثالثة ... وينكفيء فوق البوصلة ، وتمتد ذراعاها إلى الدومان ...
والسفينة تترخ وتترخ وتتلقى الضربات .

ووهنت الأذرع المفتولة ... ودوت في الداخل صرخة ثالثة !...
واعتصر الذعر قلوب الرجال ...

كانت السفينة تغوص في اللجه العارمة بسرعة رهيبة ...
وثقبت الأذان استغاثة رجل اقتلعتة موجة وحملتة في جوفها وهي
تزغرد في وحشية ، وضاع صوت الرجل وسط الظلام والهول .

ثم دوت صرخة فزعة ... « المركب بتغرق » !! .

كانت السفينة قد مالت نحو اليمين ميلاً شديداً وقد حاذى سطحها
سطح المياه وأخذت الأمواج تغطيها ، وسرى الذعر إلى نفوس الرجال ، كل
الرجال . فحمل أحدهم طوقاً للنجاة وقفز ... وانددت في قلب مدكور
قبطان لوعة حارقة ، وصرخ فيه أن يعود ، وتلاه رجل آخر ، وصرخ
العجوز مرة ثانية ، وانددف فوج من الرجال نحو قارب النجاه ... وسرعان
ماكان القارب يسبح بهم وسط الظلام والعاصفة ... واعتصر الألم قلب

العجوز ، واندفع نحو الرجال الفرعين ، يمنع هذا ، ويتشبث بذاك ، ويقول في لهفه : « المركب مش حاتغرق .. » ، راح ، وجاء ، هدد ، وحایل ، وتوسل ، ورجل يقفز وراء آخر ، وقوارب النجاة تلقى وسط الأمواج فتحملها هذه إلى بعيد ... وهو يصرخ ، وعيناه قد جحظتا ، وذراعاها قد تشنجتا إلى الأمام ... وهو واقف عند قمة سلم صغير ، تحمل الرياح صرخاته وتبتعد بها دون أن يسمعه أحد ، وبصوته من الصراخ ، واستدار مترخاً ودلف إلى كابينه القيادة ... وكاد أن يصعق .

كانت الكابينة خالية تماماً !!..

وتنبه ... كان دوى الآلات قد توقف . وساد السفينة صمت رهيب ، وكانت الأمواج تتقاذفها وتحملها مزغردة وسط العاصفة التي راحت تزار في الخارج .. واستدار نحو الباب ، ونظر في جوف الظلام ، وبانت له أشباح الرجال وهي تذوب وتختفي ، وقفزت إلى ذهنه في لحظة ، ثلاثون عاماً طويلة ، وتداخل لحم وجهه ، واستند بظهره إلى الحائط ، وتمایل بشدة مع تمایل السفينة ، وصعدت الدموع إلى عينيه ، ثم انزلت فوق وجنتيه واختلطت برذاذ المياه ...

ولطمت موجة جبارة جانب السفينة ، فارتجت في عنف ، وسقط فوق الأرض ... وسكن لحظة ، مجرد لحظة ، هب بعدها كالجنون ، ودلف إلى كابينه القيادة ... ونظر إلى عجلة الدومان التي كانت تدور يمينا ويسره بلا رابط ، وملاً الغيظ قلبه ، وضاق عيناه ، وهجم على العجلة ، وأمسكها بكلتا يديه ، وتشبث بها في قوة وصرخ بكل قواه :

« المركب مش حاتغرق ، مش حاتغرق ... »

وامتدت يده إلى ذراع الآلات ، وحركة في عنف كأنه يستجدي الآلة الصماء أن تدور ، وترك الذراع ، وراح يذرع المكان كوحش حبيس ... كان وحيداً ، وكان يضرب جبهته بكفة ، وينظر في غيظ الى

الأمواج فى الخارج ، وجسده يهتز ويترنح كأنه يشرب ألف زجاجة ، وعوت الأفكار فى رأسه ، وعلت الضجة تطبل فى كيانه ، وعلا صوت الآلات ووصل إلى أذنيه ... وتوقف .

ظن أنه يحلم ...

وجاءه الصوت من جوف السفينة فى دوى مكتوم .

حملق فى الظلام غير مصدق .

واستمر الصوت ، واستقامت السفينة قليلا .

وصرخ ...

وهفت فى رأسه فكرة ...

كانت مجرد فكرة قفز بعدها كالمجنون نحو التليفون المعلق على

الحائط ، ورفع السماعة وألصقها بأذنه ، ثم امتدت يده تدير الذراع

القصير ... وجاءه الصوت عبر الأسلاك :

« أيوه .. مذكور قبطان ؟ »

« عبد الباسط ؟! .. عبد الباسط ؟! »

« إيوه يا قبطان .. »

وارتجفت كل خلية فى جسده ، وغامت عيناه ، وعاد يصرخ من

جديد :

« انت مجنون ، اطلع يا عبد الباسط ، اطلع ، المركب بتغرق ،

اطلع يا عبد ... »

وقاطعه الصوت هادئاً :

« المركب مش حاتغرق يا قبطان ، مش حاتغرق . أنا قفلت الأبواب

كلها ، الميه بتخش دلوقت بسيط قوى ، وشغلت طلمبات الشفط ...

وبتسحب جامد ، والماكينات شغالة ... وعندنا سولار كفايه .. و ..

« .. »

« عبد الباسط . انت زعلان منى !؟ .. »

« لأ... »

« عبد الباسط ... حقا على ، أصل أنا كنت خايف من

ال ... »

« يا قبطان عيب .. داخنا إخوان .. »

« عبد الباسط .. ان .. ت .. حا .. تفر .. ق .. عبد .. »

ال ... »

« مش عيب تبكى يا قبطان !؟ »

« عبد الباسط ، مش أنا قبطان كويس !؟ »

« إنت أحسن قبطان فى الدنيا .. »

« وحامشى المركب ؟ »

« أيوه ... »

« وحنوصل !؟ »

« لوحدينا وحياة من جمعنا سوا .. »

وارتجت السفينة ... وسقط مذكور فوق الأرض ، وكانت الابتسامة
تعلو وجهه وهو ينهض ويختطف حبلا ، ويربط جسده إلى عامود طويل ...
ويمسك بالعجلة المترنحة ، وتستقيم السفينة ، وتترقق دموع فى عينيه ، وتمتد
يده إلى ذراع الآلات ، ويطلب ، ويلبى عبد الباسط ، والعاصفة فى الخارج
قد ازداد جنونها ... وعوت الريح أكثر ، وزجرت ، وهبت الأمواج كالوحوش
تنقض على السفينة من كل جانب ... وتشبثت يداه بعجلة الدومان ...
ولطمت موجة السفينة ، ثم ارتفعت أخرى ولطمتها ، فاهترت ، وتبايلت ،
وتكاثفت السحب ، وازداد هطول الأمطار ...

ومضت الدقائق ...

وصنعت الدقائق ساعة ... وساعتين ...

ومضت الساعات ، فأشرق الصباح ...
وبزغت من الأفق سفينة ينطلق دخانها في الهواء ، وكانت تسبح فوق
السطح الهادىء ، وفوقها كان الرجال يعملون في نشاط ومرح عندما أطلق
أحدهم صيحة ...

والتفتت الرؤوس ... والتقطت صورة شبح جاثم على سطح المحيط
بلا حراك .

وأصدر القائد أوامره ، ودارت السفينة متجهة نحو الشبح ... وهبط
قارب يحمل رجالا ، وأطلقت اشارات وصيحات ، ومضت دقائق ،
ومضت ثلاثون دقيقة ، وستون ...

وامتدت يد قائد السفينة إلى ورقة والتقطت أصابعه قلماً ، ثم أخذ
يكتب ، وتسلمت الورقة يد ، وهزولت قدمان ، وامتدت اليد بالورقة
فتسلمتها يد أخرى ، وسقطت عليها عينان ، وسرعان ما أخذت أصابع اليد
تعمل على زر صغير في حركات سريعة ، ودقات متقطعة ، وسرت الدقات
في صارى السفينة الممتد نحو السماء ، وانطلقت منه في موجات سريعة ،
وسبحت الموجات تدور حول الأرض ، والتقطت آذان صغير الموجات ...
وسرعان ما ترجمتها إلى كلمات .

« عثرنا على نفرتيتى . مصابه بعطب شديد . الأمل كبير في
سحبها إلى ميناء قريب . القائد كان مربوطاً إلى عامود إلى عجلة الدومان .
مصاب بشظية من الزجاج إخرقت القلب تماماً . يبدو أنها من زجاج
كائنة القيادة المحطم بفعل العاصفة . على السطح عثرنا على وقاد في حالة
انهاك شديد . يبدو أنه كان في حجرة الآلات . جارى إسعافه . يهذى
باسم مذكور قبطان . وضع تحت العلاج مباشرة . الآلات متوقفه منذ فترة
وجيزة . السفينة خالية تماماً من الرجال . أدينا التحية لجثة القائد . محفوظة
بثلاجة السفينة . نرجو الإفادة » .

العروسة

عشرة أعوام كاملة ... وهو يشترك في السباق ، ويخسر .
عشرة أعوام منذ أن أصبح له قارب ، وهو يبذل كل جهده وطاقته
لكى يكسب ولو مرة ، مرة واحدة ، دون جدوى .

كانت الأيام دائما تقترب من يوم السباق ، وكان العام يمر كالريح ،
والرجال يستعدون ، وهو يستعد معهم ، يخرج القارب إلى البر ... ويظل
شهرًا دون عمل ، ولم يكن يهتم ، لم يكن يعنيه أن يأكل أو يشرب ، كل
الذي كان يشغل باله هو أن يستعد ، كان يعرض قاربه الكبير للشمس
حتى يجف ... ويظليه حتى يخف ، وينظفه حتى يصبح كالعروسة ...
وكان اسم القارب العروسة .

ويأتي يوم السباق ... وتزدحم الميناء بالخلق الكثير ، ويقف الرجال
مهللين ومغنين ... ويمتلئ سطح المياه بالقوارب الصغيرة ... ويمتلئ الجو
بالأغاني وصوت الدفوف والمزمار ... ويمتلئ هو بالقلق والأمل ، وتنطلق
الإشارة ، وينطلق القارب وينزلق فوق المياه بشراعه ... محروس يجلس
بجانبه ، يشد الحبال ، ويرخي قلعا ليفرد آخر ... والريح تملأ الشراع ،
والمياه تجري من تحته لها أنغام كشقشقة العصافير ، وقلبه يخفق ، والأصوات
تصل إليه من بعيد ، أصوات الأصدقاء ، وأصوات الشامتين ، وتعلو
الصرخات من كل جانب ، وينقلب سطح المياه في الميناء إلى زفة ، وتتطلع

كل العيون ، والقوارب تجرى من حوله ومن أمامه ، وتنساب إلى باب
البوغاز ، ثم تتثنى إلى الفئار ، ومن الفئار تنحرف نحو الرصيف الكبير
الملىء بالناس ...

ولكنهم كانوا دائما يصلون قبله ..
في العام الأول قال « معلىش » ... وفي العام الثاني قال « برضه
معلىش ، أنا لسة صغير » ... وفي العام الثالث لم ينم ليلة السباق ...
ولكنه قال أيضا « معلىش نأخذها السنة الجاية » ... وجاء العام الخامس
فبكى من الغيظ . ثم ، مرت الأعوات العشرة وأصبح عمرة ثلاثين عاما
كاملة ... ولم يكسب فيها مرة !!

وهذا العام قرر ألا يدخل السباق .

بل أصبح لا يطيق ذلك اليوم ... ويفر من كل جلسة تأتي فيها
سبيرته . ومرت الأيام ... وطوت في داخلها عام .
وقرر سيد الحموى ألا يدخل السباق هذا العام ... فهو لن يجنى
منه سوى الوكسة والعار . واسمه سيكتب دائما في الذيل .

سنوات عمره كلها قضاها في البحر ... يداه منذ الصغر لاتعرفان
الطريق إلا للمجاديف وحبال الشراع ، والدفة في يده أليفه ، لينة طيبة ...
والقارب كله ينصاع لقيادته كما تنصاع له أصابعه .

ورغم هذا فهو لا يكسب !

وسيد الحموى قد قرر ألا يدخل السباق بعد ذلك .
قال له محروس : « عيب ياسيد ، لازم تخش ، ويمكن .. يمكن
تكسب »

ورد عليه في ضيق : « مش حانخش السبق ، خلاص يا محروس »

خلاص ... قرر سيد ألا يدخل السباق ، ولن يدخل سيد

السباق .

وبقى من الزمن شهر .

وأخرج الرجال قواربهم إلى البر ، وبقي قاربه في الماء .

وامتلأت ساحة الخليج بأرضها اللينة المنخفضة بالقوارب ...

قوارب كبيرة تستعد لليوم الموعود ، وقوارب صغيرة تستعد للزفة والتشجيع ،

والرجال يكحتون ، وينكتون ، والعمال يعملون ويصلحون ولا يهدأون . كان

الرجال كثيرين كالقروء ، يتسلقون ويهبطون ويقفزون ويعملون ويأكلون

ويشربون الشاي ويدخنون السجائر والجوزة ... الرايات الملونه غسلت

وعلقت ترفرف في الهواء ، والأشعة البيضاء بانت مشرعة على الأرض كأنها

كسوة العيد ... والساحة أصبحت كخلية النحل ، والرصيف قد خلا

من القوارب ، إلا من قلة ضئيلة هزيلة من بينها قاربه ، بانت وقتها غلبانه

منكسرة لا حول لها ولا طول ..

كان يمر على الرجال في الصباح فيجدهم منهمكين ... محمود

ينظف قاع قاربه ، وزينهم يحكت الجوانب ، وعمر يحرق الطلاء القديم ،

والحاج حسن حوله عشرة صبيان تحت امرته ، والألوان الزاهية تبهر العين

وتفرح القلب ، ودبت في المكان ضحكات العيد ، وقاربه في المياه ...

لاطلاء أحرق ، ولاقاع كحت ، ولارايات غسلت ، ولاضحكة رفت على

شفتيه .

وحدثته حسنية ذات مساء ، فكاد أن يضربها ، وكادت أن تترك له

البيت غاضبة ... وقالت له في ثورتها وهي تصرخ في وجهه :

« أنت خايف ياسيد !؟ »

وصمت ليلتها سيد ... ولم يرد عليها سيد ... ودفن رأسه في

الوسادة وهو يقول لنفسه اللهم اخزيك يا شيطان ... ولكنه لم يخز

الشیطان ، بل هب واقفا كالنمر الهائج وصرخ فيها ، ورفع يده عليها ثم عاد وتكوم فى الفراش ، ثم عاد ونهض ودخن ، ثم قام وترك لها البيت وخرج إلى الطريق .

الدنيا كانت لیل ... والفوانیس معلقة هناك فى الساحة الواسعة ، والرجال لا يزالون يعملون ويضحكون ويستعدون للسباق ... وهو قد صمم ألا يدخل السباق ... قاره قائم وحده كالخوت ، لأنیس ولاسمیر . سوى قوارب صغيرة كالأسماك الوليدة ، يتلاعب شراع قاره المطوى بينها فى الظلام كعملاق مسلول .

ووقف سيد امامه .

الدنيا ظلام فى ظلام ، وكل شىء راكد ، كل شىء هامد ، لاحياة ولا حركة ، ولا طلاء ولا رايات ، واقترب من القارب ، ومد اليه يده ، وريت على جانبه ، ثم مد قدمه وقفز إلى داخله ، وجلس فى الليل يدخن ، ينظر إلى النجوم المنثورة فى السماء ، ويصغى إلى الأصوات الآتية من هناك ، ويضرب قلبه جنبات صدره ، وتفرق عينيه فى ظلام الماء الساكن تحته ، وتمتد يده الى الماء فتعبث فيها أصابعه ، ويتمنى أن يقفز اليه ، ويدثر نفسه فى طياته ، ويفوص ويفوص ... ويعيش وحده فى القاع ، وهو قد يفعل ذلك ... لولا حسنية .

ولا يذكر سيد بعد ذلك شيئا ... كل الذى يذكره أنه قال للقارب :

« ليه مش عاوز تنصرنى ؟ »

ولم يرد عليه القارب !! .

وفى الفجر مضى الى البيت .

فى الصباح قالت له حسنية : « انت لسه زعلان ياسيد ؟ » .

وقال لها : « لأ مش زعلان » . وقالت حسنية : « ياسيد دنامراتك ،

انت نسيت ياسيد أنى نبقى مين ؟! » . وقال بجفاء : « اصطبحتى على

الصبح ياولية « . وقالت حسنية : « العروسة لسه مانسيتش » . وقال سيد : « يافتاح ياعليم » . وألحت حسنية : « مش أنا برضه حسنية ؟ » . وقال سيد : « وأنا قلت حاجة ؟ » . وقالت حسنية : « مانا عاوزاك تقول ياسيد » . فتسائل : « بس أقول أيه ؟ » . وقالت حسنية : « وحياء غلاوتى تقول ، إيه اللي مزعلك ؟ » . وقال سيد بلا وعى : « أنا ... أنا خايف يا حسنية » .

* * *

ووجم سيد ... وابتسمت حسنية .
« خايف من إيه ياسيد ؟ » .
ولم يرد سيد ... ترك البيت وجرى .
ووجد نفسه فى وسطهم من جديد ... وقال زينهم : « نويت على إيه ياسيد ؟ » ... وقال سيد : « مش داخل السبق » ... وصمت زينهم وتركه ، وجلس سيد ينظر إلى القارب .

جاء زبون ، وقال سيد : « أنا تعبان » . وجاء آخر ، وقال سيد : « مانيش طالع » ... ومضى النهار ، وسيد ينظر إلى القارب .

يوم وراء يوم ، والساحة لاتنام طيلة الليل ، والرجال يستعدون للعيد ، وحسن ومحمود وزينهم يتحدثون سيد : « عيب ياسيد ، محدش ضامن » ... ولكن سيد لن يدخل السباق ، ولن يكتب اسمه بعد اليوم فى الدليل ... ويكفيه من العمر عشر سنوات .

جلس فى المقهى ذات يوم ... لايدرى ما الذى حدث سوى أن الحاج حسن قال : « السابق للجدةعان » .. وقال سيد : « يعنى هو اللي ماينخشش السابق مايقاش جدع ؟ » .

وقهقه الرجال ... وقال الحاج متهمكما : « عيب ياسيد .. حد

داس لك على طرف ؟ » .

عشرة أعوام وهو يدخل السباق ... عشرة أعوام وهو ينتظر اليوم
ويستعد ... يكحت ويطل ويعلق الرايات ويبحر القارب ويقسم أن يقيم ليلة
لله ... عشرة أعوام والعروسة تنطلق وسط القوارب كالعروسة ، مزينة
لامعة ، تهادى في البداية وتمخر المياه ، وتسبق ، ثم تثقل وتراجع ، ويكتب
اسمه دائما في الذيل ! .

لا ... لن يكتب اسمك ياسيد بعد اليوم في الذيل .
كفكك ياسيد وكسة ... وكفكك ذلا ، وكفكك ماقلوه في كل عام ...
وكفكك أنك لم تكسب ولامرة ... فما الذى تجنيه سوى الغم والكمد ،
وكتابة اسمك دائما في الذيل .

وليلة السبق لم ينم سيد ... حاول أن ينام ، ولكنه لم ينم ، حاول
أن يجلس مع الرجال ، ولكنه لم يستطع ، كانوا هايصين ، الحاج يجلس
وسط شلة ، وعبداه وسط شلة ، ورومه وحسين وعلى ومحروس ... والدنيا
كلها ، والقوارب نزلت إلى المياه ، وراحت فوقها وجاءت ، وتهادت
وتبخترت ، وقاربه ملطوع في مكانه لم يتحرك .

وطلع النهار .

ووجد سيد نفسه في وسطهم .

رصيف الميناء كان يشغى بالخلق ، العيال والبنات ، خواجات
وأولاد عرب ، وناس ، ناس كثيرون كأن السماء أمطرتهم فأغرقت بهم
الدنيا ... وهو في وسطهم حائر ، عيناه زائغتان ، وقلبه يتهاوى بين
ضلوعه ، وأنفاسه ... أنفاسه باردة لاهثة ، وحسنية بجانبه ، وزغدانه
سيده ، وعطيات ، وكلهن كلهن تجمعن ووقفن يرقبن مع الخلق الكثير ،
قارب لايزال يتطوح صاربه كالمارد المسلول ... وقالت حسنيه :

« مالك ياسيد ؟ » .

« ولا حاجة يا حسنية »

« سيد ؟ .. »

ولم يرد سيد ... كانت عيناه معلقتان بالقارب الذى كان يتمايل
وسط القوارب المزوقة كالأجرب ، لاهياة فيه ولابنادير ، ولا طلاء جديد ولا
أعلام ، وقالت حسنية :

« سيد ؟ »

ورد سيد ... وقالت حسنية :

« انت نسيت ياسيد ؟ »

لا ... لم ينس سيد ... لم ينس أيام أن كان يصحبها في
العروسة ، وكانت حسنية وقتها عروسة ، يطوفان المياه ، يشرق ويغرب ،
يتهادى ويتمايل ، ويغرقان في الضحك ، ويربت على جوانب العروسة في
فرحة وهو يقول : « يالله يا عروسة .. اسبقى الریح يا عروسة »

لا ... لم ينس سيد ... لم ينس وغلاوة حسنية عنده ، لم ينس أبداً
أنه قال لها وهو يضحك : « وأيه يعنى لما أخسر ، حافظل كل سنة
وراهم وراهم لحد ما اكسب يا حسنية »

وجاءه الصوت من بعيد :

« انت نسيت ياسيد ؟ »

« لا ... مانسيتش يا حسنية »

الساعات تجرى ، وسأل سيد أحد الأفندية : « ساعتك كام
يا فندى ؟ » ... وقال الأفندى : « أربعة إلا ربع » .

بقت ربع ساعة ياسيد ، وبعدها تنطلق الطلقة ، وتفر القوارب كلها
إلى عرض المياه ، وقاربك ملطوع ياسيد ، وأنت واقف هنا تتفرج ،
كالأغراب ، كأنك لست ابن كار ، وكأنك لم تركب في حياتك قاربا .

هل هذا كلام رجال ياسيد ؟ ... له حق الحاج عندما ضحك
عليك وقال السباق للجدعان ، أليس السباق حقاً للجدعان ، وألست
أنت أحد الجدعان وأولاد الكار ياسيد ؟ ... إياك أن تترك السباق
ياسيد ... فجأة صرخ سيد :

« حسنية .. »

ونظرت اليه حسنية ... عيناها حلوتان تجذبان القلب من موضعه ،
كانت في صمتها تقول دائما « ياغنين حسنية » .
« البنادير ، البنادير يا حسنية ... تقدرى تجيبهم من البيت قبل
ال ... »

« البنادير في القارب ياسيد .. ! »

« ايه ؟ ... مغسولين ؟ »

« ومكويين وحياء غلاوتك .. »

« والغيار ؟ »

« معاهم ياسيد .. ربنا ينصرك ياسيد » .

وانطلق سيد كالمجنون وسط الزحام يدفع الناس ، ويلهث من
الاضطراب ، وينادى بأعلى صوته : « يا محروس ...
يا محروس ... يا محرووس »

وانطلق صوت حسنية وسط الضجيج والغناء كالزغاريد تنادى هي
الأخرى على محروس .

وقفز سيد إلى القارب كالجن المصور ... وانقضت يدها لتفتحا باب
الدولاب الكبير في قاع القارب ، وجذبت أصابعه اللفة الضخمة ، وأخذ
يعمل في سرعة ولهفة وهو يصرخ على محروس :

« يا محروس .. يا محروس .. حانطلع ، حانخش السبق ، وحياء
الكرسي لانخش السبق » .

كان صوته يخفت ويخفت حتى أصبح همساً ، وكان يقفز هنا وهناك ، ويجذب الحبال ، ويعلق الرايات ، ويروح وينجىء في سرعة ، ولايكف عن الحديث مع محروس الذى لم يكن موجوداً ... « يا محروس ، لازم نخش السبق ، لازم نمشى مع الجدعان ، نخسر نخسر مش مهم ، المهم يكون راجل مع الرجاله ، أنا كان جرى لى إيه ياواد ، العروسة لازم تجرى مع القوارب ، ولازم تميل وتتمخطر ، ونزفوها يا محروس ... يا محروس .. » .

وتلفت سيد ولم يجد محروس ، وانطلق ينادى من جديد ... ولبى محروس النداء من بعيد :

« سيد يا حموى .. سااااايد .. سا . ا. ا. ايد » .

وتمايل القارب عندما قفز إليه ، وانضمت يدها الى يديه ، وسرعان ما أخذتا يعملان وهما يتكلمان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر :

« كده يا أبو السيد .. فى آخر دقيقة » .

« ايوه .. »

« نويت ؟ »

« ايوه .. »

« جدع والنبي .. »

« ايوه .. »

« رفعت القلع الكبير ؟ »

« ايوه . »

« وحانطلع السبق ؟ »

« ايوه . »

« يا حلاوة النبي .. »

« أيوه .. »

« وإذا خسرت ؟ »

« أيوه .. »

« حاتخش السنة الجاية ؟ »

وتوقف سيد عن العمل ، ورفع عينيه لبرهة إلى محروس الذى كان يعمل ويعمل دون أن ينظر إليه ، ورفت ابتسامة على وجه سيد ، وقال وهو يعود إلى العمل :

« أيوه .. »

ومضت دقيقة ... واثنان ... وثلاثة ... وأربعة ... وبقت خمس دقائق .

وانطلقت العروسة نحو الصف الطويل من القوارب الواقفة فى الانتظار ... وسمع سيد من بعيد صوتاً يقول :

« سيد الحموى داخل السبق يا جدعان .. »

« زمر يا جدع .. سلام مربع للعروسة .. »

وانبعث اللحن يزغرد فى الهواء ، واستدار سيد نحو الرصيف فى لفتة سريعة ... والتقطت عيناه صورة الناس والزحام ... ورأى حسنية تقف وسط العازفين وعلى وجهها ابتسامة سعيدة ... وانساب القارب فوق السطح الأملس ، وتمايل ، ودار ، وتطايرت من حوله القوارب الصغيرة المزينة المليئة بالطبل والزمر والضحكات والتهليل ... وأخذت تفر من أمامه مذعورة كالأسمك الصغيرة أمام حوت كبير ... وشقت العروسة طريقها فى سرعة ، وامتلاً شراعها الهائل بالريخ ... ومالت على جانبها متبغدة متراقصة ... وكان الصف الطويل من القوارب يقترب ... وكلها مستعدة ، المعلمين الكبار وراء الدفة ، والصبيان على الحبال والأشعة ، والعروسة تطير وتنزلق وتسبح ، والأعلام الصغيرة تصفق فوق حبالها ... وما كاد سيد أن يصل إلى صف القوارب ويحاذيه ، حتى دوت طلقة البداية ... وانطلقت القوارب ، وعلت الضجة ، والصياح ، والهتاف ، وصاح سيد وهو جالس

نحوار الدفة نصف جلسة ... صاح بكل قواه :
« يا لله يا عروسه .. اسبقي الرنج يا عروسه . »

١٩٥٧

رحلة

كان اليوم من أوله قائماً ، لارزق فيه ولاقرش . السحب السوداء قد تجمعت وصنعت ستاراً كثيفاً ظلل الدنيا بلون داكن كئيب ، وبين الحين والآخر ، كانت ذرات المظر تتساقط فتغسل حجارة الرصيف السوداء العريضة . وتهب الرياح فيترخ كل شيء ويهتز . وسطح المياه يتلاعب بالقوارب الخالية المتراسة في طابور هامد لآحياة فيه ، تتمايل صواربها العالية في الهواء ، وتحتك جوانبها في أزيز متقطع كأنه الأنين .

وبدا الرصيف نخالياً من الرجال تماماً . وثمة أصوات تنبعث من داخل المقهى القائم في ركن المكان ... حيث تناثر الرجال حول الموائد الخشبية الحائلة اللون ، وأخذوا يثرثرون بكلمات ممطوطة متكاسلة ، تخرج من أفواههم لتذوب وسط الكسل الدافئ الذي غلف كل شيء .

ثمة رجلان هنا ، وثلاثة هناك ، وجماعة قد التفت حول أكواب الشاي والقرفة الساخنة ، والدخان يتصاعد من الأنوف والأفواه وأطراف السجائر وأحجار الجوزة ... والكلمات تتناثر ، وينتقل الحديث من فم إلى إذن ، ومن منضدة إلى أخرى ... وزعق رجل ، ورد عليه آخر ، وفتح الصامتون أفواههم ، وحملق الذي كان النوم قد أغلق جفنيه ، وانتفض الكسل ثم ذاب تماماً وسط ضجة النقاش الذي احتدم فجأة فبعث الحياة في المكان . وبدا الأمر وكان هناك خيطاً يلضم الكلمات

كلمة وراء كلمة ، وإذا الجميع يتحدثون فيما جرى ذلك الصباح .
والحقيقة — رغم احتدام النقاش وانقسام الرجال إلى معسكرين —
أن أحداً منهم لم يكن يدري ما الذى حدث على وجه الدقة ، كل ما يعرفونه
ان عم عطية تائر مغتاض ... وأن رومه قال له :

« أنت متقدرش تجدف لحد رصيف النورس ! »

وسألوا سلامه الجرسون الذى حضر الواقعة ، وقال سلامة أن الأمر
بدأ مزاحاً فى مزاح ... ثم انقلب إلى جد ولايدرى كيف ، وأن عم عطية
كان يشرب شاي الاضطباحة مع رومه فى أمان الله ، وفجأة ، رآه تائراً
هائجاً يسب آباء رومه وأجداده والذين خلفوه .

وبدا الأمر للرجال ماسخاً لاطعم له ... ان رومه يعرفه انجميع
ويعرفون قلة أدبه ولسانه الطويل . وعم عطية رجل عجوز تجاوز السبعين ،
خلقه ضيق ، ولايحتمل أن يعارضه أحد فى رأى ، أو يقول له « بم ... »

قال البعض أن رومه عليه الحق ، وأنه غلطان . وقال البعض الآخر
فى استهانه : « وفيها إيه يعنى !؟ » ... وانبعث صوت عم عطية — وكان
حاضراً — من ركن المقهى يسب الجميع ويلعن للجميع آباءهم . وبدا
الغضب واضحاً على وجه العجوز ، بدا فى عينيه الحماوين وعروق رقبة
البارزة ، وارتعاشه كفه التى كان يطوحها فى وجوههم منذراً محذراً ، ثم يدق
بها فوق ركبته وكأن شياطين الأرض قد ركبته وقد يقول :

« آنى منقدرش نروح للنورس تجديف !؟ .. آنى ياولاد

الكلاب .. آنى ؟ »

ثم يصمت ملياً ، ويعود ليضرب كفاً بكف فى قوة كأنه يصفع بها
أحداً ... ثم يستطرد فى حرقة :

« والله زمن أغبر ياقواربية ... معادش فى البلد رجاله ! »

وقال رجل بصوت هادىء يحاول أن يهدىء به ثورة عم عطية :
« معلهش يابا عطيه .. الطيب أحسن .. »
ولكن رجلا آخر أبى إلا يتفرج على ثورة عم عطية ، فغمز جاره
بعينه ولكزه بكوعه وصباح وهو يدارى وجهه :

« هو يعنى رومه كفر !؟ .. وألا يعنى رومه كفر !؟ »
وازدادت ثورة عم عطية ... وهم العجوز واقفاً وأخذ يصيح فى
الرجال فى هستيرية أذهلتهم . ووقتها فقط ، أحسوا انه غضبان حقاً ، وأن
الأمر بالنسبة إليه لم يكن هيناً . فنهض الرئيس زيد من مكانه متجهاً
إليه ... وريت على كتفه فى حنان وقال :
« ححك على يابا عطية .. أمسحها فى أنا » .
وجلس عم عطية فوق المقعد ، وزفر فى غيظ . وعاد الرئيس زيد
يسأله فى حنان :

« نجيب لك واحد شاي يامعلمى ؟ »
وقال عم عطية فى صوت مختنق :
« بعد العمر ده كله يازيد ؟ .. آنى يازيد ، مش عيب برضه ...
آنى منقدرش نروح النورس تجديف ؟ .. بعد ال...ع... »

واختنق صوت العجوز ، وارتعشت كلماته فوق لسانه ... وحط
السكون على المكان فابتلعه ، حتى كركرة الجوزه كفت ، واستدارت كل
الرؤوس نحو الجسد الذى قبع فى ركن المقهى وقد دفن رأسه فى كفيه ...
وأخيراً جاء صوت الرئيس زيد :

« آبا عطية .. وحد الله امال ، رومه زى ابنك برضه ! »
وسرعان ما ارتفعت الأصوات وكأنها تطارد الصمت بلا هواده ...
وتحمس رجل وسب رومه ولعنه ، ونهض آخر وقبل رأس عم عطية ، ودلف
رومه من باب المقهى وهو يدثر رأسه بشال صوفى ، والتفتت إليه كل

الوجوه ، وغمزت له أكثر من عين ، وسبه رجل عجوز ، وتشابكت الكلمات ، وساد الهرج ... وعم عطية صامت لا يتحدث . ترتجف السيجارة التي قدمها له أحدهم بين أصبعيه ... وتتسرب عيناه خلال الزجاج إلى حيث الرصيف الخالي الممتد ، والقوارب المترنحة الفارغة ، والمياه المتلاعبة ، وتدور عيناه وتدلفان إلى الداخل ، وتسقطان فوق وجوه الرجال ... وكل شيء يبدو باهتاً لا لون له . وفي عقله دوامات تدور وتدور . وأنفاسه تتردد في صعوبة ، وثقل مخيف يجثم فوق صدره ... وجاء رومه وقبل رأسه واحتضنه وقال له : « حقلك على » ... وكانت أفكاره في تلك اللحظة قد وجدت بؤرتها فتركزت حولها ، وانبتق من عينيه بريق خاطف ، وتصلبت ملامحه وهو يردد :

« معلى .. معلى .. ربك يسترها! »

ونفض على الفور من مكانه ... وتابع الرجال جسده النحيل وهو يغادر المقهى إلى الرصيف ، وعبثت الرياح بملابسه ، وكادت تتلاعب بجسده ... كانت كتل السحاب قد تمزقت وتفتتت فوق صفحة السماء . وأطلت الشمس بقرصها الدافئ وألقت إلى الأرض بشعاع واهن . وسار عم عطية إلى حيث تكوم بجوار الحائط ، واعتمد رأسه بين كفيه . وأخذت عيناه تحملقان في سطح المياه المتلاعب ، ثم ترتفعان إلى حيث كان يبدو له ظل رصيف النورس وقد نهض وسط المياه كعملاق أسود ضخيم ... وعربدت الخواطر في رأسه ، ثم انزاحت وتركت وراءها خاطراً عريداً ظل يكبر ويضغط على رأس العجوز حتى كاد ينفجر .

ساعة وراء ساعة ، وعم عطية لا يرح مكانه ، تفر منه عيناه رغماً عنه إلى ظل الرصيف ، والرياح تشتد ويعلو صفيها وزئيرها ... والجو أصبح رهيباً ، والأمواج تكاثرت وتلاحقت قممها الحادة فبدت كأسنان وحش أسطوري .

وكان عم عطية يتعذب .

وكان أكثر ما يعذبه هو ذلك الخوف الذى راح يتسرب إلى قلبه كلما خطر له ذلك الخاطر ، وأخذت عيناه الضيقتان الخبيرتان تجوبان السماء وتنزلقان الى المياه وترقبان الأمواج . وما أن يتملك منه خاطره ، ويهم من مكانه حتى يشعر وكأن قيلاً يشده الى الأرض .

ويلح عليه الخوف عريداً قاهراً ، حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحاً . وحاول أن يقنع نفسه بأن رومه قال له « حقا على » . وحاول أيضاً أن يقنع نفسه بأن الرجال يعرفونه ويعرفون مقدرته ومكانته ... ولكن الخاطر الرهيب كان دائماً أقوى منه . كان يتمطى ويكبر ويسيطر على مشاعره وينهشه بلا رحمة . وكان الأمر يبدو مستحيلاً فى جو كهذا .

وعندما مالت الشمس نحو الغرب .. وأخذ ضوء النهار يشحب ... كانت رأس عم عطية تغلى كبركان . وكان يدخن ويزجر ويزفر ، ويتحسس ذراعيه بكفيه ، ويزم شفثيه فى قوة ... ثم انفجر الخاطر ... وبرقت عيناه . وزفر كأن حملاً ثقيلًا قد انزاح من فوق صدره . وتطلع إلى صف القوارب أمامه .

ونفض .

وخطا إلى الأمام خطوة .

وارتعشت ساقاه . وأحسن بقدميه ضخمتين كبيرتين وقد سرى فيهما التتميل . ثم أخذت الحرارة تدب فى أوصاله . وخطا خطوة أخرى . وأخذت قدماه تضربان الأرض ، خطوة وراء خطوة ، والمقهي يتعد من ورائه ، والقوارب تفر من جانبه ، ثم توقف أمام قاربه .

وعندما انحنى ليفك الحبل الذى يربط قاربه بالرصيف ، عوت الريح ودفعته بشدة ، فمال جسده وترنح ، وتمائل القارب وترنح . ومد العجوز

قدميه إليه ، ثم قفز .

وامتدت يده الى المجدافين الراقدين في قاع القارب ، وأخذتا تعملان في سرعة ... وماهى الا برهة وجيزة ، حتى كان القارب ينزلق على سطح المياه الواسع الممتد الى بعيد .

وبدأت الرحلة .

دق قلبه بعنف ، وتدفقت الدماء في عروقه ، وانبهرت أنفاسه ، وسهمت عيناه برهة ، وتمائل قارب كبير كان يمر بجانبه ، وتطوح الصارى فرسمت نهايته المدية خطوطاً متشابكة في الفضاء ، وتقلص قلبه فترة ، ثم نبض نبضة قوية ، واستوت يده فانفرد المجدافان على جانبي القارب كجناحين عارين بلا ريش ، ودارا في الهواء بنظام تحكمت فيه كفاه الخبيرتان ، ثم هبطا في وقت واحد نحو سطح المياه وغاصا فيه . ثم ارتفعا من جديد وقطرات المياه تنزلق منهما في نغمة متألفة منسقة دفعت بالدفء إلى قلبه ... وأخذ جسده يميل الى الخلف فيندفع القارب ثم يعتدل ويدور المجدافان في الهواء ، ويميل جسده مرة أخرى ، ويضرب المجدافان سطح المياه ... والقارب ينزلق في يسر ، وذراعاه قد سرت فيهما رعدات خفيفة لذيدة ... وانتشت نفسه وأخذ يعمل بكل قواه .

كان الصمت يسود كل شيء ، والقارب أخذ يترنخ في سيره فوق الأمواج الصغيرة وقد بدت ككثبان متتالية لانهاية لها ، وعندما استدار ليواجه صفحة الميناء المتسعة المترامية ، كانت الرياح تندفع في قوة قاهرة ، وقد بدا له صف القوارب في ضوء الأصيل كأشباح تتلاعب في الفضاء ، والضوء قد انبعث من المقهى شاحباً ، وقرص الشمس يغوص في الأفق ... والقارب ينزلق فوق المياه كأنه يعرف الطريق .

كان الرجال في ذلك الوقت غارقين في ثرثرتهم وكسلهم ... وأوراق اللعب تصفع أسطح المناضد صفعات متتالية حادة ، والضحكات تختلط بالكلمات ، ورجال أغمضت عيونهم وراحوا يغطون في نوم قلق ، وآخرون قد تخلقوا حول إحدى المناضد وأخذوا يثرثرون ، وصوت الراديو ينطلق فيحدث مع الأصوات نشازاً هادراً ، وضوء المصباح بدا خافتاً ضعيفاً وسط الدخان الكثيف السابح في جو المكان .

وفجأة ... مزقت السكون صرخة حادة .

وتوقف كل شيء تماماً . الأيدي والألسنة والعيون والرؤوس وأصوات الجوزه . وصمت الراديو دون أن يمسه أحد . ثم اندفع رجل من الباب وقد تهذلت لاسته وبان على وجهه الذعر :

« عم عطية .. عم عطية ... »

تعلقت العيون بوجه الرجل المدعور ، وأصبعه التي كانت تشير عبر الزجاج إلى حيث كان القارب يترخ ويتأيل والرياح تتلاعب به . وسرعان ما اندفع الرجال إلى الرصيف تلفح وجوههم برودة الهواء الرطب اللزج ، وانطلقت أقدامهم تهب المكان في سرعة ، وعيونهم تمسح الصفحة الهادرة اللامعة تحت الضوء الأحمر الذي تركته الشمس وراءها بعد أن غاصت تماماً ... وجاء صوت خفيض من وسط الرجال :

« الریح جامد .. مش حايوصل ! »

وصرخ آخر بكل قواه ينادى عم عطية ، وتكلم ثالث ، وصرخ رابع ، وامتلاً الفضاء بالصيحات التي كانت تتمدد وتمدد كأنها حبال تسبح في الهواء ثم تتهاوى حول القارب الذي كان يبتعد في ببطء حاملاً عم عطية ...

كانت أنفاس العجوز قد بدأت تتردد بصعوبة ، وأحس بقطرات عرق تنشق فوق جبهته ، وعيناه كانتا تدوران في كل مكان ، والمجدافان

السكون تقطعه أصوات المجدافين وحفيف الرياح ، والنداءات قد كفت ،
وتباعدت . وذراعاها تخوران ، وثمة تقلصات حادة يحس بها تمزق صدره ،
ويسعل ، فتكتم شفتاه سعلته لترتد إلى صدره كسكين حامية ، والرصيف
يقرب ، ويقرب ، وبانت حجارتها العالية العريضة الصفراء ، وظهر له الفئار
الصغير يقبع كالطفل فوق مقدمته ... ورأت عيناه كل شيء ...
الأعشاب الخصرء اللزجة وهي تتموج فوق سطح المياه ملتصقة بحجارة
الرصيف . والريح تدفع بالقارب ، وذراعاها تعملان ، والأصوات تقترب من
جديد ... وضربات المجدافين الكثيرة تمزق السكون وتبدده ... ونظر ، فإذا
القوارب متناثرة كثيرة كثيرة ، ونظر وراءه فإذا حجارة الرصيف الشائخة
تقرب منه عالية كبيرة صلدة ، وذراعاها أصبحتا لاتقويان على العمل ،
وجاءت إليه الأصوات متوسلة ... وغازه ذلك . فترك المجدافين ونهض في
مكانه ، وترخ جسده وسط القارب ، وصرخ بكل قواه :
« آنى منقدرش ياولاد الكلب ... الرصيف أهه .. حانوصل ..
حا .. نو .. صل .. »

واختنقت الكلمات في حلقه ، وقفزت إلى عينيه الدموع ، وعاد
إلى مكانه في عصبية . وشهق في ألم وهو يكتم دمعة ، وامتدت يده
مرتجفتين إلى المجدافين وأخذ يعمل بكل قواه ...

كان الهواء يندفع من جانب الرصيف بسرعة وقوة ، والقارب يتمايل
مع مد المياه وجذرها بالقرب من حافة الرصيف صانعة تلك الأمواج
الواسعة الكبيرة ... وانتشر الألم في ذراعي العجوز رهيبا . وامتد منها إلى
كتفيه ، وأحس بكفيه تتلصقان ولاتقويان على العمل . ونجارت قواه تماما .

كانت المسافة قريبة وصدره تمزقة سعلات سريعة جافة ، وأحس
كأن قبضة هائلة تنغرس أظافرها في صدره وتنهش قلبه بلا رحمة . وتردد
صوته ضعيفا يهمس في رجاء : « يامعين ! » . ونظر وراءه ، ثمة خطوة ،

خطوة واحدة ... وانغمس طرفا المجذافين في الماء ، ثم انزلقا في وهن وتعب
وظفيا على السطح ، وأحس الرجل أن جسده كله يخور ، وشعر برغبة في
أن ينام . كان القارب يترنح بلا حول ولاطول . والرصيف قريب قريب ...
والأصوات تقترب . وهى خطوة . واندفعت الدموع إلى عينيه ، وانزلقت
على صفحة وجهه واختلطت برذاذ المياه فجز على أسنانه في غيظ ، وبدأ
صدره يجيش ، ويشهق ، ويهوى بالمجدافين الى المياه ، ويطلق من أعماقه
صرخة ... « يارب ... »

وهوت من عينيه دموعين ، ثم دمعة ، وشدد على المجذافين قبضتيه
الواهنتين ... وتمتم في حرقة :

« لا .. لاز .. لازم .. لا .. »

وتحرك القارب في بطاء شديد يقاوم دفع الرياح ، وانزلق فوق
السطح ، وانحسرت عن الرصيف موجة أخرى فحملته ، وسبح القارب
معها في يسر ... وما أن ارتطمت مقدمته بالرصيف في دقة مكتومة ،
حتى دق قلبه دقة عنيفة . واندفع الدمع يفرق عينيه ، وتحولت أنفاسه إلى
شهقات باكية ، وترنح جسده وهو يستدير ويخطو داخل القارب نحو
الرصيف .

ومن خلال غلالة الدمع التي غطت عينيه ، تفرقت الحجارة
الداكنة الملساء ، وامتدت أصابعه المرتجفة تتحسسها ، وترنح القارب ،
وتسرب شبح ابتسامة إلى الوجه المغضن ، وعلت الأصوات وهى تقترب
وتقترب ، وما أن تثبتت كفاه بالحجارة ... حتى انهمرت الدموع تفرق
وجهه ... ودفن رأسه بين ذراعيه ، وأجهش بالبكاء كطفل صغير .

. ١٩٥٦

جابر الصارى

كان نحيفا كصارى السفينة تماما ، يخيل لمن يراه وهو يترنخ داخل بذلته الواسعة كأنه عدة عصى ركبت وكسيت بطبقة رقيقة من الجلد ، ثم أطلق على هذا الهيكل اسم جابر ، وأضاف اليه الرجال لقب « الصارى » ... والرجل على سطح السفينة ثروة ، والذراع لها قيمتها التي يعمل لها الجميع ألف حساب ، ولكن جابر لم يكن يصنع شيئا على الاطلاق ، تركه الجميع يجوب ممرات السفينة الضيقة ... يترنخ جسده الطويل أثناء سيره ، وتزحف قدماه داخل حذائه الواسع الكبير ، ثم تدفع الحذاء من الداخل فيتحرك جابر فوق الأرض في حشجة وضيق ..

كان وكأن كل شيء فيه غير متماسك ، ساقاه نحيفتان تجدان داخل ساقى سرواله مجالا لتخطوا فيه الى أمام ، فالسروال لايتحرك ساقا وراء ساق ، ولكنه يتحرك جملة ، وذراعاها مدلاتان في لا مبالاة وكأنهما خرقتان بجانبه ، وجهه نحيف جامد كالصخر ، تبرز عظام وجنتيه بروزا شديدا ، وينحدر على جوانبهما لحم وجهه الرقيق الداكن ، ليكون ذقنا لاتدرك أن كانت حلقة أم نابذة ، فهي بين بين ، تبرز شعيراتها كالشوك في غير نظام ، وتتناثر على صفحة وجهه غبراء حائلة اللون ..

قد يربد الجو وتتلاعب بالسفينة أمواج نائرة ، وقد يهدأ فتزلق السفينة فوق سطح رائق كالزيت ، قد يكون الأمر هذا أو ذاك ، وستجد

دائما جابر الصارى قابعا فى مكان ما ، أى مكان ، محمقا بعين فارغتين فى لاشىء ، تفوح منه رائحة الخمر ، وتتصاعد من فمه وأنفه حلقات متتالية من دخان سيجارته التى لاتنطفئ أبدا ..

وقد تمر أيام لا يراه فيها أحد ، قد ينام الليل ، أو ينام النهار ، وقد لا ينام على الإطلاق ... قد يأكل ، وقد لا يأكل ... لا يعرف أحد ، ولا يعنى أحدا أن يعرف! .

تمر حياته راكدة وكأنه يعيش فى قبر ، فهو بلا أهل ، لا يعنيه أن أبجرت السفينة شهورا أو رست سنوات ، قد يضربه الرجال ، وقد يسخرون منه وقد يسبونونه وقد يضحكون عليه ... وهو هو دائما لا يتغير ولا يخرج عن صمته وهدوئه ، عيناه باهتان ميتتان جامدتان ، تحس وانت تنظر اليهما أن وراءهما فراغا أجوف يتردد فيه صدى أحداث ماضية ..

ويتحدث عنه الرجال ذو الشوارب الكثة الرمادية والشعور البيضاء ، ويقول أحدهم : « كان له من زمن » ، ويهز آخر رأسه وهو لا يزال يتساءل فى دهشة : « بقى وليه تعمل فى راجل كده ؟! » ... ويعتدل الباشريس بجسده العريض وتمتد يميناه لتفتل شاربه الكث الغليظ ثم يقول : « يا خسارة الرجالة ، خمستاشر سنة وهو بالشكل ده! » ..

أما الشباب فكانوا ينظرون اليه كأنه دمية ، ولا يدري أحد منهم لم يسخرون منه ، ولكنهم دائما قساه ، تمتد أكفهم اليه كثيرا فى صفعات هستيرية كأنهم يدفعون عن أنفسهم أشباحا مجنونة ، وينظر هو اليهم بعينه الفارغتين دون أن يقول شيئا ، ويغيظهم صمته ، فيبالغون فى ايلامه ، ولكن أحدا لم يدر ان كان يتألم حقا !!

شىء واحد كان الرجال يحسون فيه بحاجتهم الى جابر .. عندما يكتمل المجلس وتنتصب الزجاجات وسط الرجال كالألهة الصغيرة ، وبعد

الكأس الثانية لابد أن يصيح أحدهم ضاحكا :

« فين المزة ؟ ... ماينف عش الشرب من غير جابر! » .

والحياة في البحر تحتاج دائما الى ابتسامة ، والكأس تحتاج الى ضحكة ، وكلاهما يحتاج الى جابر الصاري الذي يأتي مترنحا ، تنفرج شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة باهتة ، ويتوهج بين أصابعه النحيلة لهب سيجارته ، وتفوح من فمه رائحة الخمر ... وتمايل الزجاجات ، وتقرع الكؤوس ، ويدور الحديث خشنا فظا ، ويختلط صوت الرجال بحفيف المياه أو زجرة الأمواج ، وترتفع الأكواب الى الأفواه ، ويعب جابر الكأس تلو الكأس ، ويفح بصوته المتحشرج الصدى ، ثم يمسح شفثيه بظهر كفه ويجذب نفسا من سيجارته ، ويدور بعينيه الفارغتين في الوجوه وكأنه يدور بهما في الأفق ولا يرى شيئا ... وينبثق صوت ماكر :

«والله مرحب يا جبورة!»

«ماتشرب يا صاري ... كبايتك فاضية!»

وتتصاعد الضحكات ، وتنعد الكلمات في رأس الصاري الفارغة فلا تعنيه في كثير أو قليل !!

وفي البداية — منذ سنوات طويلة — كان حديثهم يبدو له حنونا ، وكلماتهم طيبة ، وكان ينطلق حاكيا كل شيء ، ثم أخذ يتلهف لكي يقص قصته ، ثم بدت له ابتساماتهم وكأن فيها شيئا يغضبه ، والكلمات ترسم في رأسه خطوطا رفيعة ، خطوطا تتجاور لتصنع طريقا عريضا أملس يقود لسانه الى الانزلاق ، فيقص القصة من جديد ، وأخذ بعد ذلك يقصها مرات ومرات وظل يقصها خمسة عشر عاما دون أن يطلب أحدهم ذلك!!

والسنوات تمر كثيرة طويلة ، رجال يذهبون ورجال يأتون ، ولكنهم لا يختلفون ، كلهم متشابهون ، نفس الوجوه القوية الصلدة ، ونفس

النظرات القاسية والأذرع المفتولة ، وهم يكبرون وهو يذوى ، وهم
يضحكون ، وهو لا يدرى سببا للضحك !

وما يكاد يبدأ فى سرد قصته حتى تتوالى التعليقات ، ساخرة ، حادة
كنصل سكين ينغرس فى صدره ، ويقدمون له كأسا وكأسا وكوسا فيشرب
ويقول لهم : «دى مش أصول» ، ويقولون فى أصوات متضاربة : «عندك
حق ... متزعلش!» ، وأصبحت أصواتهم مائعة ، وأصبح لا يستطيع أن
يعرف أن كانت جادة أم هى أكثر سخرية ، وحرار فى البداية ثم أصبح الأمر
لايعنيه ... وماتكاد كأسه الرابعة تختفى فى جوفه حتى يسمع صوتا :
«لسه بتدور عليها؟!»

ويهرز رأسه ثم يقول وهو يضرب المنضدة بأصابعه النحيلة الطويلة :
«مش الحكاية. بقى لها خمستاشر سنة يارجاله؟ ... لكن لسه وعزة
الله باحبها!!»

وتدور عيناه على الوجوه وجها وجها ، ثم تفران الى الكوب ،
وترتجف يده وهو يرفعها الى فمه :
«كنت باحبها ، وكانت بتحبني!» .
«وايش عرفك؟»

وترتفع رأسه فى حده ، ويبرز أنفه كنصل حاد ، وتبرق عيناه
وتبدوان وكأنهما شحنتا بالحياة فجأة ، ثم يأتى صوته ضعيفا متكسرا :
«أنا عارف ... كنا . كنا أيامها فى مالطة ... وقعدنا هناك كثير ،
هيه ، ثلاث سنين ، ستة وتلاتين شهر ، هيه . ستة وتلاتين ايه؟!»
ولا يرد عليه أحد ..

ويستقيم صوته شيئا فشيئا ... وتستين كلماته وتنطلق من فمه
وكان الحياة تدب فيها من جديد ، وتسيل سريعة متلاحقة ، ويجرع كأسا

ويضرب المنضدة بأصابعه ، ويدور بعينه في الوجوه ، ويجرع كأسا ،
والرجال صامتون ، وصور زاهية تتراقص في رعوسهم ، وعيونهم قد شدت
اليه ، وآذانهم كأنها تستمع الى القصة لأول مرة ، ويجرع كأسا ، وتحيا
«روزا» امام الجميع ، وتنزلق رعوسهم الى المنضدة لتجسدها كلمات
جابر ، وتلتهمها آذن الرجال وتعيش معه السنوات الثلاثة . ويعرفون أباها
الذي كان يحبه كابنه ، وعندما يقول أنها أخبرته أن في أحشائها طفلا ...
ييكى .

وقد تسقط دمعة تصنعها الخمر من عين رجل أو رجلين ، ويتسم
آخر في سخرية والوجوه تميل الى أمام ، وقد تتلاصق فتصنع أمامه جدارا
من العيون المحملقة والآذان المرهفة ، وهو يحكى ، ويجرع كأسا ، ويعود الى
الوطن فجأة ويعد العدة لاحتضارها ، وترسل له صورة الطفل الذى سماه
سامى ، ويضحك وهو يقول : «الاسم من ده على ده ، مسلم على
مسيحى!» ..

وتمتد يده الى صدره ويخرج صورة شاحبة تسرب اليها عرق غامق
اللون فبدت وكأنها تتغذى بدمائه ، وتدور بها يده مرتجفة ، وتمتد العيون
اليها ، وخطاباتها لاتزال معه ، تقول أنهما تحبه ، ويهوى البيت ، وتمضى
الشهور ... ويمر عامان .

«أعمل ايه ... ماهيتى كانت تلاتة جنيه ، يعملوا ايه ؟ ...
بطلت السجاير ... بطلت الشاى والقهوة ... يدوبك اللقمة!»

وينفعل جابر الصارى ، وينفعل الرجال ، ويجرع كأسا ، ويجرع
الرجال كهوسا أخرى ، وتميل الزجاجات ثم تعتدل وتنتصب أمامهم كتماثيل
جوفاء خاوية ، وتمايل السفينة وتضرب جوانبها الأمواج ، وتراقص الأنوار ،
وتمايل رعوس الرجال ، وهو لا يكف ... وصوته يأتى عميقا :

الظلام ، يهبط السلم ، ثم يذوب في البلدة ليعود في جوف الليل .

وكان بعض الرجال قد غارد السفينة ، والبعض في سبيله الى مغادرتها ، ولم يكن جابر الصاري هناك ... كان قد غادرها منذ وقت قصير هو الآخر . والسطح قد ركذ وسكن تماما ، ثمة رجل هنا ورجل هناك ، وسكون الغروب قد ظلل كل شيء ... وطائر يحوم فوق السفينة وحيدا ، والعلم في مؤخرتها تكاسل واستلقى في استرخاء .

وفجأة ... تبدد السكون ، وتصاعدت أصوات ، وضجة ، وحديث ، وقسم ، وكلام ... ولم يكن غريبا أن يحدث مثل هذا الامر ، ونظر رجل في الداخل الى زميله متسائلا :

«مش ده صوت الصارى؟!»

وابتسم زميله ساخرا :

«هو يعرف يتكلم؟!»

وازداد الضجيج في الخارج ، واقتربت الأصوات من السفينة ، وثمة رعوس تطل ، وتساؤل في العيون ، ورجال يخرجون ، وصوت جابر يستبين ..

كان جسده الطويل منتصبا كالسيف ، وعيناه دببت فيهما الحياة ، وذراعاها تتحركان في سرعة وقوة ، والرجال من حوله ، وشاب صغير ، صوته ملء ، غريب ، فيه نشوة وحياة ...

«آه ... والنبي ... والله هوه ... هوه سامى ... سامى ابنى ، ريس عبده ، شايف سامى ؟ أيوه .. ابنى سامى ... ياقبطان ياقبطان ، ياحضرة القبطان ... سامى أهوه ... ابنى اللى كنت بأحكى لكم عنه ، آه ، آه والنبي ... هوه سامى وعزة الله ... شوف بقى عريس ازاي ... عريس ... ابنى كبر ، بقى عريس ، ابنى ، لقيتهم هنا ... روزا آهه ،

ياسلام ... عمر ، زمن ، ... سامى ابني يارجاله ، ياسيد ياسيد ، سامى
أهه ... ابني ... ابني!»

كان يتكلم ويتكلم ويتكلم ، وعنايه تدوران فى الوجوه بدهشة ،
ووجهه كله يبتسم ، ولحمه قد استرخى فى راحة ونشوة ، والشاب يقف
ذاهلا ، وهو لا يكف عن الحديث ، ولا يكف عن النظر الى ولده ، ويده
تمتد مرتجفة لتلمس الجسد الفتى ، ويحتضن بنظره وجه ولده ... ويمسك
بيده ، ويحدثه ، ويقول فى خجل فرح :

«مش فاهمنى ، مايعرفش عربى ، زمن ، والله زمن ، لكن ده بقى
عريس!»

وترتفع كفاه لترسما كلمات واشارات ، والشاب يبتسم ويهز رأسه ،
وروزا تقف على الرصيف ، ودموع تنحدر على وجهها وجابر يهبط اليها ،
ويحدثها وتحدثه ، ويربت على كتفها ، ويبكى ، والشاب تلمع فى عينيه
الحيرة ، والرجال فى ذهول ، والليل يهبط والظلام يبتلع جابر الصارى
ولأحد يعرف الى أين!

ووقع الرجال فى الحيرة ... ثمة أسى يهبط الى قلوبهم وثمة فرح غامر
وكأن كلا منهم قد انجب طفلا ، والحديث لا يكف ، وتهتز الرعوس ،
وتتوالى التعليقات ..

ويوم وراء يوم .. وساعة وراء ساعة ، ويقترب يوم الرحيل ... وجابر
لا يظهر ... ويأتى يوم الرحيل ، وفى العيون تساؤل وقلق ، والساعات
تنكمش وتصبح ساعة ، والساعة تتقلص وتصبح دقائق ، وتدوى صفارة
السفينة ، والسطح كخلية نحل ، ولم يبق سوى دقائق ... ووقتها فقط ،
ظهر جابر!

كان يسير، ويده تمسك بيد ولده ، والشاب قد اختفت من عينيه تلك النظرة الحائرة ، والأم تتأبط ذراع زوجها ، أما جابر فكان يبدو صامتا ، على وجهه مسحة من حزن عميق ، ومسحة جديدة من فرحة طاغية ..

. بجوار سلم السفينة توقف الركب... واستدار جابر الصاري فاذا جسده مستقيم لا يهتز ، وصافح الزوج ثم استدار الى الأم وصافحها ، وعندما واجه ولده توقف قليلا ، ثم مد يده وصافح ولده في قوة ، وأشار يديه أن «اكتب» ... ثم استدار نحو السلم وراح يصعده في ثبات ... ومنذ ذلك اليوم لم يسمع أحد من جابر قصة حبه ، وظل اسم «الصاري» لاصقا به لشهور أخرى ثم اختفى من أفواه الرجال ، واستقام جسده الطويل وامتلاً ، وكان كلما اختلى الى نفسه وجدده الرجال يقرأ في كتاب ... وعندما سأله قال في هدوء :
«باتعلم أسباني!»

١٩٦٠

البحار مندى

وقصص من البحر

• هذه القصص •

عندما نشرت قصص الأستاذ صالح مرسى الأولى في عام ١٩٥٦ ، وجدت ترحيباً حاراً من النقاد والقراء على السواء ... ولكن ، ولأن هذا الكاتب كان بحاراً من قبل ، فلقد جاءت قصصه عن البحر ، كزهرة جديدة أضيفت إلى الزهور القصصية في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ... حتى إذا نشرت مجموعة قصصه الأولى « الخوف » في عام ١٩٦٠ ، بدت وكأنها تحمل بشائر كاتب جديد ومتميز الأسلوب ، حتى لقد وصفه شيخ النقاد المرحوم الدكتور محمد مندور بأنه « جى دى موباسان » العرب ...

وهكذا ، وعلى مدى ما يزيد على ربع قرن من الزمان ، كانت قصص صالح مرسى عن البحر ، أدباً ذا نكهة خاصة وطعم خاص ، ميز هذا الأديب وسط بقية الأدباء العرب بأنه كاتب « البحر » .

وفي هذا الكتاب ، جمع صالح مرسى كل ما كتبه من قصص قصيرة عن البحر ، والتي صدرت في مجموعته الأولى « الخوف » ، وكتابه السادس « خطاب إلى رجل ميت » ، ثم أضاف إليها تلك التحفة الطويلة « مغامرات البحار مندى » . وبهذا يأتي الكتاب جامعاً لتاريخ أديب من أكثر أدبائنا قدرة على كتابة القصة القصيرة ، براعة شهد لها بها الكثيرون .